

الدكتور محمود فتاح

الإمام  
عبد الحميد بن باديس

الزعيم الروحي  
لحرب التحرير الجزائرية



دار المعارف





الابام عبء اكمئء بن باوءس

الزعم التروء  
لءرب التءرئء البءرئء



الإمام عبد الحميد بن باديس

الزعيم الزوجي  
لحرب التحرير الجزائرية

تأليف

الدكتور محمود فاسم

عميد كلية دار العلوم  
بجامعة القاهرة

الطبعة الثانية



دارالمغارف



الإله حراء  
إلى الشعب البطل  
شعب الجزائر





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة

كان أحد الأهداف الرئيسية للاستعمار الفرنسي للجزائر ، منذ بدء غزو هذا القطر العربي الإسلامي ، في ١٨٣٠ م ، محو الخصائص القومية والروحية لسكان هذا القطر من الأمة العربية ، وذلك تمهيداً لإدماجه نهائياً في الوطن الفرنسي . وقد ظلت هذه السياسة الاستعمارية مهيمنة لدى حكومة باريس ، ولدى المعمرين من الفرنسيين ، حتى برهنت حرب التحرير الجزائرية على فشلها . حقاً إن الاستعمار الفرنسي للجزائر استطاع بجبروته وعسفه أن يفرض لغته على كثير من المثقفين في الجزائر وشمال إفريقيا ، غير أنه لم يستطع أن ينال كثيراً من العقيدة الإسلامية رغم ما بذله المختصون في شئون الثقافة من محاولات لفصم العقلية الجزائرية ، عن طريق تمجيد التصوف الكاذب ، وإشاعة الخرافات والأباطيل ، على نحو ما نراه في مؤلفات « لويس ماسينيون » الذي خصص حياته للكتابة في الحلاج ، فجعله صورة من المسيح في الإسلام . واعتقد أن ماسينيون ما كان يعنى بالحلاج قدر عنايته بتنفيذ مخطط استعماري أحكم صنعه . فقد ملأ كتابه الضخم عن الحلاج بحشد هائل من الخرافات والترهات والأباطيل ، حتى يعمق الهوة بين طائفتين توجدان بالجزائر : طائفة تتمسك بالقديم ، فتساق ، حسب ظنه ، إلى اعتقاد أن هذه الخرافات والهلديات هي صميم الإسلام ، وطائفة مثقفة بالثقافة الحديثة تتجه من جانبها إلى السخرية والزراية بهذا الإسلام الخرافي ؛ بل من الإسلام كله .

وقد بدأت فرنسا ، منذ الغزو ، تحارب الثقافة العربية ، فقضت على المراكز الثقافية المزدهرة في الجزائر منذ القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وكانت مدينة تلمسان وقسنطينة من أشهر هذه المراكز . كذلك أغلقت نحواً من ألف مدرسة ابتدائية وثانوية وعالية كانت موجودة في الجزائر في سنة ١٨٣٠ . وقد حمل أحد الكتاب الفرنسيين ، وهو « بولار » فرنسا مسؤولية تأخر الجزائر في القرن العشرين ، إذ يقول : « لقد أشاع دخول الفرنسيين ، في الأوساط العلمية والأدبية ، اضطراباً شديداً ،

فهجر معظم الأساتذة الأفذاذ مراكزهم هارين . ولقد كان يقدر عدد الطلاب ، قبل ١٨٣٠ ، بمائة وخمسين ألف طالب أويزيدون . ومهما يكن من شيء فلم ينج من المدارس القديمة سوى عدد قليل من المدارس الصغيرة ، وحرمت أجيال عديدة من التعليم . وكانت فرنسا لا تسمح بفتح مدرسة قرآنية إلا بشروط مهينة ، تنتهى بأن تجعل هذا التعليم في خدمة خططها الاستعمارية ، وقد كتب محمد فريد في جريدة اللواء في عدد ١٢ أكتوبر ١٩٠١ ، يصف حالة التعليم في القطر الجزائري فقال : « ولو استمر الحال على هذا المنوال لحلت اللغة الفرنسية محل العربية في جميع المعاملات ؛ بل ربما تدرس العربية بالمرّة مع مضي الزمن . فلا الحكومة تسعى في حفظها ، ولا تدع الأهالي يؤلفون الجمعيات لفتح المدارس » (١) .

وكان من الضروري لأي معلم مسلم يريد إنشاء مكتب لتعليم اللغة العربية من الحصول على رخصة يمنحها إياه عامل العمالة أو قائد الفيلق العسكري ، وإلا اعتبر خارجاً على حدود القوانين الخاصة بالأهالي *Les Lois d'Indigenat* ، وكانت قوانين رهيبة . وكان من شروط منح رخصة التعليم أن يقتصر التدريس على حفظ القرآن لا غير ، مع عدم التعرض لتفسير آيات القرآن ، وبخاصة الآيات التي تدعو إلى التحرر ومقاومة الظلم والاستبداد ، وعدم دراسة تاريخ الجزائر والتاريخ العربي الإسلامي ، وجغرافية القطر الجزائري والبلاد العربية ، وعدم تدريس الأدب العربي بجميع أنواعه ، وتحريم تدريس المواد العلمية والرياضية .

أما المدارس الفرنسية ومدارس الإرساليات التبشيرية ، التي حلت محل المدارس العربية ، فكانت لها برامجها الهادفة الواضحة . فهي تعنى ، في المقام الأول ، بدراسة تاريخ فرنسا وحضارتها وعظمة جيوشها ، حتى تشرب نفوس النشء بحبها ومحاوله السير في ركابها ، مع الحرص على الخط من حضارة العرب والمسلمين . ومع ذلك ، فقد توجس بعض المعمرين من الفرنسيين خيفة من تعليم الجزائريين في مدارسهم ، إذ سوف يثير ذلك في المدى البعيد كثيراً من المتاعب الاقتصادية والسياسية .

(١) أخذنا هذا النص من كتاب الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا للأستاذ أنور الجندي



وبما يدل على أن فرنسا كانت حريصة كل الحرص على تنفيذ سياستها في الجزائر لتحقيق إدماج هذا القطر في فرنسا نهائياً - ما أصابها من فزع عندما استطاع الإمام بن باديس أن يفسد عليها خططها ابتداء من سنة ١٩١٣ . لقد كانت لاتعياً به أول الأمر ، وكانت تظن أنه لا يتميز في شيء عن بقية الفقهاء الذين يدرسون القرآن في المساجد . غير أنها فطنت إلى خطورة حركته عندما فجأها بتأسيس جمعية العلماء المسلمين في سنة ١٩٣١ ، وفيما بين هذين التاريخين كانت فرنسا تنفذ سياسة تعليمية استعمارية تهدف إلى تحقيق السلطة والسلطان والسيطرة ، وإلى خلق رعايا يخدمون فرنسا بأبدانهم وأرواحهم . وهذا هو السبب الذي دعا الحكومة الفرنسية في الجزائر إلى مقاومة حركة التعليم العربي والديني التي اضطلعت بها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بكل عنف وعسف ، فأخذت تلاحقها وتحاول الحد من نجاحها ، فأصدرت قراراً في سنة ١٩٣٣ يقضي بمراقبة الجمعية ، ويطارد هؤلاء الذين اتجهوا إلى تعليم الشعب لغته ودينه ، إما عن طريق فتح المدارس القرآنية ، وإما عن طريق الوعظ والإرشاد في المساجد . واستطاعت الإدارة الفرنسية أن تحتكر الوعظ والإرشاد لعلماء الدين الرسميين ، وأن تحظر على العلماء اتخاذ الخطبة في المساجد طريقاً إلى بعث الروح العربية الإسلامية في ربوع الجزائر .

وعندما اشتد ساعد النهضة الجزائرية ، التي غرس الإمام عبد الحميد بن باديس بذرتها، وتعهدها هو وأصحابه ، وعندما عجزت فرنسا عن مقاومة التيار العربي الإسلامي الذي أصبح مسيطراً في توجيه سياسة المطالبة بحقوق المواطنين الجزائريين في بلادهم ، ركبت متن الشطط ، فأصدر «شوطان» وزير داخلية فرنسا قراراً في ٨ مارس سنة ١٩٣٨ بمنع تعليم اللغة العربية في الجزائر ، واعتبارها لغة أجنبية ، مع أن الغالبية العظمى من الجزائريين في ذلك الحين ، كانت تجهل اللغة الفرنسية . وهكذا ظل تسعة أعشار أبناء الجزائر لا يجدون مكاناً لهم في المدارس ؛ بل كأنما أرادت فرنسا أن تنشئهم على التشرد والبطالة ، لكي تعدهم للهجرة إلى فرنسا من أجل العمل في مصانعها كأيد عاملة رخيصة .

\* \* \*

ولم يكتف الاستعمار بحرب الإبادة ، التي كان يسميها الحرب المطلقة ، أي الحرب من أجل الحرب ، ولم يقنع بحرق الزرع وتدمير القرى وقطع أشجار

الغابات والتخطيط للمجاعة الرهيبة في عام ١٨٦٧ ، على النحو الذي دعا « جيل فيري » في سنة ١٨٩٢ ، إلى إظهار الحسرة على تلك الأفعال التي لا تليق بفرنسا ، ولا تتفق مع العدالة ، ولا مع السياسة بعيدة النظر — تقول إن الاستعمار لم يقف عند هذا الحد ؛ بل قاد حرباً أخرى ، هي الحرب الدينية التي تجلت فيها روح الحروب الصليبية . فأخذت تهاجم بعنف القيم والنظم الإسلامية . وقد أظهرتوكفيل الذي لا يمكن اتهامه بروح المودة تجاه العالم العربي على حد تعبير فرحات عباس<sup>(١)</sup> استنكاره لأساليب هؤلاء الذين أدخلوا على أنفسهم تدمير المجتمع الجزائري فقال ، بعد أن عدّد كثيراً من المظالم التي لحقت بالشعب الجزائري من الاستيلاء على أراضيه ، وعلى الأوقاف المحبوسة على التعليم ومنشآت الإحسان : « وقضينا على مؤسسات الإحسان ، وتركنا المدارس تتهدم ، وشتتنا الطلاب ، وانطفأت الأنوار حولنا ، وانقطع تخريج رجال القانون ، ومعنى ذلك أننا رددنا المجتمع الإسلامي أكثر بؤساً وهمجية مما كان عليه قبل أن يعرفنا » .

وقد فطن فرحات عباس ، كما فطن آخرون معه إلى أن موقف البورجوازية الفرنسية في الجزائر كان مدعاة للعجب . فإن هذه البورجوازية نفذت أحكام الإعدام في القسس ، وأحرقت الكنائس ، وحاولت محو الدين المسيحي في فرنسا المسيحية . أما في الجزائر فقد اتخذت مسلكاً مخالفاً ، فحولت المساجد إلى كنائس ومجّدت المسيحية ، واستخدمت أموال المسلمين لتنصرهم ، وهكذا أحييت الروح الصليبية ، عندما رفعت علم المسيحية ضد الإسلام ، في الوقت الذي ظلت تسخر فيه من المسيحية والإسلام في آن واحد .

ويمكن تفسير هذا التناقض بأن المستعمرين أرادوا تيرير مسلكهم في تحطيم الشعب الجزائري واغتصاب أرضه وثروته بأن لبسوا مسموح المبشرين الذين يريدون تحقيق سعادة الآخرين رغم أنفوسهم ، كأنهم كانوا يقتلونهم ، وهم يقولون : إنما نقتلكم محبة لكم ، وإشفاقاً عليكم .

وما يدل على أن هذه السياسة كانت تسير هي الأخرى وفقاً لخطة مرسومة

أن السلطات الفرنسية رأت في سنة ١٨٧٤ أن تغلق المحاكم الإسلامية في منطقة القبائل لتستعيض عنها بمحاكم أخرى تلتزم بالعرف لا بالدين ، ولكم بذلت الإدارة الفرنسية من جهود لتفريق بين البربر والعرب ، بل ربما كان الأوفق أن يقال إنها هي التي ابتكرت هذه التفرقة بين مسلمي الجزائر بعد أن سما الإسلام ما بينهم من العصبية للجنس ، ومزجهم عن طريق المصاهرة . ولم يكن إصدار الظهير البربري في سنة ١٩٣٠ على إثر إخضاع ثورة الأمير عبد الكريم الخطابي ، إلا إحدى حلقات هذه السياسة ، فقد صرح الكاردينال « لا فيجري » في هذا العام نفسه : « علينا أن نجعل أرض الجزائر مهداً للدولة مسيحية تضاء أرجاؤها بنور مدنية منبع وحيها الإنجيل » .

أما فيما يتصل بقضاء فرنسا على ثورة الأمير عبد الكريم الخطابي ، فقد أظهور المعمرون في الجزائر فرحتهم الغامرة بالقضاء على حرب الريف ، ورأوا في الانتصار على الأمير عبد الكريم هزيمة كبرى للإسلام . وهذا هو ما عبرت عنه صحيفة الديبش Le Depêche في مدينة قسنطينة فقالت (١) : « لقد سلم عبد الكريم دون شروط ، وجاء ليضع نفسه تحت حماية فرنسا ، وكان هذا هو ما كنا نتمناه . إن هذه الحادثة التاريخية لهائلة جداً ، وهي كما سبق أن قلنا تتجاوز نطاق مراكش بل كل شمال إفريقية ، إنها طعنة للإسلام في الصميم . وعلينا الآن أن نعمل ما في طاقتنا حتى لا ينهض بعد اليوم » . غير أن الإسلام قد نهض ، ولكن ما زال كثير من الدول في أوروبا الغربية تحارب الوطن العربي بكل صنوف الأسلحة ، شريفة وغير شريفة .

غير أن فرنسا لم تنجح في هذه السياسة الروحية . حقاً ربما خدعت بعض المثقفين الجزائريين لفترة قصيرة ، منذ مطلع القرن العشرين ، فظن هؤلاء المخدوعون أن التجديد الإسلامي لن يتحقق في الشمال الإفريقي إلا بعون من الاستعمار ، وقد خفي عن هؤلاء أن طبائع العمران لا تسير وفقاً لهذه الأمانى الرومانتيكية . ذلك أن العلاقة بين الغالين والمغلوين من جنسين مختلفين ، وثقافتين متباينتين ، لا تغتفر



للغالب أن يتحرر من عقلية المغتصب ، لكي ينقلب من ذوى الفضل والمروءة . ونحن لا نقسو على أمثال هؤلاء الخياليين المخدوعين ، لكننا نقول إنهم فعلوا ما ظنوه خيراً ، إذ كانت تعوزهم القدرة على تغيير الواقع ، أو ينقصهم في الأقل ، عمق الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة التي تزودهم بالشجاعة العقلية النادرة ، تلك الشجاعة التي تتيح لهم صدق الالتحام بالجمهير، إن أمثال الإمام بن باديس وأصحابه هم الذين استطاعوا في الثلاثينيات والأربعينيات أن يهبطوا إلى أعماق روح الشعب الجزائري ، وأن يصعدوا بها ، وهم الذين أسهموا بأكبر قدر في صنع الجيل الذي غير الواقع الجزائري ، وعكس العلاقات بين فئة الغالين والمغلوبين .

أما من خدعوا في فرنسا فقد نسوا أن المضمون التاريخي للحركة الوطنية في الشمال الإفريقي لا يتسق مطلقاً مع تلك الثقة المفرطة في الحكم الاستعماري الذي يقوم أساساً على استغلال الشعوب أبشع استغلال متى عجز عن إبادتها .

وإذا كنا قد أبحنا لأنفسنا أن نذكر القوم بجراحات الماضي فذلك لكي نبين في أمانة حقيقة السياق التاريخي الرهيب الذي نبت فيه فكرة بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية . والتاريخ عظة ، وكوارث أمتنا العربية ومآسيها مع العالم الغربي لا تكاد تنقطع .

ونخبرنا فرحات عباس كيف كفر بإمكان تزعم فرنسا لحركة النهضة العربية الإسلامية في الشمال الإفريقي عندما عاد بذهنه إلى موقف المعمرين الفرنسيين بالجزائر بعد هزيمة الأمير عبد الكريم ، فهو يرى أن فرنسا لم تترك قبل هذه الهزيمة أو بعدها أية مناسبة لكي تشعر الجزائريين بهزيمتهم ، وبأنهم قوم غير مرغوب فيهم في وطنهم . فإلى جانب سياسة التجويع والتجهيل والطرء إلى حافة الصحراء وتوجيه مئات الألوف من الجزائريين الذين ضاقت بهم سبل العيش في وطنهم نحو ميادين القتال أو نحو أحط أنواع العمل في مصانع فرنسا ، كانت السلطة الفرنسية في الجزائر تعد العدة للاحتفال المئوي لاحتلال العاصمة .

هذا وقد اعترف فرحات عباس في كتابه «الظلمة الاستعمارية» بأن هذه الإهانات الموجهة إلى الإسلام وإلى القومية العربية منذ الاحتلال حتى سنة ١٩٣٠

هى التى مهدت لقيام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، فكانت ، فى رأينا نحن ، الحل الطبيعى لتلك الحلقة المفرغة التى وقف أمامها فرحات عباس متسائلاً : « لكى نسمع الآخرين أصواتنا لا بد لنا من أن يكون لنا من يمثلنا ( فى البرلمان الفرنسى ) ، لكن يجب أن نكون قادرين على إسماع الآخرين أصواتنا حتى يكون لنا من يمثلنا » .

وأيّاً كان الأمر ، فإن ما يقوله فرحات عباس فى كتابه المشار إليه فى سنة ١٩٦٢ هو ما استطاع بن باديس أن يغرسه فى نفسه غرساً ، وكأن ما يقوله فرحات عباس هنا ليس إلا صدى لما قاله بن باديس منذ بدء حركته الإصلاحية الثورية : « إن الجزائر بلد عربى . ومن ذا الذى يفكر فى إنكار هذه الحقيقة ، وهى أرض إسلامية أصيلة . وذلك حق أيضاً . ومهما يكن من إرادة الإمبريالية فى الماضى والحاضر ، ومهما يكن من قوة حرايتها ، فإن هذه الظاهرة التاريخية تظل صادقة تمام الصدق . إن الاستعمار الفرنسى لم يدخر جهده حتى يستعبد الجزائريين ، وحتى يتزع من قلوبهم الإسلام والعروبة . وقد حاول الاستعمار جهده ، طيلة قرن من الزمان ، لكى يصل إلى هذه الغاية ، ولم يكتف الاستعمار باستخدام القوة وتبريرها من الوجهة القانونية ، بل أراد أن يبرر مسلكه ، وأن يجعل ضم الجزائر إليه أمراً مشروعاً<sup>(١)</sup> . » ونقول نحن : إن الاستعمار حاصر الجزائر أكثر من قرن من الزمان ، وإن رجلاً فذاً بدأ وحده يفك هذا الحصار فى إخلاص وعزم وأمانة وشرف . وهذا هو السر الذى كان سبباً فى أن جمع قلوب الأمة حوله ، فرفعته فوق خلافات الأحزاب والاتجاهات التى لا بد من أن تحدث عندما تريد أمة الخلاص من ربة الاستبداد والذل .

وأعتقد أن بن باديس أجاد رسم خطة رفع الحصار فى أشد الأوقات بأساً وقنوطاً . لقد أدرك بتدينه الصادق الملهم أن التفاؤل والعمل الوليد المستمر هما أساس كل شيء .

\* \* \*

وبعد فقد أردت بهذه المقدمة التى أوجزت فيها قدر الطاقة أن أهى ذهن

( ١ ) كتاب « الظلمة الاستعمارية » لفرحات عباس .

القارئ للجو الروحي والفكري الذي تمت فيه معجزة القرن العشرين ، وأعني بها تحرير الجزائر ، بعد أن دفع أبناؤنا ثمناً غالياً من دمائهم وشهاداتهم .

وقد خصصت الفصل الأول للحديث عن حياة بن باديس ودراسته ، واشتغاله بالصحافة ، وتأسيسه لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ومسلكه العملي في بناء الأمة ابتداء من الصفر . أما الفصل الثاني فقد أردت أن أعرض فيه للسمات الأساسية في شخصية هذا المصلح الثائر ، حسب أداني إليه فهمي ، وما سمعت عنه من بعض تلاميذه وأصدقائه ، عندما أتيج لي زيارة الجزائر في العام الماضي : كذلك أشرت فيه إلى منهجه في الإصلاح ، وطريقته لإتقاد الجزائر . أما الفصل الثالث فقد عالجت فيه فكره السياسي ، وما قام به من عمل سياسي جعله زعيماً لتنهضة الجزائرية المعاصرة . وقد رأيت أن أخصص فصلاً رابعاً للأساس الفلسفي الذي بنى عليه الإمام بن باديس فكرة تحرير الجزائر عن طريق تصحيح المفاهيم الروحية . فكلنا يعلم أن شعار حرب التحرير الجزائرية هو قوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، وهذا الشعار مرتبط بفكرة القضاء والقدر من جانب ، وبحرية الإنسان واختياره من جانب آخر . وقد أتيج لي أن أعقد مقارنة في هذا الموضوع بين كل من بن باديس والإمام الماتريدي وابن رشد . لقد عاش الماتريدي في القرن الثالث الهجري وابن رشد في القرن السادس الهجري ، في حين عاش بن باديس في القرن الرابع عشر الهجري . والأول كان في المشرق ، والثاني بالأندلس ، والثالث بالجزائر . لكنهم اجتمعوا على فكرة واحدة ، وهي أن الاعتراف بالقضاء والقدر ليس معناه إنكار حرية الإنسان وقدرته على تغيير الواقع ، أو التنكر للعلم والبحث . وهذا هو موضوع الفصل الخامس

وأخيراً ، رأيت أن أقدم في الفصل السادس بعض نصوص من كتابات بن باديس . وأهم سمة فيها هي أنها من السهل الممتنع ، وأنها ليست مجرد نصوص تكتب ، وإنما هي نصوص تسرى ، بل سرت في النفوس فأحيتها . وأرجو أن يغفر لي أصدقائي الجزائريون أنني ربما لم أف بما وعدت من كتابة مفصلة عن بن باديس ، ولعلّي أعود مرة أخرى لأفصل ما أوجزت .

## الفصل الأول

### الإمام عبد الحميد بن باديس

١ - مولده :

ولد عبد الحميد بن باديس في الخامس من ديسمبر سنة ١٨٨٩ بمدينة قسنطينة في أسرة ذات جاه وشهرة بالعلم والفضل ، وترجع في أصولها إلى المعز بن باديس الصنهاجي مؤسس الدولة الصنهاجية الأولى ، التي خلفت الأغالبة على مملكة القيروان . وقد تميز كثير من أجداده بالعلم . ومنهم أبو العباس ، بن باديس من كبار قضاة قسنطينة وأكثر علمائها شهرة . وقد ساعده ثراء أسرته على أن يتحرر من الحاجة إلى طلب الوظيفة من الإدارة الفرنسية ، وعلى أن يخصص حياته بأسرها لإحياء الروح الجزائرية ، وأن يعد أمتة للمقاومة الفعالة التي انتهت بتحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسي بعد مائة وثمانين وثلاثين سنة .

وقد استطاع بصادق فطرته وإخلاصه أن يهتدى إلى السلاح الناجع الذي حطم به أسطورة الجزائر الفرنسية ، تلك الأسطورة التي حاولت فرنسا أن تفرضها على الجزائريين ، والتي نجحت في أن تجر إليها نفراً من السياسيين المحترفين .

ولقد وضع بن باديس خطته على أساس مبتكر يتأخص في أن يحاصر فرنسا في رفق وعزم صارم ، في الوقت الذي تظن هي فيه أنها تحاصر الجزائر . ولم تفتن فرنسا إلى مهارة هذه الخطة إلا بعد فوات الوقت ، فوجدت نفسها محاصرة ؛ بعد أن نحى بن باديس أعوانها طائفة بعد أخرى . وكان من الضروري أن يفلح في تنفيذ خطته بعيدة المدى ، وهي القيام بانقلاب جذري يرتكز في المقام الأول والأخير ، على إعداد جيل صالح ينهض نهضة إسلامية عربية ، بحيث يأخذ من عظمة الماضي ، ومن يقظة الحاضر ، ما يعصمه من الزلل والانحراف ، ويسير به في طريق المستقبل المشرق . وقد استمد قوته كلها من العودة إلى مذهب السلف ، وكشف عن هذه القوة الهائلة التي حققت يقظة الجزائر ، بعد أن أتت دعوته ثمارها . فهو يقول



في سنة ١٩٣٨ : « إننا بالأمس حين لم نلتفت هذه اللفتة إلى ماضينا وقوتنا السماوية ما كنا نرهيب أحداً ، ولا نستطيع أن نشعر بوجودنا أحداً . أما اليوم فهذه اللفتة القصيرة إلى تراثنا المجيد استطعنا أن نعلن عن وجودنا ، ونخيف بعد أن كنا نخاف » .

### ب - دراسته :

وقد بدأ دراسته الأولى في قسنطينة فحصل الثقافة العربية الإسلامية ، وأخذ عليه أحد أساتذته ، وهو الشيخ حمدان الونيسي ، عهداً ألا يعمل موظفاً في الحكومة ، حتى يتفرغ لخدمة دينه وأمته ، بعيداً عن كل تأثير خارجي قد يفسد عليه حكمه ، أو يبعده عن غايته ، فيميل به عن جانب الحق . ونفذ عبد الحميد بن باديس هذا العهد ، وطبقه مع من كان يتوسم فيه الخير من تلاميذه .

ولما هاجر أستاذه إلى الحجاز ارتحل بن باديس إلى جامعة الزيتونة في عام ١٩٠٨ ، وكان حينئذ في التاسعة عشرة من عمره . وهناك تتلمذ على الشيخ محمد النخلي والشيخ طاهر بن عاشور . وكان أثر الأول في نفسه عظيماً . غير أنه يمكن القول بأن الدراسة في جامعة الزيتونة لم تكن في المستوى الذي تتطلبه نزعة العلمية والإصلاحية . وفيما بعد ، نجده ينقد منوج القوم هناك في تدريس العلوم الإسلامية ، وينعى عليهم أنهم يتركون اللب من أجل القشور ، ويغرقون في بحار من الجدل والتشعيب تنسيهم أصالة الفكر الإسلامي ، ومدى تأثيره في النفوس ، وقدرته على تغيير مقادير الشعوب . ثم عقد النية على السفر إلى مكة لأداء فريضة الحج ، فاتجه إلى الحجاز في سنة ١٩١٢ ، ولقي شيخه حمدان الونيسي وغيره من علماء مصر والشام ، وتلمذ على الشيخ حسين أحمد الهندي . واستطاع أن يغمر نفسه المتوثبة في تيار الحركة السلفية المزدهرة في الشرق . ويقال إنه طلب إلى أستاذه الشيخ حمدان والشيخ الهندي النصيحة فيما عسى أن يفعل ، فأشار عليه الأول بالبقاء في المدينة المنورة ، ونصحه الثاني بالعودة إلى الجزائر من أجل العمل ؛ إذ لا خير في علم ليس بعده عمل . وقد سجل لنا بن باديس قصة هذا اللقاء ، فقال في يوم الاحتفال بافتتاح دار الحديث في تلمسان في خريف سنة ١٩٣٧ ، وهو الاحتفال الذي وصفه هو نفسه بأنه عيد النهضة الجزائرية : « أذكر أنني لما زرت المدينة المنورة ، واتصلت فيها



بشيخي الأستاذ حمدان الويسي المهاجر الجزائري ، وشيخي حسين أحمد الهندي ، أشار على الأول بالهجرة إلى المدينة ، وقطع كل علاقة لي بالوطن ، وأشار على الثاني ، وكان عالماً حكيماً ، بالعودة إلى الوطن وخدمة الإسلام فيه والعربية بقدر الجهد ، فحقق الله رأي الشيخ الثاني ، ورجعنا إلى الوطن بقصد خدمته ، فنحن لانهاجر ، نحن حراس الإسلام والعربية والقومية . . . في هذا الوطن <sup>(١)</sup> .

### ح - عودته إلى الجزائر :

ولما عاد إلى الجزائر في عام ١٩١٣ أقام في مدينة قسنطينة ، وبدأ ينقل خطته التي ربما كانت سرّاً بينه وبين نفسه ، ويقول الشيخ بشير الإبراهيمي إنه لقيه في الحجاز في هذه الحقبة ، وإنهما اتفقا على وضع الخطة معاً . وإنه اجتمع بابن باديس بعد عودته من الحجاز ، ويشهد الله على أن تلك الليالي من سنة ١٩١٣ م هي التي وضعت فيها الأسس الأولية لجمعية العلماء الجزائريين التي لم تبرز إلى الوجود إلا في سنة ١٩٣١ <sup>(٢)</sup> وأخذ بن باديس نفسه بتعليم النشء بحسبه لوجه الله ، وخدمة لاوطن . وكان يلقي دروسه في مسجد سيدى قموش وفي الجامع الكبير بالمدينة لفترة من الزمن . وكان يبدأ دروسه بعد صلاة الفجر ، ويظل طيلة نهاره يعلم الأطفال الدين وعلوم العربية متدرجاً معيهم حسب مستوياتهم المختلفة ، وكان بمثابة أستاذ وحيد ينهض بعبد التدريس في مدارس مختلفة تنتقل إليه بدلا من أن ينتقل إليها . ثم إنه كان لا يقطع عمله إلا لساعة بعد صلاة الظهر يتناول فيها قليلا من الطعام ، ثم يستأنف عمله حتى صلاة العصر ، ثم صلاة المغرب والعشاء . غير أن عمله ما كان ينتهي عند هذا الحد ؛ إذ كان يستأنف التدريس لكهول قسنطينة وشيوخها من التاسعة مساء حتى منتصف الليل يفسر لهم القرآن الكريم في الجامع الأخضر ، ويدعوهم إلى الله وإلى تغيير نفوسهم حتى يغير الله ما بهم . وهكذا نفهم لماذا كان شعار الثورة الجزائرية قوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، لأن بن باديس ربط فكرة القضاء والقدر بفكرة الأسباب والقوانين الطبيعية وحرية الإنسان

(١) الشهاب ، الجزء الثامن المجلد الثالث عشر ١٣ شعبان ١٣٥٦ ، أكتوبر ١٩٣٧ ص ٣٥٤ .

(٢) مجلة المجمع القوي الجزء الحادي والعشرون سنة ١٩٦٦ ص ١٤٠ ، ١٤١ .

وقد برته على تغيير واقعه . وأتاحت له ثروته أن يمد نشاطه إلى المدن الجزائرية الأخرى . كالعاصمة ووهران وتلمسان ، حيث كان يأتي فيها دروسه في التفسير كل أسبوع ، مع الحرص على السفر إليها في أثناء الليل بعد الانتهاء من دروسه بالجامع الأخضر لأنه كان على عجلة من أمره . والحق أنني لا أعرف في القديم والحديث أستاذا يضارعه في هذا الإخلاص على ضعف في بنيته ، وكثرة في أعماله الأخرى ، من مساهمة في الصحافة ، ولقاء الأقران الذين بلغوا يتجمعون حول دعوته ، مما أدى فيما بعد إلى تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في سنة ١٩٣١ .

وقد ذكر لنا عبد الحميد بن باديس تاريخ ببلد التدريس في الجامع الأخضر فقال : « أما ببلد تعليمي فيه فكان في عام ١٣٣٢ هجرية ، وكان ذلك بسعي من سيدي أبي لدى الحكومة ، فأذنت لي بالتعليم فيه بعد ما كانت منعتني من التعليم بالجامع الكبير ، بسعي المفتي في ذلك العهد الشيخ المولود بن موهوب ، وقد يسر الله لنا بفضلته التعليم فيه إلى اليوم ( ١٩٣٨ ) ، والله نسأل أن يجازي كل من أعاننا فيما قمنا به كل خير ، وأن يسر لنا القيام بخدمة العلم فيما بقي من العمر »<sup>(١)</sup> .

وظل بن باديس يعمل في مجال التدريس وبناء جيل الثورة ، ويحكم الحصار حول المستعمر الذي لم يقطن إلى خطره ، لأن الاستعمار ظن أنه يعتمد على طبقة كثيفة من أتباع الطرق الصوفية والعلماء الرسميين ، تستطيع الوقوف أمام أية فتنة تحاول النيل من الحصار الذي نيل إليه أنه أحكم صنعه لعزل الأمة الجزائرية عن الحركة الإسلامية في المشرق وفي المغرب .

ولما قامت الحرب العالمية الأولى ، وكان بن باديس في بلد الطريق « اعتصم بالله ، كما يقول زميله الشيخ الإبراهيمي ، فكفاه شر الاستعمار ، وكان له من وجود والده درع وقاية من بطش فرنسا التي لا تصبر على أقل من هذه الحركات ، وكان لوالده مقام محترم عند حكومة الجزائر ، فسكنت عن الابن احتراماً لشخصية والده » ، كذلك يقول الشيخ الإبراهيمي إنه لما عاد إلى الجزائر بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى لقي بن باديس بتونس ، ثم زاره بقسنطينة ، ورأى بعينه النتائج التي حصل

(١) الشهاب الجزء الرابع من المجلد الرابع عشر ، يونيو ويوليو سنة ١٩٣٨ ص ٣٠٤ .

عليها أبناء الشعب الجزائري في بضع سنوات من تعليم بن باديس ، واعتقد من ذلك اليوم أن هذه الحركة العلمية المباركة لها ما بعدها ، وأن هذه الخطوة المسددة التي خطاها بن باديس هي حجر الأساس في نهضة عربية في الجزائر ، وأن هذه المجموعة من التلاميذ التي تناهز الألف هي الكتيبة الأولى من جند الجزائر .

#### د - اشتغاله بالصحافة :

ولما أحس الإمام بن باديس صلابة الأرض تحت قدميه شرع يهاجم أصحاب الطرق الصوفية ممن ارتضوا لأنفسهم أن ينقثوا روح التعاقل بين أتباعهم ، ليرتضوا ما أرادته لهم فرنسا من تدويل شخصيتهم الجزائرية ، تمهيداً لإدماج الجزائر نهائياً في الوطن الأم ، ذلك الإدماج الذي كان الهدف الأول للغزو الاستعماري منذ ١٨٣٠ . وقد بدأ بن باديس حملته على الطريقة في عام ١٩٢٥ ، في إطار « محاربة الآفات الاجتماعية . . . والبطالة والجهل وكل ما يجرمه صريح الشرع ، وينكره العقل ونحججه القوانين الجارية بها العمل » (١) ، فقد رأى أن « اعتقاد تصرف أحد من الخلق مع الله ، في شيء ما ، شرك وضلال ، ومنه اعتقاد الغوث والديوان ، وأن « بناء القبور ، ووقد السرج عليها والذبح عندها لأجلها والاستغاثة بأهلها ضلال من أعمال الجاهلية ، ومضاهاة لأعمال المشركين . . . » ، وأن الأوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السلف . ومبناها كلها على الغلو في الشيخ ، والتحيز لأتباع الشيخ وخلمة دار الشيخ وأولاد الشيخ ، إلى ما هنالك من استغلال وإذلال وإعاقة لأهل الإذلال والاستغلال ، ومن تجميد للعقول وإماتة للهمم وقتل للشعور » (٢) .

وجعل بن باديس ينبه الأمة الجزائرية إلى خطر هذا التصرف الخادع من الوجهتين الدينية والاجتماعية ، واتخذ من جريدة « المستند » التي أصدرها في سنة ١٩٢٦ لسان حال هذه الحملة ضد الطريقة (٣) . وقد روى لنا الشيخ محمد بشير الإبراهيمي أن صلته بالإمام بن باديس زادت قوة في الفترة ما بين ١٩٢٠ - ١٩٣٠

(١) وهذا ما عبر عنه فيما بعد الفصل الرابع من القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

(٢) نفس المصدر ، دعوة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، بنود ١٤ ، ١٥ ، ١٦ .

(٣) مجلة مجمع اللغة العربية الجزء الحادي والعشرون سنة ١٩٦٦ ص ١٤٣ .



وأنهما كانا يتلاقيان في كل أسبوعين أوفى كل شهر . . . « فترن أعمالنا بالقسط ، وزن آثارها في الشعب بالعدل ، ونبنى على ذلك أمرنا ، ونضع على الورق برامجنا للمستقبل بميزان لا يختل أبداً . . . فكانت هذه السنوات العشر كلها إرهاصاً لتأسيس جمعية العلماء الجزائريين » ، وعندئذ تنهت الإدارة الفرنسية إلى خطر هذا المصلح الذي بدأ يهاجم أعوانها ، فأصدرت قراراً بتعطيل هذه الجريدة بعد أن صدر منها ثمانية عشر عدداً (١) .

ولما كان القانون يسمح بإصدار الصحف ، فقد أسرع بن باديس ، فأصدر جريدة « الشهاب » ، مع اصطناع نوع من المرونة السياسية التي برع فيها ، فخفف اللهجة ، وسار على خطى « المنتقد » في فضح الطرق الصوفية وبيان مخالفتها لروح الدين على النحو الذي كان يفهمه السلف . وقد أتاحت له هذه المرونة أن يحتفظ بجريدة « الشهاب » التي كان يصدرها ببعض دروسه في التفسير وشرح الأحاديث ، مع تطبيقها في مهارة فائقة على الواقع الجزائري . وهكذا استطاع أن يحتفظ لجريدة « الشهاب » بالبقاء ما بين سنة ١٩٢٦ وسنة ١٩٤٠ سنة وفاته . وربما لم تجرؤ الإدارة الفرنسية على مصادرتها خوفاً من رد الفعل الجزائري إذ كان الطابع الديني للجريدة هو السبب في بقائها .

ولم يكن بد من أن يشعر المستعمر بخطر دعوة بن باديس التي وضعت نصب أعينها إيقاظ الروح العربية الإسلامية في الجزائر ، تلك الروح التي بذلت فرنسا منذ الغزو كل جهودها للقضاء عليها بكل وسيلة ممكنة ، ومنها الإبادة البشرية . ورأت الإدارة الفرنسية في الجزائر أنها ربما استطاعت القضاء على دعوة بن باديس إذا هي حركت أعوانها من الطرق الصوفية ، تلك الطرق التي مالت إليها منذ منتصف القرن الماضي ، وأسهمت معها في القضاء على ثورة الأمير عبد القادر . وكان من الطبيعي أن تتحالف هذه الرجعية المستغلة مع المستعمر . ونخيل إلى الحليفين أن اغتيال الشيخ بن باديس ربما كان وسيلة ناجعة للقضاء على الدعوة إلى القومية الجزائرية في مهداها . وعهد المتآمرون بتنفيذ هذه الخطة إلى أحد أتباع العلويين ،

(١) ومن قبل ، اشترك في تأسيس جريدة النجاح ، لكنه تركها في ١٩٢٥ . أما جريدة « المنتقد » فكان هو الذي تولى رئاسة تحريرها ، بينما عهد بإدارتها إلى الشهيد أحمد بوشمال ، وكان يعاونه من الكتاب كل من الشيخ مبارك المبل ، والشيخ الطيب المعقب .

وكان ذلك في عام ١٩٢٧ ؛ إذ خرج على الإمام بن باديس هذا القاتل الأجير ليفتك به عند عودته إلى بيته ، بعد انتهائه من دروس التفسير في منتصف الليل . غير أن هذا الغادر لم يفلح في ارتكاب جريمته ، فقبض عليه أتباع بن باديس . ولا كان العفو إحدى السمات المميزة في شخصية الإمام ، فقد عفا عنه ونهى أصحابه عن الفتك به ، متمثلاً بقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « اللهم اغفر لقوى فإنهم لا يعلمون » .

وكانت جريدة « الشهاب » أسبوعية في بدء نشرها ، ثم غدت شهرية . وتعد سجلاً حافلاً لتاريخ الجزائر ونهضتها الحديثة فيما بين الحربين الأولى والثانية . وقد اختص الشيخ عبد الحميد بن باديس بالكتابة في القسمين الديني والعلمي ، وحتوت جريدة « الشهاب » بعض دروسه في تفسير القرآن التي أطلق عليها صاحبها اسم مجالس التذكير . وهكذا أمكن جمع شيء يسير من هذا التفسير<sup>(١)</sup> الذي استغرق من بن باديس نحواً من ربع قرن ، والذي ضاع الكثير منه لعدم تدوينه . غير أن هذا القليل الذي أمكن إنقاذه شيء كثير . ويكشف لنا هذا القليل والعظيم ، في آن واحد ، عن ضخامة ما ضاع من إنتاج بن باديس . لكن هذا الإنتاج الضخم ، وإن لم يدون كتابة فقد سرى في صدور الأمة الجزائرية ، وكان ذلك في الواقع تحقيقاً لرغبة الإمام الذي قال إنه لا يؤلف الكتب وإنما يريد صنع الرجال . وطبيعي أن بن باديس جند أعوانه للكتابة معه في جريدة الشهاب ، فاختص الأستاذ أحمد توفيق المدني بالكتابة عن المجتمع الجزائري والشهر السياسي ، كما عاون في الكتابة عدد كبير من أصدقاء الشيخ وتلاميذه .

وفيما بعد أصدر بن باديس صحفاً أخرى كالشريعة ، والسنة المحمدية ، والصراط . ولم تعمر طويلاً ؛ إذ حرصت الإدارة الفرنسية على إيقافها لشدة خطورتها وعظيم تأثيرها في النفوس . ولم تكن المصادرة لتكفي في القضاء على دعوة القومية الجزائرية ، أولت نقلاً فرنساً من حصار بن باديس الذي جمع معه الجزائر كلها ، إلا فئة من أعوان المستعمر ، أو المخدوعين فيه من رجال السياسة .

(١) ويرجع الفضل في جمعه وترتيبه والتعليق عليه إلى الأستاذين محمد الصالح رمضان مدير التعليم الديني بوزارة الأوقاف بالجزائر ، وتوفيق محمد شاهين بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر . انظر : تفسير بن باديس أو مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير - الناشر دار الكتاب الجزائري .



### هـ - تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين :

وما لبث بعض العلماء أن أسسوا نادى الترقى بالعاصمة ، فكان مكان لقاء للمثقفين الذين سرت إلى نفوسهم دعوة القومية العربية الإسلامية ، وكانت تلقى فيه المحاضرات وتقام الحفلات . وأخذ بن باديس يحاضر فيه كلما جاء إلى العاصمة ليلقى درسه فى التفسير . وفى جملة القول كان هذا النادى العمل الإيجابى الأول لتحقيق وحدة الفكر الجزائرى ، وفيه وضعت البذرة الصالحة للنهضة الجزائرية لكي تخرج إلى حيز التنفيذ ؛ إذ تكونت لجنة تحضيرية مهدت لنشأة جمعية العلماء . وجاء احتفال الفرنسيين بالعيد المئوى لاحتلال الجزائر فى سنة ١٩٣٠ ، مع ما صحبه من الرغبة فى إذلال العرب وإشعارهم أنهم لم يعد لهم أمر فى وطنهم الذى أصبح فى نظر المستعمر جزءاً من فرنسا - نقول جاء هذا الاحتفال ليدفع الوطنيين الجزائريين إلى العمل على مستوى الأمة كلها . فقد كان من الطبيعى أن يحدث رد فعل عنيف لمسلك الفرنسيين فى هذا الاحتفال ، إذ ظن هؤلاء أنهم استطاعوا محو الخصائص العربية الإسلامية فى الجزائر ، بعد أن قضوا على ثورة الأمير عبد الكريم ، وأصدروا الظهير البربرى لفصم وحدة الأمة فى الشمال الإفريقى ، وتمهيداً لتنصير البربرى . وقد ذهب الفرنسيون فى تحقير المسلمين إلى حد أن كتب أحد كتابهم : « لقد أذلنا الدين الإسلامى ، وبلغ الأمر ألا يعين فقيه أو إمام إلا إذا شارك فى أعمال الجاسوسية الفرنسية ، ثم عليه ، كى يرتقى فى الدرجة ، أن يثبت قدراً كبيراً من الحماسة والإخلاص للإدارة » ؛ وإلى حد أن قال الكاردينال « لا فيجى » فى احتفالات سنة ١٩٣٠ : « إن عهد الهلال فى الجزائر قد غبر ، وإن عهد الصليب قد بدأ ، وإنه سيستمر إلى الأبد » .

وقد فرغ المخلصون من المسلمين وعلى رأسهم علماء الجزائر عندما كشف الاستعمار صراحة النقاب عن إصراره على جعل هذه البقعة الإفريقية من الوطن العربى جزءاً لا يتجزأ من فرنسا ، البنت الكبرى للبابا فى روما ، فاتخذ هؤلاء المخلصون لأنفسهم ولمواطنيهم شعاراً مضاداً وهو « الإسلام ديننا ، والعربية لغتنا ، والجزائر وطننا » ، وكان أول من أخرج كتاباً صدره بهذا الشعار الأستاذ أحمد توفيق المدنى .

وقد ذكر الأستاذ الإبراهيمي في مقاله الذي ترجم فيه تاريخ كفاحه الوطني أن الإدارة الفرنسية كانت أعدت عدتها لكي يستغرق هذا الاحتفال ستة أشهر، ودعت الدنيا كلها، فاستطاعت جماعة بن باديس بدعايتها السرية أن تفسد عليها كثيراً من هبرامجها، فلم تدم الاحتفالات إلا شهرين؛ كما استطاعت بدعايتها العلمية أن تجمع الشعب الجزائري حولها.

ثم عقد العلماء اجتماعاً في الخامس من شهر ماي سنة ١٩٣١، وأسسوا جمعية العلماء المسلمين، وانتخبوا عبد الحميد بن باديس رئيساً لها، وذلك في غيبته. فلما حضر في جلستهم الثالثة قال في خطاب وجهه إليهم: إنه كان ملكاً للجزائر فزادوا في عنقه ملكية أخرى، وإنه لم ينتخب لشخصه بل لأنه يمثل فكرة عزيزة عليه وعلى أصحابه بل على الأمة بأسرها. ويقول الشيخ الإبراهيمي: إنه هو الذي وضع القانون الأساسي على قواعد من العلم والدين لا تثير شكاً ولا تخيف. وكانت الحكومة الفرنسية في ذلك الوقت تستهين بأعمال العالم المسلم، وتعتقد أننا لانضطلع بالأعمال العظيمة، فخيبتنا ظنها والحمد لله.

ويصف لنا الشيخ الإبراهيمي كيف نجح هو وبن باديس في اجتذاب العلماء والفقهاء إلى الجمعية فيقول: «دعونا فقهاء الوطن كلهم، وكانت الدعوة التي وجهناها إليهم صادرة باسم الأمة كلها ليس فيها اسم ولا اسم بن باديس؛ لأن أولئك الفقهاء كانوا يخافوننا لما سبق لنا من الحملات الصادقة على جمودهم، ووصفنا إياهم بأنهم بلاء على الأمة، وعلى الدين لسكونهم على المنكرات الدينية، وبأنهم مطايا الاستعمار، يذل الأمة ويستعبدها باسمهم. فاستجابوا جميعاً للدعوة واجتمعوا في يومها المقرر، ودام اجتماعنا في نادي الترقى بالجزائر أربعة أيام... ولما تراءت الوجوه، وتعالصت أصوات الحق أيقن أولئك الفقهاء أنهم مازالوا في دور التلمذة، وخضعوا خضوع المسلم للحق، فأسلموا القيادة لنا فانتخب المجلس الإداري من رجال أكفاء، جمعهم وحدة المشرب ووحدة الفكرة... ووحدة المناهضين للاستعمار. وقد وكل المجتمعون ترشيحهم إلينا فانتخبوهم بالإجماع وانتخبوا بن باديس رئيساً... وأصبحت الآن الجمعية حقيقة واقعة قانونية. وجاء دور العمل»<sup>(١)</sup>.

وقد جاء في قانون هذه الجمعية أنها إنما أسست تبعاً لنظام وقواعد الجمعيات المبينة بالقانون الفرنسي المؤرخ بغرة يوليو سنة ١٩٠١، وأنه لا يسوغ لهذه الجمعية بأى حال من الأحوال أن تخوض أو تتدخل في الأمور السياسية<sup>(١)</sup>. ولكن لم يكن ذلك التصريح في الحق إلا ستاراً رقيقاً؛ إذ خاضت الجمعية منذ نشأتها في خضم السياسة، عندما اعترمت تنظيم الحملة للقضاء الحاسم على الطرقية، ولإنشاء المدارس العربية في مدن الجزائر وقراها. وهذا شيء ما كان للإدارة الفرنسية أن تتقبله بالرضا. وتكشف أصول دعوة الجمعية العلماء عن الطريقة التي ارتضاها بن باديس في الإصلاح الديني، وهو المقدمة الضرورية لتحرير الجزائر. وكانت هذه الأصول من كتابة بن باديس نفسه. وتتضمن فقراته تمجيد الإسلام الذي أراد الفرنسيون إخلاله، والدعوة إلى الأخوة الإسلامية بين جميع المسلمين توحيداً لكلمتهم أمام الغاصب، والمناداة بالكرامة البشرية والحقوق الإنسانية بين جميع الأجناس والألوان، تلك الكرامة التي حرص المعمرون الفرنسيون في الجزائر على تجريدها من المواطنين العرب منها، بنسف جميع مقوماتهم الروحية والاقتصادية والتعليمية. كذلك حرص القاثمون بالدعوة على تمجيد العقل وفكه من إسهاره، أى من التقليد الذي كاد يقضى على الحضارة الإسلامية، كما حرصوا على طمأننة الآخرين على حريتهم الدينية، «فلأهل كل دين دينهم، يفهمونه ويطبقونه كما يشاءون». وينطوي الأصل العاشر من أصول هذه الدعوة على إدانة الاستعمار الفرنسي الذي يناقض مبدأ إسلامياً عظيماً «يدعو إلى رحمة الضعيف؛ فيكفّي العاجز، ويعلم الجاهل ويرشد الضال، ويعان المضطر، ويغاث الملهوف، وينصر المظلوم؛ ويؤخذ على يد الظالم».

فإذا لم تكن هذه هي السياسة التي يريد بها بن باديس فأى شيء تكون، بدليل أنه لا يلبث أن ينادى في المبدأ التالي مباشرة بتحريم الاستعباد والجبروت بجميع وجوهه؟ ثم يؤكد هذا المعنى برسم الطريق للخلاص من عسف المحتل عندما يطالب

(١) «الإسلام هو دين الله الذي وضعه لهداية عباده وأرسل به جميع رسله، وكله على يد نبيه محمد الذي لا نبي بعده. الإسلام هو دين البشرية الذي لا تسعد إلا به، وذلك لأنه أولاً: كما يدعو إلى الأخوة الإسلامية بين جميع المسلمين يذكر بالأخوة الإنسانية إلخ».



بأن يجعل الحكم شورى ليس فيه استعباد ولولا عدل الناس .  
 ثم ينتقل هذا الدستور إلى تحديد أصول الإصلاح الدينى ، فيبين أن « القرآن  
 هو كتاب الإسلام ، وأن السنة القولية والفعلية الصحيحة تفسير وبيان للقرآن » ، وأن  
 « سلوك السلف الصالح والصحابة والتابعين وأتباع التابعين تطبيق لهدى الإسلام » ،  
 وأن « فهم أئمة السلف الصالح أصدق الفهم لحقائق الإسلام ونصوص الكتاب  
 والسنة » ، وأن « البدعة كل ما أحدث على أنه عبادة وقربة ولم يثبت عن النبي  
 صلى الله عليه وسلم فعله ، وكل بدعة ضلالة » . . . . وأن « التوحيد أساس الدين  
 فكل شرك فى الاعتقاد أو فى القول أو فى الفعل فهو باطل مردود على  
 صاحبه » ، وأن « العمل الصالح المبني على التوحيد به وحده النجاة والسعادة  
 عند الله . . . » ، وأن « اعتقاد تصرف أحد من الخلق مع الله فى شيء ما شرك  
 وضلال . . . »

وربما كانت محاربة الطرق الصوفية هى المقدمة الضرورية لتحرير الأمة من  
 الاستعمار الأجنبى ، وهذا هو ما يشير إليه أيضاً الشيخ الإبراهيمى الذى يخبرنا  
 أنه اهتدى مع بن باديس فى أثناء دراساتها المتكررة للمجتمع الجزائرى ، منذ  
 اجتماعهما فى المدينة المنورة ، إلى أن « البلاء المنصب على هذا الشعب المسكين آت  
 من جهتين متعاونتين عليه ، أو بعبارة أوضح من استعمارين مشتركين يمتصان دمه .  
 ويفسدان عليه دينه ودنياه : استعمار مادى هو الاستعمار الفرنسى . . . واستعمار  
 روحانى يمثله مشايخ الطرق المؤثرون فى الشعب ، والمتغلغلون فى جميع أوساطه ،  
 والمتجرون باسم الدين ، والمتعاونون مع الاستعمار عن رضى وطوعية . وقد طال  
 أمد هذا الاستعمار الأخير وثقلت وطأته على الشعب ، حتى أصبح يتألم ولا يبوح  
 بالشكوى . . . خوفاً من الله بزعمه .

والاستعماران متعاضدان يؤيد أحدهما الآخر بكل قوته ، وغرضهما معاً تجهيل  
 الأمة لئلا تفيق بالعلم . . وتفقيرها لئلا تستعين بالمال على الثورة . . وإذن فلقد  
 كان من سداد رأى أن تبدأ الجمعية بمحاربة هذا الاستعمار الثانى لأنه أهون ،  
 وهكذا فعلت . فلا عجب أن نرى هذا الدستور ينتهى إلى محاربة الطريقة أكثر  
 الأعوان إخلاصاً للمستعمر . « ولا ريب فى أن هذه الأصول التى تتضمنها دعوة

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تنبئ بوضوح عن أن السلاح المرهف في القضاء على الاستعمار لن يكون إلا بيعت الروح الإسلامية العربية عند هؤلاء الذين أوهمهم المبتلون أنهم أصبحوا فرنسيين ، ومن الواضح أن الفقرة الأخيرة من هذا الدستور هي دعوة إلى توحيد الصفوف لمنازلة الغاصب إذ تقول : « عند المصلحة العامة من مصالح الأمة يجب تناسي كل خلاف يفرق الكلمة ويصدع الوحدة ويوجد للشر الثغرة ، ويتحتم التآزر والتكاتف ، حتى تنفرج الأزمة وتزول الشدة بإذن الله : ثم بقوة الحق وادراع الصبر وسلاح العلم والعمل والحكمة . ( قل هذه سبيلي : أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ) ١ .

ولن نستطرد هنا في بيان كيف سارت جمعية العلماء المسلمين على ضوء هذه المبادئ التي حددها رئيسهم في معترك الحياة السياسية ، فذلك أمر سنعرض له بالتفصيل في حينه ، ويكفي أن نشير هنا إلى أن هذه المبادئ دينية وأخلاقية واجتماعية في جوهرها . وقد اضطر عبد الحميد بن باديس ، شأن السياسي المحنك ، ألا يثير رغبة المستعمر ، فأقحم على هذه المبادئ بعض العبارات التي يمتدح فيها فرنسا ، حتى يسهل عليه حصارها وفضح أساليبها أمام الجزائريين والعالم كله . وأتاحت له هذه الحنكة أن يتجنب البطش المفاجئ والدعوة في بدء أمرها ، ثم ما لبث أن حشد الأمة الجزائرية كلها ضد فرنسا ، ونادى بالقومية العربية الإسلامية الجزائرية في وقت ما كان يجرؤ فيه أكثر المواطنين تهوراً أن يناصب هذه الدولة الاستعمارية العداء . وتعد السنوات ما بين ١٩٣١ و ١٩٣٩ الفترة الحاسمة في تاريخ الجزائر المعاصرة ، وهي الأساس الصلد الذي قامت عليه حركة تحرير هذا الوطن الذي ظل في الأسر دهرًا طويلاً .

ذلك أن الجمعية وضعت نصب عينها تنفيذ فكرة عبقرية حددها لها الشيخ بن باديس مع أعوانه ، وهي أن يكون تحرير الجزائر على أساس إنشاء جيش من الشبان يحمل فكرة الجمعية وعقيدة الإسلام ، وأن يكون تلاميذ الإمام بن باديس نقط جذب لمئات الآلاف من أنصار الفكرة ، وحملة العقيدة ، ممن يحميمهم إيمان واحد



وفكرة واحدة ، ويقول الشيخ الإبراهيمي في توضيح هذه الفكرة التي ارتضاها بن باديس : « وكانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وبن باديس في اجتماعنا بالمدينة في تربية النشء هي ألا نتوسع له في العلم ، وإنما نريه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل ، فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلامذتنا » (١) .

ومن توفيق الله لهذا المصلح الثائر المختص أن يسر له تحقيق الوحدة الفكرية بين الجزائريين على اختلاف نزعاتهم ومصالحهم وثقافتهم ، وذلك عندما اعتمد على مبدأ إسلامي جليل اتخذ دستوراً له وهو : « الكلمة الطيبة والدعوة بالموعظة الحسنة . من قبلها فهو أخ في الله ، ومن ردها فهو أخ في الله . فالأخوة في الله فوق ما يقبل وما يرد » . وقد اصطنع هذا السلوك النبيل مع تلاميذه ومريديه ومع خصومه على حد سواء .

#### و - مسلكه العملي في بناء الأمة :

وكان من أسباب نجاح بن باديس ، ومن تبعه من العلماء ، أنه سلك بهم مسلكاً عملياً بعيداً عن المهاترات الحزبية التي كانت تدور في فلك حدوده المستعمر سلفاً ، ونسج خيوطه كصمام أمن لحالة السخط التي عمت الجزائر بسبب الحرمان الاقتصادي والاجتماعي ، ذلك الحرمان الذي كان ينفذ وفقاً لخطة محددة مرسومة . فقد أثر منذ عهد مبكر ، كما رأينا ، أن يبدل من ذات نفسه ليعلم الجزائريين ، شباباً وشيوخاً ، دينهم وأخلاقهم الإسلامية ، ويظهر عقائدهم من رواسب الشرك الخفي أو الصريح ، حتى ينقذهم من استغلال الطريقين ، وهم الجنود الروحيون للمستعمر . ثم سارت جمعية العلماء معه ، ومن بعده ، على هذا النهج ، فأنشأت المدارس في كل بقعة من بقاع الجزائر . وأرسلت الوعاظ يجوبون المدن والقرى ، وكانوا يعرفون جيداً ماذا يصنعون ، إنهم كانوا بصدد القيام بالتعبئة الدينية والقومية الشاملة (٢) .

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ص ١٤٣ .

(٢) وقد صادفت هذه البعثات في طريقها عقبات ومشقات ، وتحملت عذاباً وإهانات صبها عليها البوليس الفرنسي وأتباع الرجعيين . إلا أنها خاضت جميع هذه المخاطر برباطة جأش وصبر عظيم وإيمان قوي - الثورة الجزائرية لأحمد الخطيب - دار العلم للملايين بيروت ص ١٢٥ .

وقد اعترف أحد الكتاب الفرنسيين فيما بعد بأن العلماء هم الذين وضعوا فكرة الوطن الجزائري . فقال (١) : إن مجددى فكرة الوطن الجزائري هم بالأحرى هؤلاء الذين أسسوا جمعية العلماء ، أى الشيخ عبد الحميد بن باديس وأشد أتباعه حماسة كالشيخ الإبراهيمى والعقبي . فنذ سنة ١٩٣٠ نرى فى الواقع أن هؤلاء الرجال ذوى الثقافة الرفيعة والعلم الواسع ، وهم من أقوى الشخصيات الإسلامية فى المغرب المعاصر ، قد ربطوا محاولتهم لتجديد الإسلام وللقضاء على الطرق الصوفية بمحاولة تجديد الوطن الجزائري . ومن الممكن أن نجد بيان هذا المذهب فى رد عبد الحميد بن باديس على المقال الشهير لفرحات عباس . . . بعنوان : « لو أننى عثرت على الوطن الجزائري ! » ، ومن قبل فطن أحد الكتاب الفرنسيين إلى خطر سياسة بن باديس وأصحابه ، فكتب فى جريدة الكونكورد : « هل يمكن لنا أن نقول إن جمعية العلماء ملية ؟ نعم ، وعجيب أن يشك أحد فى ذلك . ولكن هذه الملية لا تظهر مباشرة . فالعلماء يحملونها فى صدورهم ، ولا يتحدثون بها . على أن نشاطهم لا يبعدهم عنها أبداً . فكل من إصغائهم لدمشق والرياض والأزهر وجامع الزيتونة والقرويين ، وكل من دعوتهم ضد متأخري شيوخ الطرق — هوفائدة القومية الجزائرية التى يخدمونها .

وإن سياستهم الحاضرة تنحصر فى المراقبة بحصن الثقافة والدين . وهكذا يتدخلون فى كل شيء ، ينتظرون أن يتقدم رجال آخرون لاستعمال السلاح الذى يصقلونه الآن بأيديهم ويعيدونه (٢) .

ولم يكن بد من أن تستيقظ الإدارة الفرنسية ، بعد هذا التحذير الصريح ، لتشهد خطر هذه التعبئة . ولما كانت تخشى انتشار الوعي الدينى جعلت تعطل المدارس وترجع بالمدرسين فى السجون ، وأصدرت سكرتير الأمن العام فى الجزائر « ميشيل » فى سنة ١٩٣٣ تعليمات مشددة تقضى « بمراقبة العلماء مراقبة دقيقة » ، وحرّم فى هذه التعليمات على غير الإمام أو المفتى المعين من الإدارة الخطبة فى الجامع . ولكى يشرف على تنفيذ هذه الأوامر عين نفسه رئيساً للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وأدى

(١) خمسة رجال 5 Hommes مؤلفه Tean Lacouture ص ٢٧٥ .

(٢) الشهاب الجزء الثانى عشر من المجلد الثالث عشر ص ٥٤٠ .

ذلك إلى رد فعل عنيف؛ إذ استيقظ الجزائريون الغارقون في سباتهم ، وجعلوا ينضمون تحت لواء جمعية العلماء الآخذ في اكتساح البلاد<sup>(١)</sup> .

لكن شدة الاستعمار لم تغن عنه شيئاً ؛ إذ كان عبد الحميد بن باديس قد أصبح سيد الموقف دون منازع . وبدا للإدارة الفرنسية أن تسلك طريقاً أخرى لفصم الوحدة الجزائرية التي حققها هذا المصلح الثائر منذ بدأ متواضعاً يلتقى دروسه في مساجد قسنطينة ، حتى انتهى بأن أصبح الزعيم الروحي للأمة الجزائرية . واستطاعت فرنسا أن تقرر ببعض رجال السياسة من أصحاب الحلول المتوسطة فلوحت للجزائريين بمشروع ليون بلوم وفيوليت في سنة ١٩٣٦ . والحق أن هذا المشروع خلدع كثيراً من السياسيين الجزائريين ، فخیل إليهم أن سياسة المهادنة أو السياسة المرحلية هي أفضل الطرق لإنقاذ الكيان الجزائري واستخلاص الحقوق السياسية للمواطنين العرب عن طريق إدماجهم تدريجياً في فرنسا ، لتنتقل الجزائر من مرتبة المستعمرة إلى مرتبة المقاطعة . وكان من المخدوعين الدكتور بن جلول وأصحابه ، كذلك خلدع معهم فرحات عباس الذي يمكن أن تعد سياسته في تلك الفترة نموذجاً أصيلاً للسياسة المرحلية أو سياسة الحلول العرجاء كما نسميها أحياناً .

ولما رأى عبد الحميد بن باديس غلبة فكرة الإدماج على عقلية كثير من رجال السياسة ، وميل بعض النواب الموالين لفرنسا إلى اعتقاد أنهم أصحاب الحق في البت في مصير الجزائر ، ولما رأى أن سموم المؤامرة بدأت تسرى في نفوس المواطنين ، بعد أن طهرها من رجس المستعمر وأعوانه — لم يجد وسيلة لإحباط المؤامرة الفرنسية سوى أن دعا إلى عقد مؤتمر إسلامي .

وكانت دعوته إلى هذا المؤتمر في جريدة لا دفانس La Défense . وقد عاب بعضهم على جمعية العلماء أنها وقعت هي الأخرى في شرك السياسة ، وإن كنا نعتقد أنها دخلته منذ زمن غير قصير . وأياً ما كان الأمر فإن تدخلها في عام ١٩٣٦ كان ضرورياً ، فقد أصبحت دعوته مهددة بأكبر الأخطار . وعندما أسس المؤتمر الإسلامي الجزائري في ١٩٣٦/٦/٧ كانت غالبية من أنصار إدماج الجزائر ،

(١) الثورة الجزائرية لأحمد الخليب . ص ١٢٤ .



وهنا تجلت حكمة بن باديس ، إذ استطاع العلماء ، الذين حضروا هذا المؤتمر بصفته الشخصية ، أن يوجهوا قراراته . وكان من بينهم كل من الشيخ عبد الحميد بن باديس والطيب العقبي والبشير الإبراهيمي ومحمد خير الدين وآخرون غيرهم . وما يشهد بمهارة بن باديس أنه لم يشأ أن يقم جمعية العلماء رسمياً في هذا المؤتمر حتى يحتفظ لها بحرية الحركة ؛ وأنه على الرغم من نجاحه في توجيه قرارات المؤتمر إلى الاعتراف بالشخصية العربية الإسلامية للجزائر، فإنه لم يوافق على تلك القرارات ؛ بل تلد بها فيما بعد .

ويكشف السياق التاريخي عن نجاح خطة جمعية العلماء . فقد تدخل المعمرون الفرنسيون لإحباط مشروع ليون بلوم - فيوليت ، وأثبتوا للحكومة الفرنسية وللجزائريين المخلوعين أن الجزائر تساس من الجزائر لا من باريس . وساعد تدخل عبد الحميد بن باديس وأعدائه من جانب آخر على تعطيل الإدماج . وهذا معناه ، في التحليل الأخير ، تأكيد للشخصية الإسلامية العربية الجزائرية . ولذا فإننا نميل إلى أن نخالف صديقنا الكبير الأستاذ مالك بن نبي في رأيه بعض المخالفة ، عندما عاب على جمعية العلماء أنها انزلت إلى ميدان السياسة ، فأضاعت شيئاً كثيراً من مبادئها . على أننا نوافقه تماماً إذا كان الأمر يصدد انزلاقهم إلى الانتخابات المزيفة التي اتساق إليها الجميع ابتداء من سنة ١٩٤٧ أي بعد وفاة عبد الحميد بن باديس بسبع سنوات . أما في سنة ١٩٣٦ فمن المؤكد أن جمعية العلماء وقفت في وجه المؤامرة التي نسجت الإدارة الفرنسية في الجزائر وحدها ، أومع بعض أعوانها .

وإذا كان الشعب الجزائري قد رحب بقرارات المؤتمر فذلك لأن البشير الإبراهيمي هاجم دعاة الاندماج في فرنسا ، ووصفهم بأنهم ليسوا من الأمة ، وإن ادعوا لأنفسهم دهاء الساسة ؛ في حين أن العلماء هم من الأمة وأنهم يعبرون عن مطالبها في النواحي الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تؤلف كلا لا يتجزأ .

وظن قادة المؤتمر أنهم حققوا الوحدة الفكرية الضرورية لمطالبة فرنسا بحقوق الجزائر ، وسافر وفد منهم ، ومن بينهم بن باديس إلى باريس في الثامن عشر



من شهر يوليو ١٩٣٦ فلقبهم « دلاديه » : وقصة هذا اللقاء مشهورة ، فقد هدد الوزير الفرنسي الوفد الجزائري ، وذكرهم بقوة فرنسا وبعملاتها بعيدة المدى قائلاً : « إن لدى فرنسا مدافع طويلة » ، فرد عليه بن باديس « إن لدينا مدافع أطول » . وقد نقل إلينا ذلك فرحات عباس في كتابه « La Nuit Coloniale » الظلمة الاستعمارية ، إذ كان بجوار بن باديس . فتساعل « دلاديه » عن أمر هذه المدافع ، فأجابه بن باديس جاداً : « إنها مدافع الله » .

وأقل الوفد خائب الرجاء ، لكن بن باديس كان أكثر أملاً وتفاؤلاً ؛ فقد أدرك أنه نجح في كشف النقاب عن الاتفاق التام بين سياسة الحكومة الفرنسية في باريس وسياسة المعمرين في الجزائر ، وأنه برهن بما فيه الكفاية على عروبة الجزائر وإسلامها . ويقال إنه أنشد قصيدته المشهورة بعد عودته من باريس ، ومنها :

شعب الجزائر مسلم	وللى العروبة يتسب
من قال حاد عن أصله	أوقال مات فقد كذب
أو رام إدماجاً له	رام الخيال . من الطلب
يانشء أنت رجائونا	وبك الصباح قد اقرب
خذ للحياة سلاحها	ونض الخطوب ولا تهب
وارفع منار العدل والإ	حان واصلم من غصب
يا قوم هذا نشؤكم	وللى المعالي قد وثب
كونوا له يكن لكم	وللى الأمام ابناً وأب

وتكشف بقية القصيدة عن الأسس التي يجب أن تتخذ لتحرير الجزائر . وكأنه كان يقرأ الغيب عندما حدد مبادئ ثورة التحرير فقال :

وأذق نفوس الظالمين	السم يمزج بالرهب
واخلع جانور الخائنين	قنهم كل العطب
واهز ز نفوس الجامدين	فربما حي الخشب
نحن الألى عرف الزمان	قد بيننا الجسم الحسب
ومعين ذاك المجد	في نسل العروبة ما نصب

من كان يبغى ودنا فعلى الكرامة والرحب  
أو كان يبغى ذلنا فله المهانة والحرب  
هذا نظام حياتنا بالنور خط وباللهب  
حتى يعود لشعبنا من مجده ما قد ذهب  
هذا لكم عهدى به حتى أوسد فى التراب  
فإذا هلكت فصيحى تحيا الجزائر والعرب

وإذا كان موقف الحكومة الفرنسية، بتأثير تدخل كبار المعمرين فى الجزائر، قد أدى إلى إخفاق سياسة المؤتمر الإسلامى على الصعيد السياسى، فإن هذا الإخفاق لم يزد الجزائريين إلا إصراراً على طلب المساواة فى الحقوق السياسية مع المحافظة على القوانين الإسلامية. وقد تحطمت على صخرة هذا الإصرار جميع المحاولات التى لجأت إليها فرنسا وأعوانها المخلصون أو المخدوعون قبيل الحرب العالمية الثانية وبعدها، حتى قامت ثورة أول نوفمبر سنة ١٩٥٤، فكانت بدءاً لتطبيق فكرة القومية الجزائرية التى غرسها الإمام عبد الحميد بن باديس فى تربة صالحة وتعهدها طيلة حياته.

ولم ينقطع هذا المصلح النادر، رغم مشاركته فى هذه المحاولات السياسية، عن غايته الحقيقية، وهى تعليم الأمة، وإحياء الروح العربية الإسلامية كسلاح أكيد لتحرير الجزائر. فظل يفسر القرآن فى قسنطينة والجزائر ووهران وتلمسان، ويتعهد النشء، يغرس فى قلبه روح الإيمان والعمل، ويأخذه بأساليب المقاومة التى كانت تسمح بها ظروف العصر<sup>(١)</sup>، ويتوسع فى نشر التعليم العربى والدينى بإنشاء دار الحديث فى تلمسان، ويحارب فلول الطرق الصوفية التى كان المستعمر حريصاً

(١) فى ٢٨/٩/١٩٣٧ أمر أهل قسنطينة با متاع عن المشاركة فى الاحتفال المتوى لذكرى احتلال الفرنسيين لهذه المدينة. وقد أشار فى منشوره إليهم بأن الفرنسيين يأبون إلا أن يشعروا المسلمين بسلطة الغالبين، وأن يثيروا المواطنين ويمسوا كرامة الأحياء والأموات فى الوقت الذى يهدرون فيه حقوق الجزائريين ويتعقبونهم بالقوانين الاستثنائية. ثم يخبرهم أن الجمعيات الإسلامية استنكرت إقامة هذا الاحتفال؛ ويطلب إليهم أن يقاطعوا هذه الاحتفالات. وقد استجاب الجزائريون فى قسنطينة لنداء بن باديس وفشل الاحتفال، ولم يستطع الفرنسيون إلا أن يكظموا غيظهم وحنقهم. فقد احتفى بن باديس بالعاطفة الدينية التى خشيت فرنسا إثارتها، ولا سيما أن أهل قسنطينة التزموا بجانب الهدوء مع مقاطعة الاحتفالات.

على اتخاذها سنداً له في وأد حركة النهضة الجزائرية .

وسلكت الإدارة الفرنسية شتى السبل لتحطيم جمعية العلماء المسلمين عندما تبينت ، بعد فوات الوقت . أنها أشد خصومها خطراً وأكثرهم تأثيراً في نفوس الجماهير . وقد حاولت نسفها عندما دبّرت اغتيال الشيخ كحول مفتي الجزائر في أغسطس سنة ١٩٣٦ . وكان موالياً لها . ثم وجهت تهمة اغتياله إلى الشيخ الطيب العقبي . وهو من أكبر أعوان الشيخ بن باديس<sup>(١)</sup> .

ثم لاحت نذر الحرب العالمية الثانية في سنة ١٩٣٧ ، فسعت فرنسا إلى كسب تأييد مختلف الجماعات السياسية في الجزائر حماية لنفسها ، وضماناً لاستنزاف المقاتلين من الجزائريين في حربها المقبلة ، فأوعزت إلى أعوانها والخاضعين لسلطان الإدارة الفرنسية في الجزائر أن يرسلوا برقيات التأييد لها ، لكن جمعية العلماء أبت أن تخرج عن مبادئها . فرأت الإدارة الفرنسية أن تبعث بأحد رسلها إلى الشيخ الطيب العقبي ليعرض الأمر على بن باديس فجمع هيئة العلماء المسلمين ، ولم يشأ أن يعلن عن رأيه ، تاركاً رفاقه يدلون بوجهات نظرهم : وكان الشيخ الطيب العقبي ممن يجنحون إلى المهادنة ، بعد أن لقي من عنت الإدارة الفرنسية ما لقي في خلال محنته بسبب اتهامه بالتحريض على قتل المفتي . وكانت حجته تنحصر في أنه لا بأس من مسالة فرنسا في هذه الظروف حتى تبقى على مدارس الجمعية ونواديها . ولما أخذت الأصوات كانت الأغلبية وعددها أحد عشر عضواً ضد فكرة إرسال البرقية ؛ في حين أن عدد هؤلاء الذين أخذوا بوجهة نظر الشيخ العقبي كانوا أربعة . وعندئذ كشف بن باديس عن رأيه قائلاً : لو كانت الأغلبية في جانب موالة فرنسا لاستقال من رئاسة جمعية العلماء . وإنه لن يوقع على البرقية ولو قطعوا رأسه ، فلهم أن يقتلوه لو شاءوا ، لكنه لن ينضم إلى زمرة المؤيدين لفرنسا . وهذا شيء ينبغي ألا ندهش له . فإن سياق حياته بأسره كان يفرض عليه هذا المسلك ،

(١) عاش في المشرق وعاد إلى الجزائر في ١٩٢٠ . وكان من دعاة النهضة العربية في الحجاز . وكان يهدف بعد عودته إلى الجزائر إلى تجديد الإسلام على أساس العودة إلى مذهب السلف - انظر ترجمته في كتاب الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا للأستاذ أنور الجندى . الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٦٥ ص ٦٨ ، ٦٩ .



ولإلّا لنقض بيده ما سبق أن أمضى حياته في بنائه . واستعفى الشيخ العقبي من الجمعية ، ولم يكن في استعفائه ما يدعو إلى نقمة بن باديس الذي كان يطبق مبدأه دائماً تطبيقاً صارماً : « الأخوة في الله فوق ما يقبل وما يرد » .

وزاد تحرش الإدارة الفرنسية بالجمعية ، فحرضت بعض الأعوان على النيل منها . وحاولت حكومة الجزائر الاستيلاء على مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة ، وإحلال اللغة الفرنسية فيها محل اللغة العربية ، فقال بن باديس : لا أسمح بذلك حتى أموت .. كذلك بذلت الحكومة كل جهد حتى تنتزع منه كلمة واحدة تشتم منها رائحة تأييده لفرنسا فلم يفعل . وكيف يفعل وقد برهن للوالى الفرنسى منذ سنوات نخلت أنه يعجز عن أن يمد يده إليه <sup>(١)</sup> ؟

ثم تلاحقت الأحداث وقامت الحرب العالمية الثانية في سنة ١٩٣٩ ، وتوفي عبد الحميد بن باديس في ١٦ أبريل سنة ١٩٤٠ ، وقد قيل إنه مات مسموماً . تلك لمحة عابرة عن تاريخ حياة هذا الإمام الكبير ، وعن صلتها بالأحداث السياسية الكبرى التي شهدتها الجزائر فيما بين الحربين الأولى والثانية . وربما جازى أن أكمل هذه الصورة التاريخية لحياته بصورة أخرى انطبعت في ذهنى للسماة الواضحة في شخصية هذا الإمام العظيم حسبما أدانى إليه فهمى لما قرأت له ، وسمعت عنه ، من بعض تلاميذه في كل مكان زرت في الجزائر ، من العاصمة إلى قسنطينة إلى وهران وتلمسان في شتاء ١٩٦٦ .

( ١ ) انظر فيما بعد الفصل الثانى تحت عنوان « الشجاعة العقلية النادرة » ص ٤١ .

## الفصل الثاني

### الإمام عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الإصلاح

#### ١ - السمات الأساسية في شخصية الإمام بن باديس

إذا جاز لي أن أرسم للقارئ تلك الصورة التي انطبعت في ذهني للسمات الواضحة في شخصية هذا الإمام حسب أداني إليه فهمي لما قرأت له وسمعت عنه من بعض تلاميذه فقد أستطيع أن أوجز هذه الصفات النادرة في تعبير مركز . فأقول : إن الشيخ بن باديس هو السهل الممتنع . ذلك أن صفاته تتدرج من التواضع والرفق بالناس والتسامح معهم والتفاؤل لهم والاعتماد على الخالق ، إلى الصرامة في الحق والشجاعة التي لا تقف عند حد . هذا إلى ذكاء مفرط وتوفيق من الله جعله قادراً على توجيه الأمة الجزائرية إلى النصر في أناة وحزم .

#### ١ - تسامحه ورفقه بالخلق وتماؤله :

تتجلى هذه الصفات مجتمعة في مواطن عدة . فهو لا يسلك مسلك العلماء شديدي التزمّت ، الذين يغرسون اليأس في النفوس ، لأنهم يظنون أن إصلاح النفوس لا يكون إلا بالزجر واللوم والإغلاظ في القول ؛ بل نراه يأسر القلوب بتواضعه ومودته ، فقد قيل إنه كان يعامل تلاميذه كأبنائه ، وقد علمنا أنه كان يودعهم فرداً فرداً عند سفرهم إلى قراهم أو بلادهم . كما نجده يأخذ بيد المذنبين برفق يدعوهم إلى التوبة بإصلاح نفوسهم ، ويستحثهم على العودة إلى الله عندما يبين لهم أن جهاد النفس هو أعظم الجهاد ، وأن الله يقبل توبة العاصين لأنه كثير المغفرة . وقل أن نجد أحداً يشبهه في رفقه بإخوانه المسلمين ، فهو يقول لهم : « إن كثرة الرجوع إلى الله يقابلها كثرة المغفرة منه . فلا يفتأ العبد راجعاً راجياً المغفرة ولا تقعه كثرة ما يذنب عن تجديد الرجوع » ، وهو يفتح باب الأمل أمام المذنبين عندما يؤكد لهم وجوب التوبة مهما عظمت الذنوب : « فقد كان عباده يذنبون ويتوبون ويغفر لهم ولا يزالون

كذلك ولا يزال تبارك وتعالى لهم غفوراً»<sup>(١)</sup> ، إن التوبة هي طريق إصلاح النفوس لأنها تحول دون الاستمرار في المعصية بدافع القنوط من رحمة الله .

والإمام بن باديس لا يريد أن يقطع طريق العودة على أحد ؛ فإنه ينهى عن محاولة إذلال الخصم ووصفه بالكفر أو بأنه من أهل النار ؛ بل من الأفضل أن تعرض عليه البراهين على بطلان الكفر وسوء عاقبته . ومن حسن السياسة ألا يستخدم أسلوب التقرير الذي ينفر الناس من الوعظ . فليس ثمة نفع في أن يقال لمرتكب الكبيرة إنه فاسق ؛ بل الأولى أن يبين له قبح الكبيرة وضررها . ثم هو ييث التفاؤل في نفوس العاصين مع تحذير المؤمنين من العجب والغرور . « فلربما كانت عاقبة من هو من أهل الكفر إلى الخير والكمال ، وربما ينقلب شخص من أهل الإيمان على عقبه في هاوية الوبال »<sup>(٢)</sup> .

وليس التفاؤل وفقاً على الأفراد بل يعم الجماعات . فالشيخ بن باديس يقوى أمل مواطنيه الذين استجابوا لدعوته بالرجوع إلى الكتاب والسنة والتمسك بعقائدهم وأخلاقهم الإسلامية ، فيقول في تفسير قوله تعالى : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور » : « هذا من الله تعالى خير حق ووعد صادق للمؤمنين بأن يرد عنهم كيد أعدائهم ويبطل مكرهم ويكف شرهم وإن عظم منهم وكثر ، وإن هذا منه لهم متكرر متجدد . . »<sup>(٣)</sup> ثم هو يؤكد ذلك في موطن آخر عندما يصرح بأن الإيمان بالله والتمسك بدينه هو « السلاح الوحيد لحالة الجزائر ولا نهض بهذا العلاج العظيم إلا إذا قمنا متعاونين أفراداً وجماعات ، فجعل كل واحد ذلك نصب عينيه ، وبدأ به في نفسه ، ثم فيمن إليه ، ثم فيمن يليه من عشيرته وقومه ثم جميع ملته . فمن جعل هذا من همه ، وأعطاه ما قدر عليه من مسعيه كان خليقاً أن يصل إلى غايته أو يقرب منها »<sup>(٤)</sup> . وهو أكثر صراحة من ذلك عندما يخبرهم بأن الشعوب الإسلامية أخذت في علاج أدوائها ، « وإن ذلك وإن كان يبدو اليوم قليلاً ، لكنه بما يحوطه من عناية الله وما يبذل من جهود المصلحين سيكون بإذن الله كثيراً »<sup>(٥)</sup> .

(١) تفسير ابن باديس ص ١٠٠ . (٢) التفسير ص ١٥٠ - ١٥١ .

(٣) التفسير ص ٤٥٠ - ٤٥١ . (٤) التفسير ص ١٦٤ .

(٥) التفسير ص ١٦٥ .



## ب - رجاء في الله وفرار إليه :

وليس التفاؤل عنده نوعاً من الآمال الساذجة أو تخيل المحال ؛ بل أساسه عمل ، وقوامه رجاء في الله ؛ إذ ومن ذا الذي لم يجد نفحات الرحمة في أكثر الأوقات في أخرج الساعات . لكن الشيخ بن باديس لا يتعجل رحمة الله التي ستأتي ، وقد زاد إيمانه باقتراب ساعة الخلاص من المحنة ، فقال في اجتماع عام : « أما بعد فرحاً بأبناء الجزائر وأفلاذ أكبادها ، مرحباً بورثة مجدها الخالد وحماة مجدها الطارف وبناة مجدها الآتي الذي تتخبط به أحشاء الأيام <sup>(١)</sup> » ، ولم يكن بن باديس إلا صادق الحدس ، فإن هذا التفاؤل الذي بعثه في النفوس يستطيع أن يلمسه أي إنسان في هذه الطفرة العجيبة التي حدثت ما بين سنة ١٩٣٣ و ١٩٤٨ ، أي عندما ينتقل مثلاً من قراءة جريدة الصراط إلى جريدة البصائر ؛ إذ يجد أن التهاب الشعور وعظيم الثقة بالله وبالنفوس قد بلغت حدّاً يبشر بثورة عاجلة ، وقد تساءلت كيف خفي هذا التطور على الاستعمار مع كثرة عيونه ، فقبل لأنهم كانوا في غفلة عن أثر الروح الإسلامية في إحياء النفوس الهامدة . ومهما يكن من شيء فإننا نحمد الله أن خفي عليهم ذلك ؛ بل نستطيع القول بأن سريان الأمل في النفوس كان أسرع من معدل تطور عقلية المستعمر . وهكذا وجد الاستعمار أمامه موجة من الشعور لا قبل له بها .

وكان الشيخ بن باديس يعلم حق العلم أن التفاؤل لا يثمر إلا إذا كان يرتكز إلى دعامة دينية هي الاعتماد على الله لا على المخلوق . وقد أشار في أثناء مقاومة الرجعية الطرقية له إلى أن النجاح لن يكون إلا في جانب هؤلاء الذين اتجهوا إلى الله مخلصين له الدين ، لا إلى المستعمر . لأننا « إذا رأينا طائفتين من المؤمنين تنازعنا فالتجأت إحداهما إلى السلطان تستغيثه ، وتستعين به . . . فأغاثها وانتصر لها وأمدّها ، وقربها وأدناها ؛ وأما الأخرى فلم تستغث إلا بالله ولم تستنصر إلا به ، ولم تعتمد إلا عليه ، ولم تعمل إلا فيما يرضيه من نشر هداية الإسلام . . . وتحملت في سبيل ذلك كل ما تسببت لها فيه الفئة الأخرى . ومن تولته وهربت إليه — إذا رأينا

هاتين الطائفتين عرفنا منهما يقيناً الفارة من الله والفارة إليه ، فكنا ، إن كنا مؤمنين مع من فر إلى الله « (١) .

وقد طبق بن باديس هذا المبدأ على نفسه أول ما طبق ؛ لأنه فر إلى الله يستلهمه العون على إنقاذ الجزائر التي حطم الاستعمار شخصيتها ثم فتح أبوابها للمبشرين ، ولم يفر إلى غيره . فمضى ييث الروح الاسلامية في نفوس أبنائها لتحسينها أمام هذا الغزو الجديد . وقد كان الإمام مثالا أعلى للأستاذ الذي يريد تربية شعب بأسره (٢) . ثم هو إلى جانب ذلك يعلم أبناء الجزائر وشيوخها احتساباً لوجه الله ، فظن بعضهم أنه يتقاضى مرتباً كسائر الموظفين . وقد أشار إلى هذا الظن إشارة لطيفة جادة ومرحة فقال : « مضت عشرون سنة والناس يشكرون للحكومة توظيفها مدرساً يقضى سحابة نهاره وشطراً من ليله في خدمة العلم الديني واللساني ونشره ، ظناً منهم أنني أتقاضى مرتباً كسائر الموظفين ، وأنا لم أرأ الحكومة فلساً واحداً والفضل لله ، وما كنت إلا مدرساً متطوعاً مكتفياً بالإذن لي في التعليم ، ذاكراً ذلك للناس عن الحكومة في المناسبات بالجميل » (٣) . ويسخر الشيخ عبد الحميد بن باديس سخريه عذبة من الحكومة الفرنسية التي استغلت توضيحته بوقته من أجل التعليم لتتخذ ذلك دعاية لنفسها من أنها لا تحرم التعليم الديني : « فقد مضت عشرون سنة ، كما يقول بن باديس ، والسياح الأجانب يأتون للجامع الأخضر يشهدون حلقات العلم ووفرة الطلاب ، فيعدون ذلك من عناية الحكومة بالمساجد الإسلامية وتركها حرية التعليم للمسلمين » .

ح - خلق العفو :

وإلى جانب هذه التوضيحية عن طيب خاطر ، مع ضعف بنيته ، تلك التوضيحية التي ينوء بها أسلم الناس جسماً والتي عدها بن باديس فضلاً من الله ، فإننا نجد لديه خلقاً إسلامياً أصيلاً وهو العفو؛ فإن خصومه من الطرفين ، وربما كان

(١) التفسير ص ٤٦٧ - ٤٦٨ .

(٢) انظر ص ١٧ من تاريخ حياته .

(٣) جريدة الصراط العدد السابع ١١ رجب ١٣٥٢ الموافق ٣ أكتوبر سنة ١٩٣٣ .

من ورائهم محركو الطريقة ، دبروا له أمراً ، فأفسد الله تدبيرهم ، عندما فشلت محاولة اغتيال بن باديس . ولم ير الإمام أن ينتقم لنفسه ، بل عفا عن هذا الذي أرسل لاغتياله (١) .

وحتى الآن لم نر إلا الجانب السهل فى شخصية بن باديس ، وأظن أن لنا أن نعرض للجانب الصارم الممتنع ؛ بل لنا أن نقول إن طابع الصرامة والامتناع هو الغالب حتى فى جانبه السهل ، لأنه كان ، فى الحق ، صارماً وممتنعاً فى تسامحه وسهولته ، بمعنى أنه قل أن يدانيه أحد فى التسامح والرفق بالناس والتضحية من أجلهم . وأما الجانب الصارم الممتنع قلباً وقالباً فيتجلى فى شدته العنيفة فى الحق وشجاعته النادرة . وما كان لأحد من معاصريه أن يدانيه فى هذين الأمرين من قريب أو بعيد ؛ لأنه كان أكثرهم فراراً إلى الله وثقة بتأييده .

#### د - صرامته فى الحق :

ولا شك فى أن تلاميذه ورفاقه أعرف الناس بمثل هذا الخلق عند بن باديس ، لكننى رأيت خلال كتاباته فى مواقف عديدة ، أذكر منها مثالين أحدهما كان فى معرض الرد على أحد النواب الموالين للحكومة ، وكان قد زعم أن الحكومة الفرنسية هى صاحبة فضل على جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، لأنها تساعدها بالمال . فبدأ بن باديس يصف هذا الرجل بأنه رضى لنفسه أن يكون أداة هدم فى يد المستعمر، وبوق شر وفساد فى مجلس رسمى . ثم يعجب كيف زعم هذا الزائب أن جمعية العلماء مسئولة عن الفتن والقتل فى البلاد . ولذا يصفه الإمام بالكذب ، ويحتج لذلك بالهدوء وعدم وجود صدام بين الحكومة وبين قوة أخرى ، « بل الموجود فى هذا الوطن حركة هادئة عامة نحو ما وعدت به فرنسا الجزائريين من حقوق تعطى لهم » ، وهذا لون جديد من الجهاد السهل الممتنع الذى يباشرة بن باديس ، فى وقت ما كان يجرؤ أن يقول فيه أحد إن للمواطنين الجزائريين حقوقاً يطالب بها . لكن الإمام يقول ما لا يجرؤ أحد على قوله وبأسلوب رقيق يشبه تحرير الماء الهادئ المستمر الذى ينخر فى الصخر ، ويدفع بالجزائريين إلى التمسك بحقوقهم . ثم هو



يشكك في نوايا فرنسا فيتحدث عن سكوت الجزائريين وانتظارهم لوعود كاذبة فيقول : « اعتصموا بالانتظار الذي تعودوه من أمد طويل فهم ساكتون منتظرون والله أعلم بما سيكون ! »

ثم ينتقل من هذا السهل الصارم الممتنع في آن واحد إلى الصارم حقاً ليحطم أعوان المستعمر . فيصف النائب بأنه كاذب مرة أخرى عندما زعم أن الحكومة ساعدت الجمعية ورخصت لها ، ثم يكذبه هو ومن يدعوه إلى التحرش بالجمعية فيقول : « والحكومة ما عرفت لها الجمعية مساعدة خاصة لا أولاً ولا آخرأ ، وأي مساعدة شاهدناها من الحكومة وقد أقرت قرار " بريقى " الذى يمنع رجال الجمعية من وعظ العامة وإرشادهم في المساجد ؟ وأي مساعدة والحكومة قد أغلقت مكاتب وامتنعت عن الترخيص في مكاتب أخرى لمجرد انتماء المعلمين أو المطالبين للتعليم للجمعية ؟ » (١) . ثم بعد كل هذه اللطمات المتتالية لكل من النائب والحكومة يحتج عبد الحميد بن باديس بالقانون الفرنسى إيغالاً في تسفيه مسلك الحكومة الفرنسية بالجزائر .

وأما المثال الثانى فهو موقفه الصارم من دعوة الصلح بين جمعية العلماء وبين الطريقة ، عندما تقدم أحد الوسطاء بشروط الصلح فقال بن باديس : كيف يعقل أن يفيد صلح مع جماعة تطلب إليه أن يحلل حراماً ويحرم حلالاً ؟ ثم هو صلح مشروط بشروط تتلخص في أن الطرق الصوفية تطلب على لسان الوسيط إلى جمعية العلماء أن تقر البدع والمنكرات ، في سيدى عابد مثلاً ، وتسكت عنها وأن تثبت الضلال ، وأن تحرم استخدام النظر العقلى والاستدلال . إن هذه الشروط في ذاتها هدم للصلح لا مقدمة له ؛ لأن قبولها معناه أن تحل جمعية العلماء نفسها . ثم يحسم بن باديس الأمر مع دعاة الصلح بأن يطلب إليهم أن يعرضوا هذه الشروط على حكم لا يميل مع الهوى ، وهو الكتاب والسنة ؛ إذ أنهما المعيار الحق ، ثم يتساءل : وفيما هذه الشروط التى تتناقى مع الشرع ، وكان من الأولى أن يطلب أهل الوساطة إلى الطرق الصوفية أن يعودوا إلى الكتاب والسنة فيهجروا البدع ؟ غير أن الأمر أعمق من هذا . فإن الشرط الأخير الذى تقدم به الوسطاء هو بيت

القصيد، عندما يطلبون إلى بن باديس وأصحابه ألا يشتغلوا بالسياسة . فهذا دليل على أن الصلح خدعة بل مكيدة ، إذ ليس هذا الشرط إلا نوعاً من تحريض المستعمرين وإغرائهم بدعاة الإصلاح الديني<sup>(١)</sup>.

وفيما بعد ، جاءت دعوة إلى الصلح من أحد علماء الأزهر ومن بعض طلبته ، يرجون جمعية العلماء المسلمين بالجزائر أن تضع حداً لهذه الفرقة ، فبين لهم بن باديس أن الصلح - وإن كان خيراً - لا سبيل إليه مع أصحاب الطرق . وقد عبر عن ذلك بقوله : « إنا نعلن لإخواننا أننا على رجاء اليأس من خصوم تضع معهم حكمة لقمان ، ولا يجدي معهم حلم معاوية ، ولا يرضيهم عدل ابن الخطاب ولا تسامح صلاح الدين . وليس لتزاعهم معنا غاية غير كم أفواهنا ، وكسر أعلامنا ثم إقلال راحتنا إن أعجزتهم المقادير عن إزهاق أرواحنا . وليس لهم إلى هذه الغاية غير وسيلتين إحداهما الوشاية بنا إلى الحكومة بأنا وطنيون ضد الاستعمار ، وأنا نعمل للجامعة الإسلامية ، وأنا . . . وأنا ، وثانيهما الاختلاق علينا مع الأمة ، بأنا ندعى الاجتهاد ، وأنا نستخف بأمنا في الدين ، وأنا ننكر الولاية والكرامة وأنا . . . وأنا . وقد فطنت الأمة إلى مكرهم وكيدهم . ولعل الحكومة لا تستمر على مجاراتهم » . فأى صرامة في الحق مثل هذه الصرامة التي تهيج لعبد الحميد بن باديس في الوقت نفسه أن يتهم الحكومة الفرنسية بالجزائر بأنها تحرض الصوفية لوأد الحركة الإصلاحية الدينية ، وذلك كله في أسلوب رقيق يضع كل إنسان في موضعه بصرامة ودقة ، ولكن دون عنف في التعبير يؤاخذ عليه صاحبه .

#### هـ - الشجاعة العقلية النادرة :

ولم تكن تلك الصرامة التي رأيناها منذ قليل إلا مقدمة لموقف يعجب المرء اليوم كيف لزم منه الوالي العام للجزائر مسلك الصمت في أواخر سنة ١٩٣٣ ، رغم الجرأة البالغة في النقد الذي وجهه إليه بن باديس . وتعريضه الواضح بأنه ليس من شأن الوالي أن يتخذ نفسه حكماً على إيمان المسلمين أو عدم إيمانهم . وبيان الأمر في هذا الموقف أن الوالي العام للجزائر كان قد صرح لمراسل جريدة البتي

باريزيان (Le Petit Parisien) بحديث عن الحوادث الدينية في الجزائر ، فقال : إنها ترجع إلى أسباب سياسية وليس لأصحابها عقيدة راسخة ، بل إن فريقاً منهم لا ديني ، وأكثرهم لا يؤدون شعائر دينهم ، وإن هؤلاء النواب استطاعوا أن يصدوا العلماء عن أعمالهم ، وأغلب هؤلاء العلماء من خريجي الأزهر حيث لا تدرس مبادئ الإسلام وتعاليمه قط<sup>(١)</sup> . ثم أعقب ذلك أن عطلت بعض الصحف كالشريعة والسنة .

فقامت جمعية العلماء بإصدار بيان وتذكير إلى الأمة الإسلامية الجزائرية تؤكد فيه أنها قامت لأغراض دينية . وكأن عبد الحميد بن باديس أشار عليها أن تكتفي بهذا البيان حتى لا تتعرض لعسف الوالي . أما هو فقد التزم أن يتكفل بالوالي وحده ؛ فإنه يؤثر عن الشيخ بن باديس أنه قال لزملائه في أحاديثه الخاصة بشأن التدريس بالمعهد الديني : « إني أستكفيكم في كل أمر يتعلق بالكلية إلا الاستعمار فأنا أكفيكموه فخلوا بيني وبينه » . وهكذا فعل ، بعد أن صدرت عدة أعداد أخرى من جريدة الصراط . فقد جاء رد الإمام بن باديس مثالا أعلى في الثقة بالله وبالنفس ؛ إذ أخذ يفند أقوال الوالي العام بجرأة صارمة في العدد الخامس عشر من جريدة الصراط وذلك بتاريخ ٨ رمضان ١٣٥٢ الموافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٣٣ . فبدأ يرد على الوالي الذي نسب الحوادث الدينية إلى أسباب سياسية . ولم يكن رد بن باديس في حقيقة أمره إلا وصفاً للوالي بالكذب ؛ أي أنه يقول له : إن سبب الحوادث هو تدخل الإدارة الفرنسية في الشؤون الدينية تدخلًا مخالفًا للدين نفسه ولللقانون الفرنسي أيضاً ؛ لأن الجمهورية الفرنسية علمانية . ثم أخذ يدافع عن نواب الجزائر الذين أراد الوالي أن يغمزهم في دينهم ، فوصفهم الإمام بأنهم أدوا واجبهم ، وليس عملهم هذا استغلالاً سياسياً لموقف من المواقف . وكيف للوالي العام أن يرميهم بعدم الإيمان . وما شأن ألوف الجزائريين المسلمين ممن لم يرمهم الوالي بعدم الإيمان ؟

ثم يترفع بن باديس عن أن يناقش الوالي العام في عقيدة هؤلاء النواب ؛ لأنهم قبل كل شيء « مسلمون يعيشون عيشة المسلمين ، ويحملون شعارهم ، ويألمون لآلامهم ،

(١) انظر صحيفة الصراط ، العدد الحادي عشر بتاريخ ٩ شعبان سنة ١٩٥٢ ، ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٣٣



ويحملون عبء القوانين الاستثنائية مثلهم . ثم نراه يعجب للوالى كيف لم يدرك أن العقيدة الدينية تدفع صاحبها إلى الثورة للدفاع عنها . « فأولئك النواب وإن لم يقوموا بجميع ماتقتضيه العقيدة ، نزولا على قول جنابه ، فإنهم ما اندفعوا ، زيادة على القيام بالواجب ، للعمل إلا بها . »

ثم يناقش الوالى العام فيما ادعاه من صد النواب للعلماء عن عملهم الطبيعى ، فيبين له أنه هو الذى يصد ؛ لأن الإدارة الفرنسية أوصدت المساجد فى وجه وعظ العلماء وإرشادهم ، وأغلقت كثيراً من المكاتب الابتدائية ، وأمسكت عن إعطاء الرخص لفتح المكاتب . أما السياسيون الذين اتهمهم الوالى ، فما حاولوا الزج بالعلماء فى مجال السياسة ، وما كان للعلماء أن يزجوا بأنفسهم فى هذا المجال ، وهنا يكاد يكشف بن باديس عن خطته لتحرير الجزائر ، وذلك لشدة ثقته بأنها ستفقد لا محالة فى المستقبل فيقول : « إن العلماء وضعوا خطة التعليم الدينى عن علم وعقيدة ، وتمسكاً بما هو مناسب لفطرتهم . فهم يريدون خدمة العلم والدين . ولو أردنا أن ندخل الميدان السياسى لدخلناه جهراً ، ولضربنا فيه المثل بما عرف عنا من ثباتنا وتضحياتنا . ولقدنا الأمة كلها للمطالبة بحقوقها ، وكان أسهل شئء علينا أن تسير على ما نرسمه لها . فإن ما نعلمه ولا يخفى على غيرنا ، أن القائد الذى يقول للأمة إنك مظلومة فى حقوقك ، وأنا أريد إيصالها إليك ، يجد منها ما لا يجده من يقول لها إنك ضالة عن أصول دينك ، وإننى أريد هدايتك . فذلك يتبعه كلها ، ومنها يقاومه معظمها أو شطرها ، وهذا كله نعلمه لكنتا اخترنا ما اخترنا لما ذكرنا وبيننا . »

وبعد ذلك ينتقل بن باديس إلى تكذيب الوالى الذى نغمز العلماء بأنهم تعلموا بالأزهر ، فيقول له : إنه ليس بصحيح أولاً أنهم تعلموا فى مساجد الأزهر ، ثم يعرض برجل درس فى الأزهر وانقلب يحظى بكل الرضا لدى المستعمر . فالمسألة مختلفة جداً . إنها مسألة تفكير وجمود ، ونهضة أو موت ، وليست مسألة القاهرة ولا غيرها . وهنا ينتقل بن باديس إلى الدفاع عن التعليم فى مساجد القاهرة ، ويكذب ما ذهب إليه الوالى مرة ثالثة .

وأخيراً نجده ، يكشف عن تحامل الوالى العام عندما أراد التخفيف من شدة هجومه على النواب المسلمين وعلماهم ، فقال : إنه لا يحرم العلماء إلا من دخول



المساجد التي تخضع في ميزانيتها للدولة ، وإنه لم يمنعهم من المساجد الخاصة ، فيقول له الإمام بن باديس : إن المساجد الخاصة هذه لا تكفي عموم الناس . وإذن فالنتيجة الواضحة هي أن منع العلماء من المساجد العامة هو في التحليل الأخير بمثابة منعهم من القيام بمهمتهم الدينية « على أتم وجوه المنع الذي لا يتخففه وجه من وجوه الاعتذار » ، فالوإلى هو إذن الذي يصد العلماء المسلمين عن القيام بعملهم وواجبهم . ثم يحتم بن باديس رده الجريء بهذه العبارة الصارمة الساخرة التي يتردد في أسلوبها السهل الممتنع الوعد بتحقيق العدالة والخير للجميع . . أي للجزائريين فيقول :

« هذا وإننا ، مع كل احترامنا لحنابه ، ما نزال نكرر احتجاجنا على منعنا من المساجد ، وكل ما نرى به من غير تبصر ، غير يائسين من إتيان يوم تتجلى فيه العدالة لجمعية دينية علمية تهذيبية تعمل لخير الجميع » .

\* \* \*

وقد أراد الإمام أن يبين لنا مظاهر التدهور في المجتمع وأسبابه في الوقت الذي كان يعالج فيه هذا التدهور بالفعل .

## ٢ - مظاهر التدهور في المجتمع الإسلامي الجزائري

يصف لنا الشيخ عبد الحميد بن باديس ما رآه من حالة مسلمي الجزائر وما وصلوا إليه من التدهور في الثلث الأول من القرن الحالى . وقد تجلّى هذا التدهور ، حسبما رأى ، في مظاهر التدين في الناحية الاجتماعية التي تتصل بحياة الناس من حيث العمل والكسب والثقافة والمستوى الاقتصادي . فالغنى كل الغنى للمستعمرين ، والفقر والبؤس للجزائريين أصحاب البلاد الحقيقيين . لذا نجده يؤكد بصراحة : « إننا نأتى بما يبرأ منه الإسلام ونصرّح بأنه صميمه » ، هذا في الناحية الدينية . أما في الناحية الاجتماعية « فإننا نرانا في حالة من الجهل والفقر والتفرق والذل والاستعباد يرثى لها الجماد »<sup>(١)</sup> . ومن ثم فليس ثمة ما يدعو إلى العجب

(١) التفسير ص ٢٢٠ عند تفسيره لقوله تعالى : « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة وكان ربك بصيراً » .

حقيقة من أن ينفر الغربيون من الإسلام » ويسخروا منه - على حد قوله - إلا من نظر منهم بعين العلم والإنصاف . فإنه يعرف أن ما نحن عليه هو ضد الإسلام . فكنا فتنة عظيمة عليهم ، وحجاباً كثيفاً لهم عن الإسلام . فكنا وبالأسف فتنة للقوم الظالمين » . وشبهه بهذا القول ما ذكر من أن حكومة اليابان بعثت إلى خليفة المسلمين في تركيا في أواخر القرن الماضي تطلب إليه أن يرسل إلى اليابان من يطلع أهلها على الدين الإسلامي تمهيداً لاعتناقه ، فأشار عليه جمال الدين الأفغانى أن يرسل إلى الإمبراطور بهدية ثمينة وأن يستمهله بعض الوقت . ثم نصبح الأفغانى الخليفة بأن يعد لهذه المهمة الكبرى شباباً يعرفون الإسلام معرفة صحيحة حتى يستطيعوا إقناع اليابانيين بالدخول في الإسلام ، بدلاً من أن يرسل إليهم نفرأ من هؤلاء الذين غلب عليهم التصوف الخادع من العلماء ، إذ يوشك هذا الصنف من العلماء أن ينفر اليابانيين من هذا الدين دون رجعة . ويقال إن دخول الإسلام إلى اليابان قد تأخر ثمانين سنة عندما لم يستمع السلطان لنصح جمال الدين الأفغانى .

أما الإمام بن باديس فإنه لا يكتم حزنه عندما يرى كيف تدهور المسلمون في وطنه بسبب الجهل وسوء فهمهم لدينهم ، فعلى حين يرون أهل الباطل يعيشون إلى جانبهم ، وفي بلاد الغرب ، حياة عزة وسيادة وتقدم علمي وعمراني ، يقتنع المسلمون بالاندفاع في تقليدهم في كل شيء حتى في معابثهم ومفاسدهم ، أو في قشور الحضارة مع ازدراء كل عزيز لديهم » إلا من نظر بعين العلم فعرف أن كل ما عندهم من خير هو عندنا في ديننا وتاريخنا ، وأن ذلك هو الذي تقدّموا وسادوا به ، وأن ما عندهم من شر هو شر على حقيقته ، وأن ضرره فيهم هو ضرره ( فينا ) ، وأنه لا يجوز أن يتابعوا عليه ، فكانوا فتنة لنا ، كما كنا فتنة لهم » .

### ٣ - أسباب التدهور

وقد فطن بن باديس إلى السبب الجوهري في تدهور المسلمين بصفة عامة ، والجزائريين المعاصرين له والذين يهمهم أمرهم بصفة خاصة . ويتلخص هذا السبب في النظام الاستبدادي إسلامياً كان أم غير إسلامي ، فتدهور أحوال المسلمين في جميع مظاهر الحياة والعمران أساسه الاستبداد . والحق أنه لا يحتمل الشعب المستبد

به هذه المسئولية كلها . فإنها ترجع في المقام الأول إلى استبداد الملوك والقادة ، ثم ترجع تبعاً لذلك إلى ضعف الروح الدينية لدى الجميع ملوكاً ورعايا ، وهنا يبرز الشيخ عبد الحميد بن باديس مسئولية رجال الدين ممن آثروا السكوت لسبب أولآخر ، وقصروا في القيام بواجبهم الذي كان يقضى عليهم أن يقاوموا المستبدين ويعلموا الجاهلين بيبث روح الإسلام السامي في نفوسهم . .

وهو يؤاخذهم على تقصيرهم ، عن تجربة وعلم ، لأن مقاومة عالم واحد تأتي بكل عجب في تطهير النفوس كمقدمة ضرورية لكل إصلاح جدى . وهذا هو ما نعتقد أن بن باديس برهن عليه برهنة كافية ولموسة بأسلوبه السهل الممتنع ، دون أن يأخذه غرور بما عقد العزم عليه ، وعندما وثق بتحقيقه بفضل من الله . فرأيناه يدعو المسلمين إلى مقاومة الاستبداد ويحثهم على أن ينفخوا مثله في قلوب المسلمين « روح الاجتماع الثورى في كل ما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم حتى لا يستبد بهم مستبد »<sup>(١)</sup> .

وهذه المقاومة التي يدعو إليها هي تلك التي نهض بها هو وجماعة من أصحابه ومن رأى أن ينتمى إليه ، ومن أراد استغلال حركته كالحزب الشيوعى . فقاموا إلى جانبه ، بعضهم عن إخلاص ، وبعضهم للإفادة من المعركة الإصلاحية بطريقة أو بأخرى . وهذا أمر مشاهد في كل حركة إصلاحية ، وتلك هي طبيعة البشر في كل عصر ، كما يكشف لنا تاريخ المجتمعات أياً كانت اتجاهاتها وبواعثها وأهدافها . ومهما يكن من أمر ، وعلى الرغم من هؤلاء المعوقين والخاذلين له ولفكرته ، فإنه قاد جمعية العلماء المسلمين بمهارة بالغة ، في أشد الأوقات حرجاً ، إلى تحقيق الهدف الذى حدده بينه وبين نفسه ، وهو الهدف الذى عاونه على تحقيقه المخلصون من أصحابه عن علم أو عن إخلاص فقط . وكأنه كان يحس بالغيب أو يصور الواقع عندما يتكلم عن تلك التجربة التى ستكشف أو كشفت بالفعل « عن الخاذل لهم ممن ينتسب إليهم فينبذ وي طرح ويستغنى عنه بالله وبالمؤمنين »<sup>(٢)</sup> .

ثم يعلو الشيخ بن باديس على الواقع الجزائرى الذى رسمه لنا بوضوح يعرفه

(١) التفسير صفحة ٢٢٣ .

(٢) التفسير ص ٤٢٩ .

حق المعرفة من عاصره وأسهم معه عن إخلاص ، وهم الكثرة ، أو عن غير إخلاص وهم القلة من الأمة — تقول إنه يعلو على هذا الواقع الجزائري ليبين لنا : « أن أعظم الفتنة فيما يرى هو ما قاله الإمام جعفر الصادق : أن يسلط عليهم سلطان جائر<sup>(١)</sup> ، فإنه إذا جار السلطان — وهو من له السلطان في تدبير الأمة والتصرف في شئونها — فسد كل شيء وفسدت القلوب والعقول والأخلاق والأعمال والأحوال ، وانحطت الأمة في دينها ودنياها إلى أحط الدرجات ، ولحقها من جرائه كل شر وبلاء وهلاك . ثم يتفاوت ذلك الفساد بحسب ذلك الجور في قدره وسعته ومدة بقائه » .

ومع ذلك فإن تسامى الإمام عن الواقع الجزائري لا يبتعد به عنه كثيراً ، فلما نراه سرعان ما يهبط من التعميم في حديثه عن المستبد الظالم الذي يفسد كل شيء حتى العلماء ، والذي يتدرج بسببه الفساد في درجات الوظائف العامة حتى أدناها ، إذ أن دولة الاستبداد هي دولة الأوغاد ، على حد تعبير عبد الرحمن الكواكبي — نقول إنه سرعان ما يعود ليلمس الواقع الجزائري عندما يقرر لنا أن هذا الفساد العظيم الذي عم بلاد المسلمين بسبب استبداد ملوكهم ليس شيئاً يقارن بالفساد الذي ينخر في كيان الأمة المسلمة إذا ولي أمرها من لم يكن من جنسها ولا دينها في شيء.. أليس بن باديس صريحاً هنا الصراحة كلها، لكنها الصراحة التي تناسب في رفق وصدق لا سبيل إلى إنكاره ؟ ومع ذلك فإنه يبعث الأمل ، والحجل في النفوس الراكدة .

أما الحجل فما وصلت إليه من الاستخذاء للباطل وأعوانه . وهو يضع هذا التوبيخ بين فقرتين من كلامه عن أعظم الفتنة ؛ إذ نجده يعود مرة أخرى إلى قول الإمام جعفر الصادق ، فيقول : « إن أعظم ما لحق الأمم الإسلامية من الشر والهلاك كله جاءها على يد السلاطين الجائرين منها ومن غيرها . وهذا ما يشهد به ماضيها وحاضرها . فما أصدق كلمة جعفر الصادق وما أعمق نظره فيها » ، ونقول نحن ما أعظم مهارة الشيخ بن باديس في التعريض بدولة الباطل .

أما الأمل الذي يبعثه في تلك النفوس الخائرة فهو أنه يؤكد لمواطنيه أن العودة إلى الإيمان والصدق والشكر هي السلاح الناجع . وقد شهد التاريخ بذلك من الله لهم .

(١) هو يشير هنا إلى المستمر .



فلما خانوا وكفروا تركهم ويمكن منهم . ولكنه برحمته وعدله لم ينس لهم أصل إسلامهم فأبقى لهم أصل وجودهم الذاقى . . . وأبقى لهم أصل وجودهم الروحى بكتابه المتلوة بين ظهرانيهم ، رغم إعراضهم عن تدبير ما فيه . عساهم يرجعون « (١) .

#### ٤ - معوقات الإصلاح

ولا يشك الإمام بن باديس فى رجوع المسلمين إلى الكتاب والسنة ، وإن كانت هناك معوقات تحاول صدهم عن العودة إليهما ، وأهم هذه المعوقات التصوف الخادع الذى حاول الإمام أن يجمع أصحابه معه على الهدف الحق ، لأنه كان يسلك دائماً مسلك الدعوة بالحسنى قبل أن يلجأ إلى الصراع مع فريق من قومه تربطهم به الأخوة فى الله ، رغم سوء فهمهم لدينه . لقد قيل إنه اتجه إلى الطرق الصوفية لأنه لم يكن قد استكمل تكوينه ، لكننا نميل إلى أنه كان متصوفاً سنياً بمعنى الكلمة ، ولم تكن شخصيته فى حاجة إلى أن تستكمل عن طريق هؤلاء . وبالفعل خدع المستعمرون فى حقيقته عندما رأوه يتقرب أولاً إلى الطرق الصوفية ، وظنوا أنه لا خطر من أمره مادام قد اتجه إلى هؤلاء . ونخيل إلى خبراتهم فى هذه الناحية أنه مجرد رجل عادى استهوت الطرق كما تستهوى غيره عادة ، ولم يفتن هؤلاء وهؤلاء إلى حقيقة الأمر عندما اتصل بالإمام بالطرق الصوفية .

ونعتقد نحن ، كما أكد لنا أحد تلاميذه فى قسنطينة (٢) ، أنه سلك مسلك الرجل العربى المسلم الذى يبدأ الناس بالتحية حتى يحسم الرأى فى أمرهم . فلقد كان من الممكن أن تكون الطرق الصوفية الجزائرية مصدر انبعاث : لأنه ما زالت فيها بقايا من الأصول الإسلامية ، وبخاصة فى زاوية الهامل ، وكان الإمام يأمل عن طريق الاتصال بها ، أن يستنقذ منها تلك العناصر الصالحة التى تسانده فى حركته الإصلاحية الدينية والاجتماعية والسياسية . غير أنه تبين له أنه على الرغم من وجود

(١) التفسير صفحة ٤٥٢ .

(٢) ونعنى به الأستاذ الصادق حمانى مدير اليسيه « حوحو » الذى أعجبنا بنظرته الصادقة الثاقبة .

بعض العناصر التي حافظت على العقائد القرآنية واللغة العربية ، إلا أن كثيراً من الطرق وقعت تحت تأثير الاستعمار، الذي درس ظروفها عن طريق جواسيسه وعلمائه المشتغلين بدراسة التصوف ، واستطاع أن يدخلها في فلكه . .

وكان هؤلاء العلماء المستشرقون ينظرون، في بادئ الأمر، إلى بن باديس نظرة الاستهانة والازدراء فيما يبدو ، وكان الشيخ عبد الحميد يحتقرهم احتقاراً ديمقراطياً علمياً<sup>(١)</sup> ، لأنه كان يدرك أن مادة بحثهم هي التراث الإسلامي ، ثم إنهم يأخذون هذا التراث ويدعون له لأنفسهم . .

لكن تحية الإسلام لهذه الفرق لم تجذبهم إلى حركة الإصلاح . وهكذا أبرأ بن باديس ذمته من إخوانه في الله الذين أشفق عليهم أن يلتزموا جانب المستعمر ، ولو كان في ذلك خسران الأمة الجزائرية . وليس من الغلو في شيء أن يحاربهم الإمام بكل هذا العنف الذي أتاح له أن يستخلص العامة من سلطانهم ، وأن يقضي على شيوخهم ، قبل أن يمهد الطريق أمام الجيل الذي أعده للقضاء على المستعمر . .

## ٥ - أسس الإصلاح وأسلوب تنفيذه

لقد قلنا إن الصيغة الموجزة التي تعبر عن شخصية الإمام عبد الحميد بن باديس هي أنه السهل الممتنع . وفي اعتقادنا أن صيغته نفسها هي التي تكشف لنا عن السر في نجاح خطته ، لأنه بدأ الإصلاح سهلاً هيناً ، وانتهى به صارماً ممتنعاً . على نحو لم يفتن له المستعمر أول الأمر ولم يستطع القضاء عليه بعد أن تم بالفعل . لقد أراد أن يحاصر الجزائر بمحو شخصيتها العربية الإسلامية فحاصره بن باديس بالجزائر العربية المسلمة التي يمكن القول بأنها نجت بمعجزة ، ونعني بها معجزة الإخلاص العميق . ومن توفيق الله أن وهب لها زعيماً هو نسيج وحده ، ظل يعمل في هدوء حتى أصبح الهدوء لا يكفي ، فثنى بالصرامة والعزم القوى فحقق الله آماله وآمال أمته . وإذا أردنا الوقوف على سر النجاح في هذا العمل الضخم فينبغي لنا أن نعلم أن

(١) هذا هو تعبير الأستاذ الصادق حاني .

بن باديس لم يفصل قط النظرية عن التطبيق ، أو بعبارة أدق لم يفرق بين العقيدة والعمل . .

وقد بدأ الإصلاح سهلاً هيناً في مجال ظن المستعمر أن لا خطر فيه . ذلك أنه بدأ يتكلم عن الدين والخلق والعقيدة ، وضرورة الإصلاح الديني والتضحية من أجل الآخرين والشورى عند الملهمات إعداداً لمرحلة الجهاد والكفاح ، أى أنه وضع البذرة وتعهّد النبت ، حتى أخذ الآخرون بأن روح الشعب الجزائري بدأت تنحرق ، فحاولوا المقاومة بأساليب لم تكن لتجدى ، لأنها جاءت بعد أوانها .

#### ١ - دين وخلق (١) :

ألح عبد الحميد بن باديس في تلقين شباب عصره وكهوله فكرة السببية التي لا تتعارض مع عقيدة القضاء والقدر على نحو ما ظن علماء عصور التدهور ، فبين لهم أن التدهور الذي تعانيه الأمم له أسبابه ، ومتى ارتفعت هذه الأسباب ارتفع العذاب الذي تعانيه الأمة الجزائرية من الباطل وأعوانه . إنهم يقاسون كل صنوف الحيف ، وكانوا يظنون أنها نزلت بهم عفواً ، أو أن الله أراد لهم العذاب ، دون أن يكونوا أهلاً له ، مع أن هذا الظن أقرب إلى سوء الاعتقاد في الله . إن التدهور يرجع إلى فصل العقيدة عن العمل ، أو إلى تدهور العقيدة وتطرق الشرك الخفي .

فالعلاج الناجع إذن هو الإيمان الصحيح ، فقد قال تعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » ، ومن ثم يقول عبد الحميد بن باديس « فالإيمان والتقوى هما العلاج الوحيد من حالتنا . فنقطة البدء في أى إصلاح هي تطهير العقائد من الشرك ، والأخلاق من الفساد . فلا داعي إذن إلى تحقير أنفسنا ، ولا موجب للقنوط من رحمة الله ، وليس لنا أن نستبين بما نزيله كل يوم من فسادنا . فبدوام السعي واستمراره يأتي ذلك القليل من الإصلاح على صرح الفساد العظيم من أصله ... وأصل هذا الفساد العظيم لا ينحني على أحد » . وما أظنه خفي على تلاميذ بن باديس ، فقد قوضوا أسسه عن علم ، كما أنهم

(١) التفسير لابن باديس صفحة ١٦٤ في تفسير قوله تعالى : « وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو مذبذبها عذاباً شديداً » ، كان ذلك في الكتاب مطوراً . الإسراء - آية ٥٨ .

علموا أن الإصلاح الخلقى تابع للإصلاح الدينى بالعودة إلى الكتاب والسنة . وفى العودة إليهما قضاء حاسم على الفساد وأعوانه . .

وهكذا أدرك بن باديس منذ أول الأمر ، وبتوفيق من الله، أنه ما من أمة يمكن أن تنهض حقيقة إلا عن طريق التربية ، وأن هذه التربية لا تكون مجدية إلا على أساس تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق ، ومن قبل حاول « أوجست كونت » مثل هذه النهضة لكنه فصل الأخلاق عن الدين . وحاول بعض أتباع مدرسته أن ينشئ الأخلاق على أساس من العلم لا من الدين فلم يفلح . لقد ظنت المدرسة الفرنسية أن المجتمع هو الذى يفرض القيم الأخلاقية فرضاً ، ورأى بن باديس ، ومثله جمال الدين الأفغانى ، أن الأخلاق هى التى تنبع من أعماق الضمير المتدين لا من قهر المجتمع ، لأن صوت الضمير أقوى من مئات القوانين . وهذا هو ما يمكن التعبير عنه أيضاً بكلمة للإمام بن باديس : « إن الخلق القويم لا بد أن يكون نتيجة تطابق الباطن مع الظاهر » (١) .

## ب - الإصلاح الدينى :

وتتحقق هذه المطابقة بين الظاهر والباطن عند الفرد والجماعة فى القيام بشرائع الإسلام علماً وعملاً فى أبواب العبادات والمعاملات ، وفى تطبيق أصول الإسلام وفروعه على الحياة الخاصة والعامة (٢) ، أى أن المسلمين لم يضعفوا إلا عندما فرقوا بين العقيدة والعمل فكثرت البدع وصنوف الضلال منذ القرن الثالث الهجرى ، ويؤكد ما ذهب إليه بن باديس أن مخطط الفرق الباطنية ، وما صحبه من تطور التصوف الفلسفى ، قضى على الدولة الإسلامية الكبرى فى بغداد . فسبب التدهور كما يفهمه بن باديس ، وكما يشهد به واقع التاريخ يرجع إلى الابتعاد عن الكتاب والسنة ، فقد

(١) انظر التفسير ص ٩٦ .

(٢) التفسير ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ فى تفسير قوله تعالى :

« ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، ياويلتى ليتنى لم اتخذ فلاناً خليلاً . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى ، وكان الشيطان للإنسان خلولاً » الفرقان آيات ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ .



صرف أهل الفتنة جهدهم في تأويل القرآن، وصرف الناس عنه، وتحريف السنة وتزييفها،  
« فالحسran الذي وعد به الله من يخالف الكتاب والسنة . وإن كان موجهاً  
للمشركين ، إلا أنه من نصيب أهل البدع والضلال في المجتمع الإسلامي » .

### ح - دعوة إلى العمل :

وقد بلغ التدهور بالمسلمين غايته ، لأنهم رضوا لأنفسهم أن يتبعوا أهل الفتنة  
والبدع . ولما كانت الأسباب تؤدي دائماً إلى نتائجها ، فليس لهم أن يعجبوا إن  
حل بهم العذاب . وهذا قانون تخضع له الأمم « مثل الأمم الإسلامية الحاضرة ،  
فما لاشك فيه أن فينا ظلماً وعدواً وفساداً وكفراً بأنعم الله، وأننا من جراء ذلك في  
عذاب شديد ، وليس هذا القانون خاصاً بهذه الأمم وحدها ، فهناك أمم أخرى  
أقوى منها في أسباب العذاب والهلاك . . . وإذا لم يأت المقدار المماثل من الهلاك  
أو العذاب لما عندهم من أسبابها فلائه لكل أمة أجل ، ولما يأت ذلك الأجل بعد ،  
فإذا جاء لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » (١) .

إذن يجب البحث عن أسباب هذا العذاب الذي تقاسيه الأمة الإسلامية  
لأن معرفتها قد تبعث النفوس إلى تجنبها فيزول هذا البلاء ، وقد وعد الله كل أمة  
تقلع عن الفساد أن يرتفع عنها العذاب ، وهو الصادق الوعد الرحيم ، وإن  
المطلع على أحوال الأمم الإسلامية يعلم أنها قد شعرت بالداء وأحست بالعذاب  
وأخذت في العلاج .

وأول خطوة في العمل هي العمل بدعوة الإسلام الصحيحة ، أي بالتضحية من  
أجل الجماعة ، وليس المقصود من العمل هو الفناء في الله ، بل الفناء من أجل المسلمين .  
وهنا يبين لنا بن باديس كيف انصرف الناس عن العمل المجدى إلى نوع من  
الشعوذة والتخاذل . فلقد كان القرآن يعرض العقائد بأدلة عقلية سهلة تصلح  
للعامه والخاصة ، فترك المسلمون هذه العقائد الواضحة وانصرفوا إلى الجدل  
واستهوتهم الطرق المعقدة لدى علماء الكلام ، وهكذا تمزقت الأمة وانحرفت

(١) التفسير ص ١٦٣ .

عن العمل الجدى بسبب تناحر فرق الكلاميين فى مناقشة مشاكل لفظية<sup>(١)</sup> ،  
فمن أجل العمل أن نخرج من جو المهارات التى وقعت بين علماء الكلام الذين  
لم يجدوا عملاً أفضل ، فى ظنهم ، من أن يكفر بعضهم ، بعضاً ، مع أنهم من دين واحد ،  
وأهل قبله واحدة ، وهذا هو الحسران المبين ، عندما ترك الناس القرآن وشغلوا  
أنفسهم بتشكيكات الفلاسفة وفروضهم ومباحكات المتكلمين ومناقضاتهم فما ازدادوا  
إلا شكاً ، وما ازدادت قلوبهم إلا مرضاً ، حتى رجع كثير منهم فى أواخر أيامهم إلى  
عقائد القرآن وأدلة القرآن فشفوا بعد ما كادوا .. كإمام الحرمين والفخر الرازى<sup>(٢)</sup> .

أما فى الفقه فقد ترك الفقهاء الأصول واشتغلوا بالفروع ، فشعبوا وضيقوا  
رحمة الله الواسعة على الناس ، ودفعوهم دفعاً بسبب تعنتهم إلى أحضان الطرق الصوفية  
التي تسهل عليهم كل شيء . فمن الضروري أن تظهر كتب الفقه من المسائل  
المتشعبة التي توهمنا ، عند بعض تفريعاتهم الغريبة فى مسألة هى أبغض الحلال  
إلى الله ، وهى الطلاق ، أنهم يشرعون للحمق من الناس<sup>(٣)</sup> . . . وتطهير كتب الفقه  
من مثل هذه المسائل من خير العمل .

أما فى مجال الأخلاق فإن القرآن يبين لنا مكارم الأخلاق ونفعها ، ومساوئ  
الأخلاق وضررها<sup>(٤)</sup> ، لكن المسلمين هجروا تلك الأخلاق التي لا تدانيها أخلاق  
أى دين آخر أو أى مذهب فلسفى<sup>(٥)</sup> ، واندفع كثير منهم إلى التصوف الأعجمى  
المختلط بتراث أمم وثنية . ويعبر الشيخ عبد الحميد بن باديس عن هذا الخلط  
قائلاً : « فهجرنا ذلك كله ووضعنا أوضاعاً من عند أنفسنا واصطلاحات من  
اختراعاتنا خرجنا فى أكثرها عن الحنيفية السمحة إلى الغلو والتنطع ، وعن السنة  
البيضاء إلى الأحداث والبدع ، وأدخلنا فيها من النسك الأعجمى والتخيل

( ١ ) انظر مقدمتنا فى نقد مدارس علم الكلام لكتاب « مناهج الأدلة فى عقائد الملة » .

( ٢ ) التفسير ص ٢٤١ .

( ٣ ) انظر كتابنا الإسلام بين أمه وغده ١٤٢ - ١٥٢ .

( ٤ ) التفسير ٢٣١ .

( ٥ ) هناك رسالة فى الأخلاق القرآنية للمرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز ، وفى كتاب تفسير

الشيخ عبد الحميد بن باديس عرض ممتاز لهذه الأخلاق . انظر ص ٨١ وما بعدها .

الفلسفى ، ما أبعدھا غاية البعد عن روح الإسلام ، وألقى بين أهلھا بذور الشقاق والخصام ، وآل الحال بهم إلى الخروج من أثقال أغلالھا، والاقتصار على بقية رسومھا للانتفاع منها ومعارضة هداية القرآن بها « (١) »

لذلك ينبغى أن نطهر علومنا الإسلامية من هذه الأوشاب . وإلى جانب الأوهام والخرافات توجد قشور يشغل الناس أنفسهم بها بدلا من البحث عن اللب . ويشير بن باديس هنا إلى طريقة التدريس فى جامع الزيتونة ، حيث يشغل الطالب عقله ، على حد تعبير الإمام بالخصومات بين النحاة « أياما وشهورا فتنتهى السنة وهو لا يزال حيث ابتدأ أو ما تجاوزه إلا قليلا ، ويعجب كيف ينقلب تفسير القرآن إلى تطبيقات للقواعد على الآيات ، كأن التفسير إنما يقرأ لأجل تطبيق القواعد الآلية ، لا لأجل فهم الشرائع والأحكام الإلهية » (٢) .

وهذا النقد البناء ينبغى ألا يغضب أحدا ، وقد حاول شيئا من هذا القبيل الشيخ الأحمدي الظواهري فى كتابه « العلم والعلماء » وفيه يبين أن بعض العلماء يتنافسون على تدريس الوسائل بدلا من المقاصد ، أى يفضلون تدريس القواعد النحوية وعلوم الجدل الكلامية على تدريس التفسير والحديث ؛ لأن العلوم الأولى تسمح لهم بأن يجولوا ويصولوا فى عرض حجج الخصوم ونقدها، أو لجرد سردها . فمن خير العمل ترك القشور للاهتمام بالأخلاق والهداية الإسلامية .

ومثل هذا العمل فى مجال الثقافة الإسلامية هو الكفيل بتعديل الاتجاه ، أى بالخروج من التيه الذى نحن فيه ، على حد تعبير بن باديس ، ويعنى به ثقافة عصور الجحود ، وذلك حتى يمكن فهم القرآن بروح علمية مجردة من الأوهام والخرافات « والاستعانة على ذلك بإخلاص القصد وصحة الفهم . وهذا أمر قريب على من قرب الله عليه ، ميسر على من توكل على الله فيه . وقد بدأت طلائعه والحمد لله ، وهى آخذة فى الزيادة إن شاء الله ، وسبحان من يحيى العظام وهى رميم » . ولا ريب فى أنه يشير هنا إلى بعث الأمة الجزائرية إلى الحياة الكريمة عن طريق العلم الدينى الصحيح وتحذيرها من العلم المزيف الذى سيطر على العقلية الإسلامية

(١) التفسير ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

(٢) نفس المصدر ٢٣٣ - ٢٣٤ .



بصفة عامة طيلة العصور السابقة دون منازع . وقد أخلص بن باديس القصد، وأجاد الفهم، وتوكل على الله، وكان مثال العالم المضحى من أجل هذا الإصلاح الدينى . .

## ٦ - ظهور فكرة الإصلاح

كان ذلك هو العمل التمهيدى الذى قام به الإمام بن باديس، لكن لم تكن النظرية منفصلة عن التطبيق، إذ شرع منذ البدء يثقف العقول تبعاً لمنهجه الجديد بعمل متواصل لا ينهض به إلا من كان كبير المهمة، عظيم الإخلاص لما يعتقده الحق . ولم يكن بد أن تمتد روح التفاؤل، وهى من أظهر السمات فى شخصيته، إلى الآخرين، فغمر الأمل قلوبهم فى تحقيق نتائج هذا العمل المتواصل، بعد هدم صرح الأوهام وتحطيم الحواجز التى وضعها أصحاب الطرق الصوفية بين المسلمين وبين الكتاب والسنة . فعلم الناس أنهم إنما ينهضون متى طهرت عقائدهم، وعادت نفوسهم وقلوبهم تستقى من المصدر الأول، وعلموا أن الإصلاح يؤتى ثمرة إذا وجدت لهم قوة . « وإنما تكون لهم قوة إذا كانت لهم جماعة منظمة تفكر وتدبر، وتتشاور وتتآزر، وتنهض لحلب المصلحة ولدفع المضرة، متساندة فى العمل عن فكر وعزيمة » . وهذا هو ما حققته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، إذ ما كاد يمضى وقت قليل حتى بدأت تظهر فكرة الإصلاح، ثم قامت دولة الباطل تساندها الرجعية، تحاول القضاء على هذه الفكرة، فقد أدركت بحساسية جردان السفينة أن هذه الجمعية هى التى ستغير الواقع الجزائرى، وهو الذى كان فى صالحهم حينذاك .

لكن ظهور فكرة الإصلاح كان ضرورة تاريخية، فقد اتفق بن باديس مع المصلحين السابقين من أمثال جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده على أن الأمة الإسلامية بدأت تدرك أنها دخلت مرحلة دقيقة من تاريخها بسبب عودة الغزو الأوروبى الذى ذكرها بالحروب الصليبية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين . وكان سقوط الجزائر هو النذير الأول، ثم تابعت النذر بسقوط تونس ومصر وليبيا، ثم بسط الحماية على مراكش . لذلك استيقظ المسلمون من

ركودهم الشامل وارتفعت صيحات الإصلاح في جوانب العالم الإسلامى تدعو الناس إلى معالجة أدوائهم بالقضاء على أسبابها : واجتثاث أصلها .  
وقد لاحظ بن باديس أن سلاح اليقظة كان دائماً عن طريق العودة إلى الإسلام الصحيح المستقى من الكتاب والسنة ، وهو الإسلام « الذى أنقذ الله به العالم أولاً ، ولا نجاة للعالم مما هو فيه اليوم إلا إذا أنقذه الله به ثانياً »<sup>(١)</sup> . وهناك ما يدعو إلى التفاؤل ، لأن المسلمين يلبون نداء المصلحين بما يقوى الرجاء ، ويبعث الأمل .

## ٧ - مقاومة الرجعية التى تدافع عن الباطل

وكان من الضرورى أن تلقى هذه اليقظة الشاملة فى الجزائر مقاومة الرجعيين ومن يحتذى به هؤلاء للاحتفاظ بمزاياهم<sup>(٢)</sup> . غير أن الإمام عبد الحميد بن باديس يستبشر بهذه المقاومة التى قد يضيق بها صدر مصلح آخر ، لأنه كان يؤمن إيماناً عميقاً بتلك البشرى التى انطوى عليها قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً »<sup>(٣)</sup> . ولأنه كان يعتقد أن هذا الوعد عام لكل من دعا إلى اتباع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم . لذلك جعل يطمئن أصحابه أن مقاطعة الناس لهم وما يلقونه من أذاهم لن تدم وأنهم سوف يشتد عزمهم بما سيجلدونه من « ود فى القلوب ممن يعرفون ومن لا يعرفون » .

### ١ - أول الغيث :

ومن علامات تحقق هذا الوعد أن الوالى الفرنسى اضطرب إلى أن يتظاهر بأنه ليس ضد جماعة العلماء المسلمين الجزائريين ، وأنه لا يقاومها بأى نوع

(١) التفسير ص ٤٣٤ .

(٢) التفسير ص ٤٣٦ .

(٣) سورة مريم آية ٩٦ وكانت قد نزلت فى السابقين إلى الإسلام من الصحابة الذين تنكر لهم أهل

من المقاومة . وعندئذ تقول جريدة الصراط ، تظاهراً بتظاهر ، إن الحكومة الفرنسية ستشارك هي الأخرى مع الأمة وسكان الجزائر في جني ثمرة الجهود التي تبذلها جمعية العلماء . كذلك تظاهرت الجمعية بأنها تعاون فرنسا على تهذيب هذا الشعب الجزائري وترقيته ورفع مستواه إلى الوضع اللائق باسم فرنسا وسمعتها . ولا بأس في رأينا من التظاهر ، إذ من الحكمة أن تلقى كل خصم بسلاحه . ومع ذلك فإن تظاهر الجمعية لم يكن إلا ستاراً رقيقاً ، لأنها تنبه الوالي الفرنسي في الوقت نفسه إلى أن كثيراً من دوائر الإدارة الفرنسية تقاوم الجمعية . ثم لا تلبث أن تجبه الوالي بأنه قد صدر قرار بتعطيل جريدة الشريعة ، بعد أن تظاهر الوالي بأنه لا يقاوم الجمعية<sup>(١)</sup> .

#### ب - الوالى يستعين بالرجعية :

غير أن الوالى كان قد سبق إلى تحريك أعوانه ليهاجموا الحركة الإصلاحية، فجعل هؤلاء يصفون الشيخ بن باديس بأنه وهابى . وعبدواوى، رغبة في تنفير الناس منه . وسعيًا إلى وأد الحركة في مهدها ، مع أن الإمام محمد عبده والإمام محمد بن عبد الوهاب كان لهما أكبر الأثر في تطهير العقائد الإسلامية من الخرافات والأوهام ، وبدأ بتجديد الأمة الإسلامية . وقد سخر بن باديس من هؤلاء الخصوم الذين وصفهم بأنهم أهل جمود وركود في مقال مشهور بعنوان عبدواويون ثم وهابيون ثم ماذا لا ندري والله<sup>(٢)</sup> . وقد بين فيه سبب حلق هؤلاء الخصوم، لأنه ساءهم أنه دعا إلى دراسة اللغة العربية تمهيداً لمعرفة المصادر الخاصة بالشريعة الإسلامية وللإطلاع على مؤلفات المعاصرين أيضاً . وهذا هو الخطر الأكبر الذى كان يخشاه المستعمر الحريص على عزل الجزائر عزلاً تاماً لإدماجها نهائياً في فرنسا .

فإنلطة مرسومة منذ وقت طويل . ودليل ذلك أنه ظل يدرس عشر سنوات في قسنطينة ولم يكن قرأ شيئاً يذكر للشيخ محمد عبده ، ومع ذلك كان أعوان الباطل يحاربونه ويكيدون له : دون أن يعنى بأمرهم . لأنه قضى تلك السنوات العشر

(١) جريد الصراط العدد (١) ٢١ جمادى الأولى ١٣٥٢ الموافق ١١ سبتمبر ١٩٣٣ .

(٢) العدد الثالث من السنة المحمدية للنبوية .

« لتكوين شيء علمي لم يخلط به غيره من عمل آخر » ، فلما ظهرت نتائج التدريس فكر في إنشاء جمعية تقوم بدعوة عامة إلى الإسلام الخالص ، والعلم الصحيح ، أي إلى الكتاب والسنة وهدى سلف الأمة ، وذلك لتحرير الناس من البدع والضلالات . ثم أنشأ صحافة كان لها أثرها في إحياء موات النفوس . وهنا تنبه المستعمر الذي يطلق عليه بن باديس اسم « الباطل » في كثير من كتاباته « فكانت هذه المرة غضبة الباطل أشد ، ونطاق تقمته أوسع ، وعدد أتباعه أكثر » . ثم تحالف أعوان الحمود مع أعوان البدعة ليقدموا خدماتهم لمن أتاح لهم صروحاً من الجاه ، وأنهاراً من المال ، على حد تعبير بن باديس . غير أن الإمام عرف كيف يفهم هؤلاء الأقزام عندما بين لهم أن كثيراً من الأئمة السابقين كشفوا عن مخطط أهل البدعة ومستغلى العامة ، فنشر شيئاً من كلام الشاطبي ، ووعد بأن يتابع نشر آراء كبار الأئمة ، أي دون حاجة إلى الاستعانة بأقوال محمد بن عبد الوهاب ومحمد عبده .

#### ح - معركة غير متكافئة :

وهكذا بدأت المعركة غير متعادلة . فعلماء المسلمين من أصحاب بن باديس لا يعتمدون إلا على المثقفين ، في حين كان للمستعمر أعوانه من أهل الحمود والبدع ، وهم كثيرون بخذلان من الله ، ومن ورأهم ملايين من العامة . ومع ذلك فإن ميزان القوى كان قد تغير وأصبح في صالح العلماء المسلمين من أصحاب بن باديس . لقد كان أعوان الباطل يظنون أنهم يستطيعون الاعتماد على عامة الشعب التي تعد بالملايين ، لكنهم فوجئوا عندما علموا أن صوت المصلحين سبقهم إلى الشعب . وهذا هو ما يفسر لنا فزعهم . لذلك رأيتهم يحاولون تركيز جهودهم على كسب المستعمر ، فأعلنوا إخلاصهم لفرنسا ، وذهب وفد من أصحاب الطرق الصوفية يعلن ولاءه للوالي الفرنسي<sup>(١)</sup> . ونهبوا الوالي إلى خطر المصلحين وكانوا هم الذين أشاروا عليه بمنع العلماء من دخول المساجد للوعظ ، مما دعا جريدة « البتي باريزيان » (Le Petit Parisien) إلى القول « بأن الطرق الصوفية تملك السلطة الروحية التي يمكن أن تكون مفيدة أو ضارة لفرنسا ، تبعاً لطريقة استخدامها » ، ولكن الطرفين

(١) الصراط العدد ١١ بتاريخ ٩ شعبان ١٣٥٢ ، ١٩٣٢/١١/٢٧ .



كانوا حتى الآن من أحسن معاونينا ، كما أنه ليس هناك ما يحول لنا أن نشك في إخلاص العلماء ، فثقافتهم الروحية عربون على اعتدالهم .

وقد ابتهج عبد الحميد بن باديس لهذه المقاومة ، وله في الحق أن يبتهج ؛ لأنه نجح في عزل أصحاب الطرق الصوفية عن الشعب ، وأظهرهم في مظهر من يتحالف مع أعداء هذا الشعب . وكيف لا يبتهج وقد استطاع أن يكشف النقاب عن خيانة الصوفية ، وأن يجبر العدو على الاعتراف بأنه لا يجد شيئاً يدين به جمعية العلماء المسلمين<sup>(١)</sup> .

وإذا كانت الحكومة الفرنسية للجزائر ارتضت أن تحارب من وراء ستار ، وتحرك أعوانها الذين بدأوا يفقدون موافقهم ، فإن بن باديس أخذ يهاجم علناً ويتهم الوالي الفرنسي بأنه هو الذي يحارب علماء الأمة ودينها ، كما سبق أن رأينا في أثناء حديثنا عن شجاعته العقلية . وإنما هاجم الوالي بهذه الجرأة النادرة ، لأن المعركة كانت بدأت في الخفاء منذ عدة أشهر ، وتبين أن النصر فيها لن يكون في جانب « الباطل » وأعوانه . فقد رفضت الحكومة إنشاء مدرسة جديدة في بلدة القنطرة ، مع أن شيخاً جليلاً تطوع أن يعلم الأطفال المشردين في البلدة الذين شكت إحدى السائحات من أنهم يشوهون جمال هذه البقعة من أرضهم الجزائرية<sup>(٢)</sup> .

ومن مظاهر هذا العنف أن الحكومة الفرنسية للجزائر كانت تسمح لليهود فيها أن ينشئوا المدارس لأبنائهم ، ولا تسمح للمسلمين بإنشاء مثلها لأطفالهم ، في الوقت الذي تزعم فيه أن الدولة منفصلة عن كل صبغة دينية . فالمستول عن المنع إذن هو المستعمر . وهذه هي الحرب التي بدأها هو .

وهذا هو السر في تلك الصرامة وهذه الجرأة اللتين نراهما في موقف عبد الحميد بن باديس . ثم لم يكتف الوالي الفرنسي بذلك بل استعان بنائب يهاجم جمعية العلماء ، ويصفهم بأنهم مالكيون ، « وليت الناس كانوا مالكية إذن لا طرحوا كل بدعة . . . فنارت نائرة هذا الجاهل ، ومن كانوا في الجهل والشر مثله ، يحاولون إثارة الفتنة والله يطفئها »<sup>(٣)</sup> .

(١) الصراط العدد ١٣ بتاريخ ٢٣ شعبان ١٣٥٢ ، ١١/١٢/١٩٣٣ .

(٢) الصراط العدد ٢ بتاريخ ٢٨ جمادى الأولى ١٣٥٢ ، ١٨ سبتمبر ١٩٣٣ .

(٣) العدد الثالث من الصراط بتاريخ ٥ جمادى الثانية الموافق ٢٥ سبتمبر ١٩٣٣ .

ونقول إن الحكومة الفرنسية للجزائر كانت تظن أنها تحارب في خفاء ، مع أن الشيخ عبد الحميد بن باديس كان حريصاً على كشف خداعها منذ حين ، وهو يحذرهما من سلوك هذا المسلك الشاذ تجاه مسلمي الجزائر. بمحاربة أية حركة إصلاحية دينية بشتى الوسائل ، ومنها استدعاؤه هو شخصياً لسؤاله إذا كان لديه إذن حكومي يرخص له بالعمل في التدريس ، مع أن الحكومة تعلم أنه يدرس منذ عشرين سنة في الجامع الأخضر ، وفي مسجد سيدي قوش ، ومسجد سيدي عبد المؤمن<sup>(١)</sup>، وأن لديه رخصة بهذا العمل منذ ذلك الحين. فالمسألة «ليست مسألة عبد الحميد بن باديس ولكنها مسألة التعليم الديني واللساني للمسلمين ، ومسألة مائة طالب أو يزيدون جاءوا من العمالات الثلاث بقسنطينة هذه الأيام ، ومسألة نحو الألفين من سكان قسنطينة ونواحيها يمتلئ بهم الجامع الأخضر كل ليلة في مجالس التذكير»<sup>(٢)</sup>، وهذا هو على وجه التحقيق ما كانت تخشاه فرنسا كل الخشية . وهو السبب في كل هذه المقاومة التي جندت لها بعض الأذئاب وأصحاب المصالح الذين يهمهم ألا تنجح حركة الإصلاح التي يدعو إليها بن باديس ، ولا سيما أن بضعة رسائل من مسلمي اليمن جاءت تؤيد جمعية العلماء المسلمين في جهودها للقضاء على البدع ، وكانت تلك الرسائل تبشر بالقضاء على الطرق الصوفية في اليمن . وقد اشتدت المعركة عندما أصدر المجلس الإداري لجمعية العلماء قراراته التي يطالب فيها بفتح مجال التعليم الديني ، بضرورة التعليم العربي « وترك الحرية التامة للمسلمين الجزائريين في فتح المكاتب القرآنية والمكاتب الحرة ، وأن تقف ( الحكومة ) وراء القائمين بهذه المشاريع موقف المؤيد المساعد »<sup>(٣)</sup> . ولم تكن تلك في الحقيقة مجرد مطالب تقدمت بها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، بل كانت شروط المنتصر ، رغم أن الجمعية ظلت تؤكد أنها جمعية دينية تهذيبية

(١) العدد السابع من الصراط ص ٦ بتاريخ ١١ رجب ١٣٥٥ .

(٢) يقول بن باديس « ابتدأت القراءة بقسنطينة بدراسة الشفاء القاضي عياض بالجامع الكبير حتى بدا للمفتي الشيخ بن الموهوب أن يمنعا فنمنا . . فطلبنا الإذن من الحكومة بالتدريس في الجامع الأخضر فأذنت لنا وكان هذا الإذن على يد م . أريب الكاتب العام للأمر الوطني بدار العمالة إذ ذاك ( نفس المصدر ونفس الصفحة ) .

(٣) الصراط العدد ١١ ص ٤ .

لا شأن لها بالسياسة . وأميل إلى اعتقاد أن الإمام عبد الحميد لم يكن يتعجل النصر لأنه كان شديد الثقة بأنه آت لا محالة . وكيف لا ، وقد عزل خصومه واحداً بعد آخر ، ووضع دستوره في قصيدته المشهورة التي يؤكد فيها أن الشعب الجزائري عرني مسلم<sup>(١)</sup> ؟

## ٨ - نجاح الخطة

وهكذا نجحت الخطة التي رسمها عبد الحميد بن باديس ونفذها بصبر وأناة . وهو تخطيط في غاية البراعة ، فقد استطاع أن يعزل المتحالفين . فبدأ بالطرق الصوفية ، التي أراد في أول الأمر أن يستخلص العناصر السليمة فيها لأن الأخوة في الله فوق أي اعتبار آخر . فلما حاربتة بدأ يعزها عن الشعب . فلما لجأت إلى المستعمر أظهرها بمظهر الحيانة ، ففقدت سلطانها على الشعب ولم تعد ذات نفع للحكومة الفرنسية بالجزائر ؛ بل غدت عبئاً عليها . فلما انتهى من الأذئاب ظهرت دولة الباطل على حقيقتها ، إذ أنها كانت تريد أن تمحو الصبغة العربية الإسلامية في الجزائر ، غير أنها تنبت ، بعد فوات الوقت ، إلى أن مصلحاً قطع الطريق عليها في رفق ودون تظاهر بالبطولة ، فحاصرها ببعث اللغة العربية ، وتجديد العاطفة الدينية الصادقة ، مما أحيى في الأمة روح المطالبة بحقوقها ، وفي مقدمتها الحرية الدينية التي كانت فرنسا تتظاهر باحترامها ، وهي الحرية التي لا يمكن الحفاظ عليها في الجزائر بصفة خاصة إلا بلسانها العربي . لقد قام الإمام عبد الحميد بن باديس بهذا الحصار بأسلوبه السهل الرقيق الهادئ في الوقت الذي ظن فيه المبشرون أن الحكومة الفرنسية العلمانية بالجزائر قد هيأت لهم كل الوسائل في هذا القطر الإسلامي فما عليهم إلا أن يدخلوه يحاقلهم<sup>(٢)</sup> .

غير أنها وجدت آخر الأمر أنها هي التي حوصرت . ونحن نعلم جميعاً نهاية

(١) انظر ص ٣١ ، ٣٢

(٢) لم يتنبه ماسينون وغيره إلى خطر دعوة الإمام بن باديس وظنوا أنها محاولة ساذجة للإصلاح الديني وأنه لا خطر منها .



هذا الحصار . فقد نجا القطر الجزائري بفضل الله وإخلاص بن باديس وتضحيات الشعب الجزائري قاطبة . .

إن عبد الحميد بن باديس الذي فر إلى الله واستعان به لتحرير هذا القطر الإسلامي العربي كان غاية في اليقظة ، فإنه لم يندع بأساليب الاستعمار وحيله ، في الوقت الذي كانت تحق فيه على كثير من البلاد الإسلامية . فهو يحذر المسلمين من هذه الأساليب منذ زمن طويل ، وهو يحدثنا<sup>(١)</sup> عن محاولة الدول الغربية فتنة المسلمين باسم الخلافة ، وأنها أرادت أن تستغل ذلك مرات عديدة فأصيبت فيها كلها بالفشل . ويعجب الإمام أن يتدفع في تيار هذه الفتنة كثير من المسلمين ورؤسائهم وبخاصة في مصر حيث كان يحكم الملك السابق فاروق<sup>(٢)</sup> . لكن مضى فاروق ، وخرج الإنجليز من مصر ، ووقفت معظم الدول الإسلامية المتحررة من سيطرة الغرب ضد فكرة الحلف الإسلامي في أيامنا هذه ، حتى لم نعد نسمع شيئاً عنه ، ولقد كان عبد الحميد بن باديس محقاً عندما قال في سنة ١٩٣٨ : « كفى غروراً وانخداعاً . إن الأمم الإسلامية اليوم ، حتى المستعبدة منها : أصبحت لا تخدعها هذه الهاويل ولو جاءتها من تحت الجيب والعمائم » .

ولقد سبق عبد الحميد بن باديس أيضاً في تأكيد فكرة القومية العربية ، وبعث الأمل في نفوس أمة ظن الاستعمار أنه قضى على شخصيتها وعروبيتها ، وأنه كاد يدمجها في الوطن الأم كما يقال . والإمام يبعث الأمل في النفوس مستعيناً بالله دائماً فهو يقول<sup>(٣)</sup> : « لم لا نتق بنفوسنا ، وقد أعطانا الله عقولا نذكر بها ، ومواهب نستسخرها لما يرضى الله ورسوله . لنا مواهب مثل ما لغيرنا ، وفوق ما لغيرنا . وقد أعطانا من هذا الدين الإنساني ، ومن هذا الدين العقلي والروحي ما يكمل عقلنا

(١) الشهاب العدد ٢ المجلد ١٤ ص ٤ - ٦ غرة ربيع الأول ١٣٥٧ ، مايو ١٩٣٨ .

(٢) يحق لابن باديس أن يسخر فيقول « من هذا الانتفاع ما يتحدثون به في مصر فيتردد صدهاء في الشرق والغرب ، وتهيج له صحافة الإنجليز على الخصوص ، ويتحدثون في مصر وفي الأزهر عن الخلافة كأنهم لا يرون المعادل الإنجليزية القصارية في ديارهم » .

(٣) النص التربوي الكامل لتقرير الأبي الذي ألقاه سماحة الأستاذ بن باديس بجمعية التربية والتعليم ١٣٥٨ هـ مايو ١٩٣٩ ، البصائر لسنة الزراعة العدد ١٧١ .



ويهدب أرواحنا ، أعطانا منه ما لم يعط لغيرنا ، لنكون قادة وسادة وأعطانا وطناً شاسعاً واسعاً مثل ما لغيرنا . فنحن إذن شعب عظيم يعتر بلدينه ، يعتر بلغته ، يعتر بوطنيته ، يستطيع أن يكون في الرقي واحداً من هذه الشعوب . .

« إنا نعتصم بالحق ونعتصم بالتواضع عندما نقول إنا شعب خالد ككثير من الشعوب . لكننا ننصف التاريخ إذا قلنا إنا سبقناها في ميادين الحياة ، سبقناها بهدايتنا . وسبقنا هذه الأمم في نشر الحق أيام كانت في ظلمات الجهل . . .

« ذلك ما كنا فيه وما سنعود إليه ، وإنما علينا أن نعرف تاريخنا، ومن عرف تاريخه جدير بأن يتخذ لنفسه منزلة لا تفتقر به في هذا الوجود، ولا رابطة تربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأغر والمستقبل السعيد ، إلا هذا الجبل المتين : اللغة العربية ، لغة الدين ، لغة الجنس ، لغة القومية ، لغة الوطنية المحروسة . . .

« إنها وحدة الرابطة بيننا وبين ماضينا ، وهي وحدها المقياس الذي نقيس به أرواحنا بأرواح أسلافنا ، وبها يقيس من يأتي بعدنا، من أبنائنا وأحفادنا الغر الميامين ، أرواحهم بأرواحنا ، وهي وحدها اللسان الذي نعتر به، وهي الترجمان عما في القلب من عقائد، وما في العقل من أفكار، وما في النفس من آلام وآمال . .

« إن هذا اللسان العربي العزيز الذي خلم الدين، وخدم العلم ، وخدم الإنسانية هو الذي نتحدث عن محاسنه منذ سنين ، فليحقق الله آمانينا .

وينتهي مديحه للسان العربي إلى أن يطرى اتجاه بعض الشبان إلى دراسة اللغة العربية، من الذين حالوا دون أن يتجه القطر الجزائري نحو القناء، عندما لم تكن لهذا القطر مدارس تعلم اللسان العربي ، ولم يكن « له رجال يدافعون عنه ويموتون عليه ، بل كان في اضطراب دائم مستمر . . وكان أبنائنا يومئذ لا يذهبون إلا إلى المدارس الأجنبية التي لا تعطيهم غالباً من العلم إلا ذلك الفتات الذي يملأ أذهانهم بالسفاسف حتى إذا خرجوا منها خرجوا جاهلين دينهم ولغتهم وقوميتهم وقد ينكرونها» .

إن هذا الخطاب الذي يمجّد فيه الإمام بن باديس اللغة العربية والجزائر المسلمة ليس إلا إعلاناً للنصر على المحاولة القرنسية التي أرادت محو الشخصية

الجزائرية العربية المسلمة . ولقد قاله وفرنسا في أوج عظمتها وقوتها . أى قبل الحرب العالمية الثانية بأشهر قلائل . أليست تلك هي الشجاعة النادرة التي حبا الله بها عبد الحميد بن باديس ؟ أليس هذا دليلا على أنه هو الرجل السهل الممتنع الذي بدأ ينحت في الصخر نحت خريير الماء الهادئ حتى أتى على الصخر وأزاله من طريق هذه الأمة، التي أراد الله بها خيراً، فوهبها هذا الثائر المصلح . الذي بلغ الغاية في التوفيق بين النظرية والتطبيق في مناهج الإصلاح ؟ ! .

## الفصل الثالث

### الفكر السياسى للإمام بن باديس

#### ١ - أصول الحكم :

لم يكن بن باديس مصلحاً فحسب ، بل كان مجاهداً سياسياً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، فقد وضع للأمة الجزائرية دستور المستقبل ، عندما برهن لها على عدم مشروعية الحكم الفرنسى فى الجزائر، معتمداً فى ذلك على ما استنبطه من خطبة الخليفة الأول أبى بكر الصديق . فأصول الحكم فى الإسلام تناقض أصول الحكم الاستعماري تماماً . « إذ لا حق لأحد فى ولاية أمر من أمور الأمة الإسلامية إلا بتولية الأمة . فالأمة هى صاحبة الحق والسلطة فى الولاية والعزل ، فلا يتولى أحد أمرها إلا برضاها » . وهذا الأصل مستمد من قول الصديق : وليت عليكم ، لأن غيرى ولانى وهوانتم . وهذا ما لا ينطبق على الحكم الفرنسى الذى فرض نفسه على الجزائر بحروب الإبادة وبالتفرقة العنصرية .

أما الأصل الثانى فإن « الذى يتولى أمراً من أمور الأمة هو أكفؤها فيه ، لا خيرها فى سلوكه . . . لذلك قدم الأرجح فى الكفاءة لا فى الخيرية » . وكأن بن باديس كان يحذس بمصير جمعية العلماء المسلمين بعد قيام ثورة التحرير . إنهم هم الذين بدلوا الجهد فى إعداد الأمة للجهاد ، لكن تطور المجتمع الجزائرى برهن بحسب الواقع أن الكفاءة فى القيادة كانت لحيل الشباب الذى رأى أن الوحدة الجزائرية لن تكون إلا عن طريق العمل .

ثم يستمر بن باديس فى تحليل خطبة أبى بكر الصديق ليقرر أصولاً هامة للحكم . كحق الأمة فى مراقبة أولى الأمر ، لأنها مصدر سلطتهم ، وصاحبة النظر فى ولايتهم وعزلهم ، وكحق الوالى على الأمة فيما تبدله له من عون إذا رأت استقامته ، وحقه عليها فى نصحه وإرشاده ودلالته على الحق إذا ضل ، وتقويمه على الطريق إذا زاغ ، وكحق الأمة فى مناقشة أولى الأمر ومحاسبتهم على أعمالهم ،

وحملهم على ماتراه هي لا ما يرونه هم ، وحققها في أن يبين لها من يتولى حكمها  
الخطة التي ستسير عليها لتكون على بصيرة من أمرها .

ومن هذه الأصول أن « لا تحكم الأمة إلا بالقانون الذي رضيته لنفسها وعرفت  
فيه فائدتها ، وما الولاية إلا منفلون لإرادتها ، فهي تطيع القانون لأنه قانونها ،  
لا لأن سلطة أخرى لفرد أو جماعة فرضته عليها ، كائناً ما كان ذلك الفرد ، وكائنة  
من كانت تلك الجماعة ، فتشعر بأنها حرة في تصرفها ، وأنها تسيّر نفسها بنفسها ،  
وأنها ليست ملكاً لغيرها من الناس — لا للأفراد ولا للجماعات ولا للأمم ، ويشعر  
هذا الشعور كل فرد من أفرادها ، إذ هذه الحرية والسيادة حق طبيعي وشرعي لها  
ولكل فرد من أفرادها » .

ثم ينادى بن باديس — بعد أن دمج الحكم الفرنسي بأنه غير شرعي ، وغير إنساني ،  
بل هو حكم استبدادي أصيل في استبداده ، وحاجز سميك أمام حرية الشعب  
الجزائري — بأن الناس كلهم أمام القانون سواء ، لا فرق بين قويهم وضعيفهم ،  
يطبق على القوى دون رهبة لقوته ، وعلى الضعيف دون رقة لضعفه ، وهذا ما لم تفكر  
فرنسا قط في تحقيقه ، رغم زعمها أن الجزائر فرنسية ، بل ظلت تفرق بين المعمرين  
الفرنسيين والمواطنين الجزائريين . وأكثر من ذلك ، فقد خرجت على قوانينها نفسها  
عندما دأبت على تزييف الانتخابات فيما بعد تزييفاً أزعج الفرنسيين أنفسهم .  
كذلك خرجت فرنسا على أصل هام من أصول الحكم عندما لم تحفظ التوازن  
بين طبقات الأمة ، فحرصت على تجريد الضعفاء من كل ما بقي في أيديهم ، لتزيد  
من ثراء الأقوياء ، مع أن شريعة العدل توجب أن تصان الحقوق « فيؤخذ الحق  
من القوى ، دون أن يقسى عليه لقوته فيعتدى عليه حتى يضعف وينكسر ،  
ويعطى الضعيف حقه دون أن يدلل لضعفه فيطغى وينقلب معتدياً على غيره » ،  
وهذا ما يمكن استنباطه من قول أبي بكر رضي الله عنه : « ألا إن أقواكم عندي  
الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندي القوى حتى آخذ الحق منه » . ومن  
أصول الحكم الإسلامي الصحيح أن يشعر الراعي والرعية بالمسئولية المشتركة بينهما  
في صلاح المجتمع ، وشعورهما دائماً بالتقصير في القيام بها ، ليستمر على العمل .  
وبعد أن بين هذه الأصول الإسلامية التي محاها الحكم في الجزائر



واستعاض عنها بشريعة الغاب ، يقول بن باديس : « هذا ما قاله أول خليفة في الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ، فأين منه الأمم المتمدينة اليوم ؟ فهل كان أبو بكر ينطق بهذا عن تفكيره الخاص وفيض نفسه الشخصي ؟ كلا ! بل كان يستمد ذلك من الإسلام ، ويخاطب المسلمين يوم ذاك بما علموه وما لا يخضعون إلا له ، ولا ينقادون إلا به . وهل كانت هذه الأصول معروفة عند الأمم فضلاً عن العمل بها ؟ كلا . . . »

## ٢ - الوطن الجزائري :

ربما كان بن باديس هو أول من حدد فكرة الوطن الجزائري في النصف الأول من القرن العشرين ، بعد أن ظنت فرنسا وظن الكثيرون معها أنها جعلت الجزائر مقاطعة فرنسية بفضل القرارات التي كانت تصدرها تباعاً منذ صدور الأمر الفرنسي في ٢٢ يوليو ١٨٣٤ ، الذي يقضى بأن الجزائر ملكية لفرنسا . وذلك قبل أن تتمكن من احتلالها . ولما استطاعت القضاء على ثورة الأمير عبد القادر ، التي استمرت حتى ١٨٤٧ ، أصدرت مرسوماً في ٤ مارس ١٨٤٨ تعلن فيه أن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا ، وفي سنة ١٨٧٠ قسمت الجزائر إلى ثلاث مقاطعات فرنسية ، ثم عادت بعد مجزرة سطيف في ٨ مايو سنة ١٩٤٥ تؤكد من جديد أن الجزائر فرنسية ، وتشرع لها دساتير صورية ترمي إلى التعلق بتلك الأسطورة التي حاكت خيوطها أكثر من قرن من الزمان ، فلم تقنع أحداً بصدقها . وما كان لفرنسا ولا لأعوانها أن يحملوا هذا الادعاء محمل الجد ، ولا سيما أن فكرة الجزائر المسلمة العربية ظلت راسخة في النفوس ، رغم ضروب العسف والإبادة منذ الفتح .

وقد وجدت فرنسا في عبد الحميد بن باديس خصماً أفسد عليها سياستها ، ومهد للقطيعة التامة بين الفرنسيين والجزائريين بعد الحرب العالمية الثانية ، وكشف النقاب عن عبث جميع المحاولات التي قامت بها فرنسا ، أو بعض زعماء الأحزاب السياسية الجزائرية في الثلاثينيات والأربعينيات ، فنحن نجده في سنة ١٩٢٦ يصدر جريدة «المنتقد» بهذا العنوان : « الحق فوق كل أحد ، والوطن قبل كل شيء » ، ثم يعود إلى تأكيد فكرة الوطن الجزائري في ١٩٣٧ بعد فشل سياسة المهادنة التي

ترجمها « فيوليت » صاحب المشروع المشهور، الذي قلنا إنه كان يرمى إلى امتصاص سخط الجزائريين الذين غررت بهم فرنسا ، وجندت منهم مئات الألوف في الحرب العالمية الأولى . إن بن باديس يذكر هؤلاء الذين أصابهم اليأس لفشل هذا المشروع بأن مشكلة الجزائر لن تحل إلا على أساس الاعتراف بكيان هذا القطر العربي الإسلامي . وهو يذكرنا بأنه نادى بهذه الحقيقة في الوقت الذي كانت فيه كلمة الوطن والوطنية جريمة سياسية ، « وقليل جداً من يشعر بمعناها ، وإن كان ذلك المعنى دفيناً في كوامن النفوس ككل غريزة من غرائزها ، لا سيما في أمة تنسب إلى العروبة وتدين بالإسلام مثل الأمة الجزائرية »<sup>(١)</sup> .

لكن في سنة ١٩٣٧ أصبحت هذه الكلمة سهلة على كل لسان « وقد يقولها قوم ولا يفقهون معناها ، وقد يقولها آخرون بالسنتهم ، ولا يستطيعون أن يتسموا بها في المكتوب من رسمياتهم ، ويفزع منها من يتخيلون فيها ما يعرفون في وطنياتهم ، وينكرها آخرون زعماً منهم أنها ضد إنسانيتهم وعمومياتهم »<sup>(٢)</sup> أما هؤلاء الذين يفزعون منها فهم فرنسيو الجزائر الذين يرون في فكرة الوطن الجزائري نهاية لسيطرتهم في شمال القارة الإفريقية . وأما هؤلاء الذين قد ينكرونها فهم هؤلاء الذين عني بن باديس بتوجيه الكلام إليهم ، وعلى رأسهم فرحات عباس الذي أحسن الظن بفرنسا ، وظن أن مبادئ ثورتها توجب عليها أن تطبق شريعة العدل في الجزائر كعضو في الاتحاد الفرنسي . حقاً إنه رجع عن رأيه واعترف بخطئه فيما بعد ، وانضم إلى جبهة التحرير في ١٩٥٦ ، لكنه انساق في ١٩٣٦ إلى إنكار الوطن الجزائري في نص مشهور أخذه عليه خصومه . وليس رد الإمام بن باديس على فرحات عباس أقل شهرة . فقد كتب في مجلة الشهاب في عدد نوفمبر سنة ١٩٣٧<sup>(٣)</sup> بعنوان « كلمة مرة لأنها صريح الحق ولباب الواقع » : « نعرف كثيراً من أبنائنا الذين تعلموا في غير أحضاننا ينكرون ، وربما من غير سوء قصد ، تاريخنا ومقوماتنا ، ويودون لو خلعنا ذلك كله واندمجنا في غيرنا ، وكنا نرد عليهم

(١) الشهاب . الجزء السابع من المجلد الثالث عشر سبتمبر سنة ١٩٣٧ ، رجب ١٣٥٦ ص ٣٠٤ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٠٥ .

(٣) المجلد الثالث عشر ، الجزء التاسع ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ .

بالقول في كل مناسبة تبدو منهم فيها مثل هذه البوادر السامة الخاطئة ، ووقع مرة أن كتب بعضهم - وهو ممن له قيمة معتبرة عندنا ، ما هو صريح أو كالصريح في ذلك الضلال المهلك ، فزأينا من الواجب علينا أن نرد عليه : "كلمة صريحة" نعرب بها ، في يقيننا عن الحقيقة التي يعتقدها الشعب الجزائري ، إلا الشاذ في صميم نفسه ، فقلنا في كلمتنا تلك ، الأمة الجزائرية أمة متكونة موجودة كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا ، ولهذا الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال ، ولها وحدتها الدينية واللغوية ، ولها ثقافتها الخاصة وعوائدها وأخلاقها بما فيها من حسن وقبح شأن كل أمم الدنيا .

ثم إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا ، ولا يمكن أن تكون فرنسا ، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت ، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد ، في لغتها ، وفي أخلاقها ، وفي عنصرها ، وفي دينها ، ولا تريد أن تندمج . ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري بمحدوده الحالية المعروفة ، والذي يشرف على إدارته العليا السيد الوالي المعين من قبل الدولة الفرنسية .

ثم يبين لنا أنه وضّح حقيقة الأمر في الوطن الجزائري ، وأنه قطع الطريق على كل متقول بالباطل ، وأن كلمته الصريحة قد حققت غايتها ، وأنها علت في الصحافة والمجالس والمؤتمرات على كلمة الباطل التي أرادت أن تجعل الجزائر فرنسية . هذا إلى أن الفرنسيين أنفسهم أخذوا يحتجون بها لمعارضة مشروع « فيوليت » الذي لم يطالب بالحقوق السياسية إلا لنحو من خمسة وعشرين ألفاً من الجزائريين ، في حين يطالب بن باديس بالوطن الجزائري العربي المسلم لعشرة ملايين : « إن الأمة الجزائرية تطالب فرنسا بحقوقها لما دفعته من ثمن من دم أبنائها . . . وهذا حق لا يستطيع أن ينكره أحد يحترم نفسه ويقدر عواقب التاريخ قدرها . فأما أن تبذل الأمة الجزائرية في نيل تلك الحقوق شيئاً من كيانها فهذا ما لا يخطر ببالها ، ولا يستطيع أحد ممن يتولى شيئاً من أمورها من أبنائها أن يعرضه عليها ، ولو حاول أحد ذلك لنبدته نبذ النواة . . . ونحن بهذا نتحدى كل من يكون على خلاف رأينا ، فهل من أحد يستطيع أن يكذبنا ؟ »

وحقيقة ما كان أحد يستطيع تكذيب بن باديس الذي يعرف الآخرون

قدر ما بذل من نفسه وجهده في إرساء قواعد النهضة الجزائرية ، وهو وحده الذي يعلم كيف يجرؤ على أن يحشد الأمة وراءه للمطالبة بعروبيتها وإسلامها والتمسك بحقوقها . ففي الوقت الذي يحارب فيه الفرنسيون هؤلاء الذين يطالبون بتنفيذ مشروع « فيوليت » ، ويسجنون هؤلاء الذين يريدون تأسيس برلمان جزائري يشمل المسلمين والفرنسيين على السواء ويشرع القوانين للجزائر ويغلو القطر الجزائري بذلك مستقلاً في إرادته عن فرنسا ، متمتعاً بمثل نظام الدمنيون<sup>(١)</sup> نقول في ذلك الوقت يتكلم بن باديس عن ضعف حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا وتنكرها لمبادئها ، وعن تغلب الطغيان الاستعماري والجبروت المالي الاستغلالي ، والاهتمام بحالة المعمرين ، وصرف أموال باهظة لنصرة ثلاثة آلاف من كبار أثريائهم ، لكي يعلن بعد ذلك للشعب الجزائري « أنه من الواجب ألا نعتمد إلا على أنفسنا ونتوكل على الله »<sup>(٢)</sup> ثم يقول متوعداً فرنسا تلك الآية الكريمة : « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » .

ومن الحق أن يقال إنه كان أصدق حلساً وأبعد نظراً من مواطنيه الذين درجوا على أساليب السياسة التقليدية من أبناء الأمم المستعمرة ، تلك الأساليب التي لا تؤتي ثمرتها إلا في المدى البعيد ، وقد لا تؤدي إليها قط . وقد تنبأ أحد أعوان بن باديس لفرنسا بأسوأ مصير عندما قال : « نقول إنهم أخطأوا الطريق . . وإن عاقبة هذه السياسة الخرقاء لن تكون إلا وخيمة مهما اعتزوا بقوتهم واغتروا بسلطانهم »<sup>(٣)</sup> . إن هذه اللهجة لا تصدر حقيقة إلا في أمة عقدت العزم على التحرر . وهي نبرة تعلو قبيل الحرب العالمية الثانية ، وفرنسا في أوج سلطانها . وإن وراء هذه الكلمات لنهضة جزائرية لا شك في أنها كانت تنبئ بالكثير من الخير .

### ٣ - بن باديس والعمل السياسي :

لقد قاد الشيخ عبد الحميد بن باديس معركة الوطن الجزائري بمهارة بالغة ،

(١) الشهاب المجلد الثالث عشر ، الجزء التاسع نوفمبر سنة ١٩٣٧ ص ٤٢١ .

(٢) المصدر السابق نفس العدد ص ٤٠٥ .

(٣) نفس المصدر ، نفس العدد ص ٤٢٢ .



ففي سنة ١٩٣٣ وقف يتهم الوالي بالتدخل في الشؤون الدينية لمسلمي الجزائر على نحو مخالف للدين والقانون الفرنسي أيضاً ، ويصفه بالكذب، وينذره أنه لو أراد أن يدخل إلى الميدان السياسي لدخله جهراً ولضرب فيه المثل بما عرف عنه وأصحابه من الثبات والتضحية<sup>(١)</sup>، لكنه يدخل إلى هذا الميدان علانية في سنة ١٩٣٧ فيعلو صوته على أصوات السياسيين الآخرين ، ويوجه نداء إلى الأمة الجزائرية وإلى نوابها دون أن يشرك جمعية العلماء معه في هذا النداء وفاء بوعده إياهم بأنه سيتكفل بالاستعمار وحده ، ذلك أنه رأى أنه لا يجوز للأمة الجزائرية أن تتبع السياسة العتيقة ، سياسة المطالبة والانتظار ، تجاه دولة تخلف وعودها ، وتحاول تجميد القضية الجزائرية بتشكيل لجنة للدراسة لمدة عام ونصف عام . وهذا هو السبب في أنه يصدر بيانه للأمة وللسياسيين تنبيهاً للأذهان، وتوجيهاً لآراء اللجنة التنفيذية للمؤتمر الإسلامي إلى أن السياسة الوحيدة التي يرى أنها ربما أدت إلى الأثر المطلوب هي سياسة المقاومة السلبية ، ومقاطعة النواب للانتخاب، والمشاركة في النيابة البرلمانية .

وفي ندائه إلى الأمة الجزائرية ونوابها<sup>(٢)</sup> يشير إلى ضرورة اليأس من الاتفاق مع الاستعمار ، وضرورة الثقة بالنفس . لقد تجاهلت فرنسا قيمة الوطنية الجزائرية ، فما على الجزائريين إلا أن يعرفوا قيمة أنفسهم . ثم يذكر مواطنيه بموقف « دلاديه » من الوفد الجزائري في ١٩٣٦ عندما أعلن صراحة أنه يعارض كل المعارضة في إعطاء الجزائريين حق النيابة البرلمانية ما داموا متمسكين بحالتهم الشخصية الإسلامية . وكان هذا التصريح من جانب دلاديه ، وزير الحربية الفرنسي ، كافياً في أن يقطع حبل الرجاء أمام من ظل يحسن الظن بالسياسة الفرنسية ، وتأخذ بن باديس العزة الإسلامية والعربية فيقول : « حرام على عزتنا القومية وشرفنا الإسلامي أن نبقى نترامى على أبواب برلمان أمة تری ، أوترى أكثريتها ، ذلك كثيراً علينا . . . ! وسمعنا كثير منها في شخصيتنا الإسلامية ما يمس كرامتنا ويحرج أعز شيء لدينا .

(١) انظر ص ٥٩

(٢) الشهاب المجلد الثالث عشر الجزء السابع ص ٣٢٥ وما بعدها .

لندع الأمة الفرنسية ترى رأيها في برلمانها ، ولتتمسك - عن إيمان وأمل - بشخصيتنا ، ولنطالب بالمساواة التامة في جميع الحقوق في وطننا ، وأولها المساواة في المجالس النيابية .

وقد حدد بن باديس يوم ٢٩ أغسطس لبدء حركة المقاطعة ما لم ينل الجزائريون حق المساواة في المجالس النيابية بالجزائر ، ودعا جميع الأحزاب إلى تناسي الخلافات وإلى التسامى عن النزعات الشخصية . فإذا كان الجزائريون قد وقفوا صفاً واحداً إلى جانب فرنسا في أيام الحرب الأولى فلا أقل من أن يقفوا صفاً واحداً ضد المعمرين الأنانيين ، الذين يصفهم بن باديس بأنهم بمثابة الأعداء لفرنسا نفسها . ولا نستطيع أن نتطلب من الشيخ بن باديس في هذه الحقبة من الزمن أكثر مما نادى به ، ولا سيما أن زعماء الأحزاب السياسية المتنافرة ظلوا ينادون بالمساواة مع فرنسي الجزائر ، حتى وقعت مجزرة سطيف في سنة ١٩٤٥ ، فانقطع الحوار بين الجزائر وبين فرنسا ، حتى حلت المسألة الجزائرية بالسلاح ابتداء من ١٩٥٤ .

حقاً إن اللجنة التنفيذية للمؤتمر لم تسر مع نداء بن باديس حتى النهاية، بل آثرت حلاً وسطاً « إذ رأت أن انتقالها من سياسة الثقة التي أعلنتها في يوليو إلى سياسة اليأس وطلب المساواة التامة في أغسطس إنما يعد طفرة ليس من المناسب ارتكابها » ، ووضعت مقررات مسالمة رأى بن باديس أنها حل أعوج ، وأن اللجنة سترجع لا محالة إلى سياسته عندما ترى أن مطالبها لن تجاب . وتتلخص هذه المقررات في الإشارة إلى أن فرنسا لم تقم بأى إصلاح أساسى لسوء الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ومع ذلك فإن اللجنة التنفيذية تدعو المسلمين إلى الاستمرار على هدوئهم ووقوفهم موقف الكرامة ، وإن كانت قد قررت بالإجماع مبدأ استقالة سائر النواب في مجالس الجماعات، والمجالس البلدية، والمجالس العمالية، والنيابات المالية ، وحددت الموعد النهائي لتقديم الاستقالات بتاريخ ٢٠ سبتمبر . ثم سجلت بعض المطالب العاجلة التي تتلخص في تحديد الأجر الأدنى للعمال من الفلاحين بعشرين فرنكاً يومياً ، والقيام بمشروعات كبرى، وإنشاء صندوق للمتعطلين ، وإعانة للفلاحين وصغار التجار ، وحرية تعليم اللغة العربية، وإيجاد المدارس الكافية ، والحرية التامة المطلقة للوعظ والتعليم في سائر

المساجد ، وحرية الحج ، وحرية الصحافة ، والسفر : وإلغاء سائر القوانين الاستثنائية ، وإدخال أراضي الصحراء تحت السلطة الإدارية بدلا من السلطة العسكرية ، ومصادقة مجلس النواب على مشروع قانون « قبوليت بلوم » كخطوة أولى في طريق الانتخاب العام .

وهذه كلها مطالب ثانوية وجانبية لا تتناسب مع النهضة الجزائرية التي قويت شوكتها بظهور دعوة بن باديس وجمعية العلماء ، بما يفسر لنا كيف رفض عبد الحميد بن باديس أن يوافق على مقررات اللجنة التنفيذية . وكم كانت ثورة المعمرين على ندائه أكثر من انزعاجهم لهذه المطالب اليسيرة ؟ ذلك أن المبادئ التي حددها رئيس جمعية العلماء بصفته الشخصية هي تلك التي تفتح الباب أمام استقلال الجزائر فيما بعد، في حين أن إجابة مطالب المؤتمر لا تكلف فرنسا كثيراً ، ومن الممكن اصطناع الوسائل السياسية لحصرها في نطاق ضيق وشكلي . وقد تجلت ثورة المعمرين على نداء بن باديس في الصحف الفرنسية التي تصدر بالجزائر كجريدة « لا بريس » في الجزائر العاصمة ، وكجريدة « الريبو بليكان » في قسنطينة . ولما كانت هذه الجريدة الثانية أكثر صراحة في عدائها فقد خصها بن باديس بالرد الآتي في ٨ رجب سنة ١٣٥٦هـ ، ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٧ (١) :

« جناب السيد محرر جريدة الريبوبليكان المحترم

قرأت في عدد ٢ سبتمبر الجاري من جريدتكم منشورى على الأمة ونوابها ، فشكرت لكم نقله في جريدتكم ، ليطلع عليه قسم كبير من رأى العام الفرنسى ، خصوصاً القسم الذى تمثله جريدتكم .

ولم يسؤنى ما علقتم به عليه من عبارات الحقد والتحريش ، لأن ذلك دليل حصول ما قصدته من تأثير الحق والصدق فيمن لم يتعودوا مباحه من المسلمين الجزائريين أمثالكم . ولا ألوكم على ذلك ما دتم تروونه إخلاصاً لأمتكم ووطنكم ، كما كنت أنا مخلصاً في منشورى لأمتى ووطنى .

ولنما أريد أن أحقق لكم أن تحريشكم لا يخيف صغاراً من تلاميذنا ، فن



باب أخرى وأولى أن لا يكون له أدنى تأثير في كبارنا في السير على خطتنا إلى غايتنا .  
 ومما يؤسف له من أمثالكم أنكم لا تتركون تطورات الأمم وتقلبات الأيام ،  
 وتفكرون فيها — في القرن العشرين — بأفكار القرون الوسطى .  
 إن الزمان — يا زميلي ، يسير ولا يقف ، وسن الكون نافذة لا تتخلف ،  
 والويل لمن قعد أو تعامى . . . .

وتدل اللهجة الواثقة على أن شيئاً ما يتم إعداده من وراء ستار ، وأن هناك  
 خطة محكمة قد حددت في الخفاء . ولا شك في أن بن باديس كان على علم بها  
 دون أن يرد في كلامه شيء يكشف عن وجودها ، ولا عن القائمين بإعدادها ، ونجد  
 هنا وهناك بعض عبارات تشير إلى هذه الخطة في خطب بعض المقررين من بن  
 باديس . مثال ذلك ما نراه في مقال « الشمال الإفريقي » بجريدة الشهاب لأكتوبر  
 ١٩٣٧<sup>(١)</sup> من الإشارة الخفية إلى وجود تنظيم سرى في الجزائر . فقد وردت  
 فيه هذه الفقرة ذات الدلالة العظيمة التي يمكن فهمها على ضوء ما علم الناس  
 فيما بعد من أن التنظيم السري لحزب الشعب بدأ يعمل منذ سنة ١٩٣٧ . إن تلك  
 الفقرة هي : « والأمة الجزائرية ، إلى جانب هذه الحركات الاحتجاجية ، أمة  
 تريد أن تبنى ولا تريد أن تهلك وهي قادمة على أعمال البناء بجد ونشاط ، وهي  
 تضع اللبنة على اللبنة في بناء مستقبلها ، لا يضيرها من ضل إذا هي اهتدت . .  
 فالיום تبنى هذه النحلة خليتها ، وغداً سيبنى أبناء المستقبل عملها السائغ ، وليقل  
 الأضداد ما شاءوا ، وليدبر الأعداء مكائدهم كما أرادوا ، فكل ذلك زبد يذهب  
 جفاء ، ونحن نبني في الأرض ما ينفع الناس » .

وقد علمت من تلاميذ بن باديس وأصدقائه أنهم كانوا يتذاكرون معه كيف  
 يمكن خلاص الجزائر من قبضة الاستعمار . فكان يشير إلى الجبال قائلاً هناك  
 سيكون الخلاص ؛ في حين كان يقول للفرنسيين<sup>(٢)</sup> : إن الاضطراب الذي

(١) الشهاب : الجزء الثامن من المجلد الثالث عشر ص ٣٨٣ .

(٢) انظر الشهاب المجلد الثالث عشر نوفمبر ١٩٣٧ ، رمضان ١٣٥٦ ص ٣٩٨ وما بعدها مقال  
 « كلمات صريحة : الشمال الإفريقي » ، كيف يجب أن يعالج » ، ونرجح أن يكون المقال بقلم الشيخ  
 عبد الحميد بن باديس ، إذ يتكلم بضمير المفرد فيقول وأنا على يقين . . . وأعرف عن نفسي .



تشكون منه في الشمال الإفريقي لا يرجع إلى تدخل اليد الأجنبية سواء أكانت ألمانية أم إيطالية، أو إلى نشاط الحزب الشيوعي في الجزائر، وذلك لأن «الشيوعية الفرنسية - وإن أفسحت لها الواجهة الشعبية المجال - لم تستطع، ولن تستطيع أن تتمكن من أوساط شعبنا، أو تحرز أكثر مما حازته من التتراليسير جداً من أطرافه، مادام الشعب يعتقد أن مبادئها الأساسية لا يتفق كثير منها مع الإسلام»، إن هذا الاضطراب يرجع بالأحرى إلى عسف الساطات الفرنسية واستخدامها للقهر والإرهاق والقوة والشدة، ثم يتنبأ أن ذلك كله سوف يفضي يوماً ما إلى أن يفيض الكيل، فيحدث الانفجار «ولا يدري إلا الله على من تكون عواقب هذا الانفجار»، وكأنه يشير إلى أن الحكومة الفرنسية غافلة عن المصير الرهيب للاستعمار الفرنسي في الجزائر، ولا سيما بعد أن تأكدت النهضة الجزائرية واجتازت مرحلة الخطر، لأنها ليست سوى حلقة من حلقات النهضة الإسلامية العربية العامة، «فالعلاج السليم إذن لن يكون إلا تبديل السياسة العتيقة . . . البالية بسياسة جديدة تعترف لهذه الشعوب بكيانها القومي، وتفسح أمامها مجال العمل للتقدم والرقى، وتنبئها أعظم قسط من التحرير، وتشعرها بأنها تساندها لتبلغ رشدتها فتكون بدورها يوم رشدتها التام عضداً لها».

ولا ريب في أن الظروف السياسية التي أحاطت بالجزائر في تلك الآونة هي التي أملت على رئيس جمعية العلماء هذا الاتجاه. ذلك أن نجاح ثورة الجزائر بعد ذلك بنحو من ربع قرن كان معجزة بالنسبة إلى الشعوب العربية الإسلامية كلها. هذا إلى أنه ينبغي ألا نغفل عن عناصر المشكلة الجزائرية قبيل الحرب العالمية الثانية. فإلى جانب تعدد الأحزاب السياسية الجزائرية وعجزها عن المبادأة، كانت هناك طبقة الرأسمالية الفرنسية في الجزائر، ولها سلطانها الكبير في توجيه سياسة فرنسا تحقيقاً لتفوق المعمرين العنصرى على المواطنين الجزائريين، واستنزافاً لثروة الجزائر، واستدامة لعتوهم وتسلطهم، «ولا تهمهم فرنسا بقدر ما تهمهم مصالحهم. فهؤلاء قد شغلهم التفكير في وسائل الضغط والشدة ضد الجزائريين وإخوانهم عن كل تفكير، رغم مشاهدتهم لهذا الخطر (الحرب العالمية الثانية) واضطرابهم له<sup>(١)</sup>.

(١) نفس المصدر نفس العدد ص ٤٠٢ .

وقد أراد هؤلاء المعمرون أن يذلوا المسلمين وأن يذكروهم دائماً بأنهم خسروا وطنهم إلى الأبد ، رغم أن النهضة الجزائرية أصبحت أمراً واقعاً لا ينكره إلا الغافل الغاشم . فانتهزوا موعد حلول العيد المثوى لاحتلال قسنطينة، فأزمعوا أن يكون احتفالهم العسكري تذكيراً للمسلمين بأن المسألة بينهم وبين المعمرين ليست مسألة حق ، بل هي مسألة قوة . لكنهم أخفقوا في تحقيق هذا الهدف، إذ قوطع الاحتفال مقاطعة تامة ، ولم يحضره إلا الرسميون الذين يؤمرون فيطيعون . وقد نسي الفرنسيون أن احتفالاً سابقاً وهو احتفال سنة ١٩٣٠ باحتلال مدينة الجزائر كان فاتحة لنمو النهضة الجزائرية، وأن احتفال سنة ١٩٣٧ لم يزد الهوة التي تفصل بين المسلمين والفرنسيين المقيمين بالجزائر إلا عمقاً ، وأن إهانة الشعور العربي الإسلامي بطريقة منهجية مطردة كان ممهداً لحوادث ١٩٤٥ ثم للثورة الجزائرية الشاملة .

#### ٤ - مظاهر النهضة الجزائرية في رأى عبد الحميد بن باديس وتلاميذه :

١ - عيد النهضة الجزائرية والاحتفال بدار الحديث في تلمسان .  
وليس لنا ألا نعجب بتفاؤل هذا المصلح ، والتاثر بطريقته الخاصة ، وسط الاضطراب السياسى الذى سيطر على القضية الجزائرية ، فى الوقت الذى حاولت فيه السياسة الفرنسية الاستعمارية ضرب الحركة القومية الجزائرية عن طريق مشروع « قبوليت بلوم » . . . فى تلك الفترة التى تضاربت فيها آراء السياسيين الجزائريين من أنصار الاندماج ، ومن أنصار إنشاء جمهورية جزائرية فرنسية مستقلة ، بقى بن باديس شديد الإيمان بخروج فكرة الوطن الجزائرى إلى حيز الوجود ، من خلال ضباب الأحداث وتشابكها . لقد كان واضح الرؤية، فاستطاع أن يكشف عن آفاق المستقبل - نقول إنه كان يقرر أن النهضة الجزائرية حقيقة يشهد بها الواقع . وذلك ما تجده فى خطابه فى المؤتمر السنوى العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذى بدأ فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٣٧ فى نادى الترقى بالعاصمة<sup>(١)</sup>، وفيه قدم الشيخ بن باديس بعض كبار الرجال

(١) الشهاب ، الجزء الثامن من المجلد الثالث عشر . شبان ١٣٥٦ ، أكتوبر ١٩٣٧ ص ٣٤٤

الذين كان لهم أكبر الأثر في بعث النهضة الجزائرية ، ويعني الشيخ الفضيل الورتلاني والشيخ سعيد صالحى اللذين كونا نهضة علمية إسلامية بفرنسا . ثم تقدم هو بنفسه وألقى خطابه الرسمي مقترحاً أن يسمى هذا الاجتماع بعيد النهضة الجزائرية . ثم طلب إلى زميله الشيخ الطيب العقبي أن يقدم الشيخ عبد العزيز بن الشيخ الهاشمي إلى الحاضرين . وكان لهذا التقديم مغزاه العميق ، إذ هو شهادة في الواقع بانتهاء المعركة مع منادى جمعية العلماء من أتباع الطرق الصوفية . ذلك أن « الشيخ عبد العزيز كان من شيوخ الطرق . أما اليوم فيجب أن تعرفوه بأنه جندي من جنود الإصلاح ومن أعضاء جمعية العلماء » وكانت كلمة هذا الشيخ ، الذي أخذ نفسه بنشر مبادئ الجمعية ، تلخص في أنه يبدي أسفه لتأخره عن الانضواء تحت لوائها إلى هذا العهد ، ويعطى وعده لبلد كل جهد لتأييد جمعية العلماء .

ولم يكد ينتهى المؤتمر السنوى في يوم الأحد ٢١ رجب ، ٢٦ سبتمبر ١٩٣٧ حتى أخذ كثير من المجتمعين يعلنون أنفسهم للسفر إلى تلمسان لحضور الاحتفال بدار الحديث في اليوم التالى حيث كان الشيخ البشير الإبراهيمي في انتظارهم ، فافتتح الإمام بن باديس المدرسة بكلمة قصيرة تعبر عن مقومات النهضة الجزائرية وغايتها، وتنطوى على الإشارة الصريحة بزوال دولة الباطل . فقد قال : « بسم الله الرحمن الرحيم وباسم الإسلام والعروبة والعلم والفضيلة أفتتح دار الحديث ، ربنا أنزلنا منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين ، ربنا أخرجنا مخرج صدق واجعل لنا من لدنك سلطاناً نصيراً . جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » .

كذلك احتوت كلمة الشيخ الإبراهيمي ، الذى رحب بالوافدين في حفل المساء ، على شجب سياسة الحكومة الفرنسية التى تستهين بشئون المسلمين ، وتحول دون تدريس العلماء بمساجدهم ، كما أشار إلى الأمل في المستقبل ، إذ سوف يأتى يوم يحتفل المسلمون بمساجدهم وينعمون فيها بحريتهم التامة ، فما على الجزائريين سوى أن يستعدوا لهذا اليوم .

وقد كشف بن باديس في خطابه عن سياسة فرنسا في محاربة اللغة العربية والعمل على محوها ، وتجهيل الناس بحرماتهم من لسانهم ، وفي محاربة الإسلام ،



حتى ظن المستبد أنه طمس معالمه ، وانتزع عقائده من الصدور ، وجرد أهله من كريم الخلق ، «فجاء معلمو الجزائر بعد قرن من الزمان يرفعون علم التوحيد ، وينشرون من الإصلاح لواء التجديد ، ويدعون إلى الإسلام كما جاء به محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وكما يرتضيه الله: لا كما حرفة الجاهلون وشوهمه الدجالون ، ورضيه أعداؤه من المستعمرين » .

كذلك أشار إلى خطة فرنسا في محاربة العلم حتى خيل إليها أن مسلمي الجزائر رضوا بالجهالة ، وألقوا النذالة، ونسوا كل علم إلا ما يرشح به لهم ، أو يمزج بما هو أضر من الجهل عليهم ، فجاء دعاة الإسلام الصحيح ودعاة العربية يرفعون بناء شامخاً للعلم » .

وقد خاطب المجتمعين في دار الحديث فقال لهم: «أيها الاخوان ، نهضت بعد أن صهرتنا بنار الفتنة والابتلاء حوادث الزمان، . . . نعم نهضت بعد قرن بعدما متنا وأقبرنا أحيينا وبعثنا ، سنة كونية فقهناها من القرآن ونعمة ربانية تلقيناها من الملك الديان . . . نعم نهضت نهضة بنينا أركانها على الدين ، فكانت سلاماً على البشرية ، لا يخشاها ، والله ، النصراني لنصرانيته ، ولا اليهودي ليهوديته ، بل ولا المجوسي لمجوسيته ، ولكن يجب ، والله ، أن يخشاها الظالم لظلمه، والدجال لدجله ، والخائن لخيانته<sup>(١)</sup> .

العروبة والإسلام والعلم والفضيلة هذه أركان نهضتنا، وأركان جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي هي مبعث حياتنا ، ورمز نهضتنا ، فما زالت هذه الجمعية منذ كانت تفقهنا في الدين وتعلمنا اللغة ، وتبصرنا بالعلم ، وتحلينا بالأخلاق الإسلامية العالية ، وتحفظ علينا جنسيتنا وقوميتنا السامية » .

ثم يطيب له أن يذكر مسلمي الجزائر، ممثلين في هؤلاء الذين يحتفلون بافتتاح دار الحديث بتلمسان ، ورغم ما بذلت فرنسا في محاربة الإسلام والعروبة ، بأن نهضة الجزائر الحديثة قد ارتبطت بنشأة جمعية العلماء المسلمين ، فهي التي أيقظت الأمة من سباتها ، وعرفت بتاريخها ، وأزالت الغشاوة عن أبصارها ، ودفعتها إلى التقدم في جميع نواحي الحياة . وهذا هو السبب في شدة كراهية

(١) يشير هنا إلى المستعمر وأعوانه من الطريقة والعلماء الخائنين .



أعوان الباطل لها ، وحرصهم على بذل كل جهد لكم أصوات علمائها .  
 لقد حاول الباطل وأعوانه أن يفرقوا هذه الأمة في هذه الحقبة الخطيرة  
 من التاريخ الجزائري ، لكن « هدأ الله ، والحمد لله ، ركنهم المنهار ، . . وصبرهم  
 أقل من أن يعتنى بهم ، وأحقر من أن يضيع الوقت في الحديث عنهم » . ثم يعلو  
 بن باديس على تضارب الآراء بين الأحزاب السياسية الجزائرية ، ليؤكد « أن  
 الجمعية لا توالى حزباً من الأحزاب ولا تعادى حزباً منها ، وإنما تنصر الحق  
 والعدل والخير من أى ناحية كان ، وتقاوم الباطل والظلم والشر من أى جهة أتى ،  
 محتفظة في ذلك كله بشخصيتها ومبادئها ، محترمة في جميع مواقفها ، مقدرة  
 للظروف والأحوال بمقاديرها » .

وتكشف لنا هذه الفقرة الأخيرة من خطابه عن أن بن باديس لم ينس مطلقاً  
 الهدف الذى حددده بنفسه لإحياء الروح الجزائرية ، وأنه كان رجل سياسة  
 من طراز فريد في هذه الفترة الحرجة من تاريخ وطنه ؛ وأنه كان أكثر واقعية  
 وأصدق حدساً ممن أسهموا في تخطيط السياسة الجزائرية في عصره .

لقد تغيرت أحوال الجزائر وذهب قوم وجاء آخرون ، لكن مبادئ بن باديس  
 ما زالت تسرى في نفوس العامة والخاصة ، فقد فشلت سياسة مهادنة المستعمر ،  
 أى السياسة المرحلية ، كما أخفقت سياسة الشعارات البراقة والآراء الدخيلة التى  
 امتزجت بها ، وبقيت الدعامتان اللتان بنى عليهما بن باديس النهضة الجزائرية  
 المعاصرة . وإن من يقرأ ماجاء في خطاب الرئيس هواري بومدين عند زيارته  
 للقاهرة في خريف ١٩٦٦ ليعلم جيداً كيف ظل الإسلام والعروبة أساساً للقومية  
 الجزائرية ، وذلك شىء طبعى ؛ إذ لا يمكن أن تتحقق نهضة ما إلا إذا جمعت  
 بين خير عناصر الماضى والحاضر حتى تشق طريقها إلى مستقبل أفضل .

ومهما يكن من شىء ، فقد نفخ بن باديس في روح مواطنيه الشعور بالكرامة  
 فأطلق لسانهم بعد طول حبسة ، وأتاح لهم أن يتقدوا دولة الباطل في جراحة نادرة  
 بعد سنوات قليلة من بدء حركته ، إذ نرى ، في خلال الاحتفال بافتتاح دار  
 الحديث بتامسان ، أى بعد مضي ست سنوات فقط من إنشاء جمعية العلماء  
 المسلمين من يقول عن هذا الاحتفال : « إنه قد تجلت فيه الروح الإسلامية

الكامنة في نفوس أبناء هذا الشعب الكريم .. وحسبه أنه كان مظهراً عظيماً كشف به جانب القومية العربية الإسلامية القوية الخالدة ، وحسبه أنه أرغم أنوفاً، وطأطأ رءوساً، وخفض جباهاً طالما تشاхت احتقاراً وترفعت كبراً ، أو تقطبت ظلماً وعتوً، وحسبه أنه فتح عيوناً ، ونبه عقولا ، وفتح قلوباً كانت عمياء لم تبصر الطريق ، وذاهلة لم تترك الدليل ، وبليدة لم تفقه الحكمة ، وحسبه أنه أفحم الجاحد ، وأرغم المعاند ، وهزم المستبد وأذل الظالم (١).

وكيف لا تنطلق الألسنة من عقالها، وكيف لا يجرؤ أتباع بن باديس على مهاجمة الفرنسيين علانية ، إذا كان رئيسهم قد نوى أهل قسنطينة عن الاشتراك في الاحتفال المئوي لاحتلال مدينتهم في سنة ١٩٣٧ فامثلوا لنهيه جميعاً (٢) ، فهو قائد هذه الأمة الذي حدد صفاته أحد الكتاب فقال (٣) : « إن الصفات التي يجب أن تتوفر في القائد من أعز الصفات وأندرهما ، تتطلب منه فهماً لنفسية الأمة ودرسا عميقاً لجميع أحوالها ، وإخلاصاً لها يزاحم إخلاصه لنفسه ولأهله وأقربائه . . . وإن أمة لها مقوماتها من دين ولغة وثقافة وتاريخ أمة غير ميثوس من استرجاع مكانتها . . . تذكر ماضيها فتعمل لمستقبلها ، وتعلم دينها ولغتها فيتعذر على المستعبد ابتلاعها . . . ولقد حدثنا التاريخ أن الأمم تأتي أن تسلم قيادها لمن لا يحافظ على دينها ولغتها » .

والحق أن بن باديس صهر النفوس ، وأعاد تكوينها ، مما أدى إلى خلق جو فكري إيجابي في فترة قصيرة من الزمن ، وهو الجو الذي بدأ يتنفس فيه كتاب الجزائر مبادئ النهضة ، فتصوغها ألسنتهم في سر بالغ تكشف عنه عبارة كاتب آخر يقول : « ليست هذه النهضة أوهاته الحركات مجرد شيء ظاهري أو خيالي يذهب بذهاب وقته ، وإنما هي عقيدة رسخت في القلوب ، وثبتت في العقول

(١) نفس المصدر ، نفس العدد ص ٣٤٩ .

(٢) أصدر عبد الحميد بن باديس هذا المنشور في ٢٣ رجب سنة ١٣٥٦ ، ١٩٣٧/٩/٢٨ أي في فترة الاحتفال بافتتاح دار الحديث - انظر نص هذا المنشور في الجزء التاسع من المجلد الثالث عشر من مجلة الشهاب ص ٤٢٧ وما بعدها .

(٣) مجلة الشهاب الجزء التاسع من المجلد الثالث عشر نوفمبر ١٩٣٧ .

وجرت في الدم من الإنسان ، لا تزول إلا بزوال الروح والجسد ، وليست هاته النهضة الطيبة مبنية على الجحول ، والذهاب مع التيار ، كما يتوهمها كثير من المبطلين . لا ، وإنما هي مبنية على العلم والمعرفة والدراية التامة والنظام الكامل والتضحية والإخلاص والشعور بالواجب الديني والقوى والوطني . . . . وبعد هذا فالأمة على استعداد لقبول الحركات النافعة . . . ولقد ، والله ، كذبت الأمة المستعمرين الذين ظنوا أن هاته الأمة ستبقى بقرة حلوباً تدر عليهم الألبان على مدى العصور . . وسفهت اعتقاد الدجالين والمشعوذين الذين اعتقدوا أن هاته الأمة ستظل تائهة في بحر الأوهام » (١) .

لقد تحول التفكير الجزائري تحولاً عميقاً واتضحت المفاهيم الدينية بعد القضاء على ضروب الشعوذة ، فأصبح الجزائريون المثقفون يرون أن الإسلام ليس هو تلك الخرافات والأوهام التي كان يعتنقها مشايخ الطرق وأتباعهم . وقد ذكر أحدهم أنه كثيراً ما كان يتبرأ أمام الأجانب من الإسلام ، ويود أن لو كان غير مسلم بهذه الصفة ، لكنه يحمد الله أن عرف الإسلام الطاهر مما ألصق به ، وصار يناقش كبار العلماء الأجانب ويبين لهم محاسنه ، ويقول على بن أحمد بن مرحوم : « وكثيراً ما وجدنا هذا النوع من الشباب المتفرغ فيصرحون مثل هذا التصريح ، وكلهم عرفوا الحقيقة وتمسكوا بها ، واعترفوا بأن أصل هذه النهضة العملية والحركة الإصلاحية الموجودة إنما هو من ثمرات أعمال جمعية العلماء » .

وحقيقة فشلت سياسة فرنسا قبيل الحرب العالمية الثانية أمام عزيمة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلى رأسها عبد الحميد بن باديس الذي بدأ وحده يناهض فرنسا ، ثم انتهى في سنة ١٩٣٨ بأن جمع الأمة كلها حوله بما فيها نوابها الذين أدركوا ، بسبب هذه النهضة الوطنية العارمة ، أن الولاء الأول إنما ينبغي أن يكون للجزائر ، في حين أن كثيراً من هؤلاء كان أداة طيعة في يد السلطات الفرنسية منذ سنوات قليلة . ويكشف عن هذا التحول الكبير ما نجده من مطالبة القسم العربي لمجالس النيابات المالية في الجزائر في سنة ١٩٣٨ بضرورة

(١) نفس العدد ، من كلام على بن أحمد مرحوم ص ٤١٢ ، ٤١٣ .

العناية بالتعليم العربي ، « بعد أن تبين لجميع سكان الجزائر سواء كانوا من المستعمرين أم من الأهالي ، أن المسألة ليست مسألة مهيجين يرأسهم عبد الحميد بن باديس ، يريدون أن يهوشوا على الحكومة ، وأن يهولوا الأمر على الناس في شأن تحطيم التعليم الحر . . . وإذا فالمسألة ليست مسألة خاصة بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين . . بل مسألة الأمة الإسلامية الجزائرية عامة » (١) .

لذلك هاجم النواب المسلمون قرار شوطان الذي قضى بأن تكون اللغة العربية لغة أجنبية ، ذلك أن ضرورة التعليم العربي في الجزائر لا يمكن أن توضع موضع الجدل ؛ إنه هو السبيل إلى معرفة الجزائريين بدينهم مما يوجب كل التسامح في منح الرخص لفتح المدارس الحرة لتعليم اللغة العربية والدين الإسلامي . وهكذا أظهر النواب بمطالبهم للإدارة الفرنسية وللعالَم أجمع « أن مسألة اللغة العربية والتعليم الديني بالتقدير الجزائري ليست مسألة حزب خاص أو جمعية معينة . . بل هي مسألة الأمة جمعاء . . تختلف في كل شيء وتتفق فيها » .



## الفصل الرابع

### فلسفة الإمام بن باديس

#### ١ - النظرية والتطبيق :

لم ينشئ الإمام بن باديس مذهباً فلسفياً على نحو ما تعلمه من المذاهب الفلسفية لدى اليونان أو المسلمين أو فلاسفة العصر الحديث . والحق أن فكرة المذهب الفلسفي كانت أبعد شئ عن خاطره . فهو لم يرد قط أن يشيد بناءً فكرياً يرتكز على عدد قليل أو كثير من الفروض الفلسفية التي قد تتجانس أو تتنافر فيما بينها إلى حد كبير أو قليل ؛ بل زاوج بين النظرية والتطبيق على نحو لم نشهده لدى كبار الفلاسفة في العصر القديم أو الحديث . ولا تريد بذلك أن نعلو به على الفلاسفة ، ولكن نريد أن نحدد له مكاناً خاصاً فريداً بينهم . وفي اعتقادنا أن مزاجته بين النظرية والتطبيق هي التي حققت له آماله في إحياء الأمة الجزائرية . وربما كانت تلك غاية لم يدركها كثير من أصحاب المذاهب الفلسفية لدى اليونان والمسلمين والمحدثين . وقد بدأ هذا المفكر فلسفته النظرية والعملية بمحاولة إحياء القرآن في قلوب مسلمي الجزائر ، حتى يبعثهم إلى الحياة بدورهم . وكان هذا الإحياء للقرآن عن طريق تفسيره وفقاً لمنهج السلف ، ومعنى ذلك أنه أراد تطهير العقائد من الأوهام والأباطيل التي شوهتها ، فجعلت الدين يبدو في نظر كثير من المؤمنين به كما لو كان مضاداً للعقل ، كما ثبتت مفاهيم دينية خاطئة ، وانتوت بتفتيت الأمة ، وكادت تفضي على مقوماتها الأساسية . ولئن أردنا أن نكون لأنفسنا فكرة عن فلسفة بن باديس ، النظرية والعملية في آن واحد ، فلن نجد خطوطها الرئيسية إلا بعد إمعان النظر في تفسيره للقرآن ، وفي وطنيته ، ومحاربته للطرق الصوفية ، وفي سلوكه الشخصي . وهكذا نرى كيف تتجمع عناصر هذه الفلسفة الإيجابية المثمرة .

ويخبرنا بن باديس أنه كان متبرماً بأساليب المفسرين لما يخطونه من تأويلات جدلية مذهبية في كلام الله ، حتى ضاق صدره بسبب هذا الخلاف فيما لا اختلاف فيه ، ويعترف فيقول : « وكانت على ذهني غشاوة من التقليد واحترام

آراء الرجال حتى في دين الله وكتاب الله . فذاكرت يوماً الشيخ النخلى فيما أجده في نفسي من التبرم والقلق ، فقال لي : اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة وهذه الأقوال المختلفة وهذه الآراء المضطربة ليسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح . فوالله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة عن ذهني آفاقاً واسعة لا عيبد لي بها<sup>(١)</sup> .

وقد اهتدى إلى القاعدة الآتية ، وهي أنه متى دعانا داع إلى الله فلننظر هل يدعونا إليه بالقرآن والسنة أم بشيء آخر ؟ فإذا كانت دعوته بالقرآن وبالسنة فعلياً أن نتبعه « لأنه هو المتبع للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في دعوته وجهاده بالقرآن » وتلك هي طريقة السلف ، وهي الطريقة التي ارتضاها بن باديس لفلسفته ، ووصفها بأنها نعمة عظيمة من الله يجب « شكرها بالقول والعمل والإخلاص والثبات واليقين »<sup>(٢)</sup> ، كما وصفها بأنها جهاد في سبيل الله . وقد رزقه الله الإخلاص في القول والعمل ، وهياً له الثبات واليقين حتى أتم تفسير القرآن على الطريقة السلفية بعد فترة استمرت خمساً وعشرين سنة ، فاحتفلت الجزائر بختمه لتفسير القرآن احتفالاً قومياً في قسنطينة في ١٣ ربيع الثاني من عام ١٣٥٧ هـ ورأوا في إحياء القرآن على طريقة السلف إحياء للأمة التي تدين به . وقد قبل بن باديس ألا يحتفى به أصحابه إلا بعد أن يفرغ من تفسير القرآن ، وكان ذلك قبل الختم بعشر سنوات . وإنما قبل أن يكرم لأنه يرى في هذا التفسير تنويعاً لعمله وصورة كاملة لمجهوداته ، زيادة على ما خرج للجزائر من رجال . ويقول الشيخ الإبراهيمي إن بن باديس « كان معاق البال بهذا العمل ويخشى أن تقطعه قواطع الدهر »<sup>(٣)</sup> .

وقد أدرك المحتفلون به ، كما أدركت الأمة الجزائرية كلها ، أن بن باديس برهن بطريقة نظرية وعملية استخرقت منه ربع قرن على كذب المستشرقين الذين زعموا أن القرآن هو الذي قعد بالمسلمين عن مجارة الأمم الحية في هذا العصر ، وأنه هو الذي لا يزال يبعدهم عن الاقتباس من المدنية الغربية القائمة ، وينفرهم من غيرهم . « ولو عقلوا وفكروا قليلاً لعلموا أن القرآن ألف بين شعوب كثيرة

(١) مجلة الشباب ج ٣ مجلد ١٤ ص ٢٨٩ و ٢٩٠ (يونيو ويوليو سنة ١٩٣٨) .

(٢) تفسير بن باديس ص ٢٥٣ .

(٣) مجلة الشباب ج ٤ م ١٤ ص ١٥٣ و ١٧٧ (١٩٣٨) .

متباغضة متضاربة ، فأصبحت متحالفة متآخية تعمل على نشر العدل والأنخوة والسلام<sup>(١)</sup>. ولعلموا أن هذا العمل المخلص الدؤوب هو الذى أحيا الروح الجزائرية العربية الإسلامية ، وأعلمها للخلاص من الاستعمار بعد سنوات قليلة من وفاة بن باديس .

والحق أن بن باديس تبع فى سلوكه العمل الوطنى والسياسى مسلكاً إسلامياً خالصاً ، فهو يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، يابن بالقرآن ، ويشدد بالقرآن ، يخالق الناس بالخلق الحسن ، وقد تفرع إلى ذلك كله بأخلاق القرآن من صبر وثبات وعزم وإخلاص وإقدام وإيمان قوى وعمل متواصل ونفس كبيرة ترى الحق فوق كل شيء ، ولا ترى الباطل شيئاً<sup>(٢)</sup>.

وهذا هو ما انتهى بكثير من الجزائريين إلى فهم حقيقة دينهم الذى جاء يزوع الخير بين جميع أفراد البشر ، وينشر فيهم المحبة ، ولا يدعو أتباعه إلى الإضرار بأحد ، ولا إلى إذلاله إذا مكثتهم القدرة على ذلك ، بل هم يعاملون الناس كلهم بالإحسان ، ولا يبغضون أحداً لشخصه أو لجنسه ، بل يبغضون الشر من أى ناحية جاء ، ويمقتون الظلم من أين هبت ريحه ، وهم يحترمون المخالف لهم فى دينهم ما احترمهم ، ويقدرّون شعوره ما قدر شعورهم ، ويأخذون كل نافع عند الأمم مع الاحتفاظ بمقوماتهم<sup>(٣)</sup> .

ولم ينس بن باديس أن يذكر الأمة الجزائرية ، حين احتفلت ببختمه لتفسير القرآن فى سنة ١٩٣٨ ، بهذه الحقيقة ، وهى أنه لم يعمل يوماً ما ، علم الله ، لإرضائها لذاتها ، وإنما عمل ، وما زال يعمل ، لإرضاء الله بخدمته دينها ولغتها . وإذا كان الله قد سدد هذه الأمة فى الفهم ، وأرشدّها إلى صواب الرأى ، فتبينت قصده على وجهه ، وأعماله على حقيقتها ، فذلك فضل من الله عليها وعليه ، فالرجل لا يريد أن ينسب إلى نفسه فضلاً ، بل « ... الفضل أولاً وأخيراً لله وكتابه الذى هداه إلى فهمه ، والتفقه فى أسرارهِ ، والتأدب بآرائهِ . وإن القرآن الذى كوّن

(١) نفس المصدر نفس العدد ص ٢١٧ - ٢٢٤ .

(٢) نفس العدد ص ٢٣٢ من خطبة الأستاذ البشير الدينى .

(٣) نفس العدد ص ٢٤٤ .



رجال السلف لا يكثر عليه أن يكون رجالاً في الحلف ، لو أحسن فهمه وتدبره ،  
وحملنا على منهاجه » (١) .

وقد طبق الإمام بن باديس فلسفته القرآنية في مجالات عديدة ومتنوعة جمعت  
بين الأخلاق وربط العلم بالدين ، وتطهير العقائد من الخرافات والأوهام ،  
وتحديد فكرة السببية والقضاء والقدر ، ومنفرد لهذه المسألة الأخيرة فصلاً خاصاً نعقد  
فيه مقارنة بين بن باديس وكل من الماتريلى وابن رشد .

## ٢ - بعض نظرات له في الأخلاق :

أما من جهة الأخلاق فقد أحيا للجزائريين أخلاقهم الإسلامية ، واستنبطها  
من القرآن الكريم ، وعالج بها آفاتهم العائلية والاجتماعية ، وأصلح بها نفوسهم .  
وإذا نحن تتبعنا تفسيره لآيات الأخلاق في القرآن وجدنا مذهباً متكاملًا لا يعالج فيه  
الأخلاق من الوجهة النظرية والفردية فحسب ، بل يعالجها قبل كل شيء على  
أساس ديني واجتماعي واقعي . وليس من هدفنا أن نرسم صورة كاملة لمذهبه النظرى  
والتطبيقى فى الأخلاق وذلك لضيق كثير من تفسيره ، ولأن المجال المخصص  
لهذه الدراسة هنا لا يتيح لنا كل التفصيل الذى كنا نرجوه . لكن يكفى أن  
نشير إلى بعض أمثلة قليلة تكشف لنا عن الروح الذى سيطرت على اتجاهه فى  
دراسة الأخلاق . فى علاجه لموضوع البر بالوالدين ، نجده يبين لنا أن إحسان  
الإنسان إلى والديه والعناية بهما ليسا فى الحقيقة إلا جزاء وشكراً على إحسان البدء ،  
والفضل من جانب الوالدين . ولذا فقد عنى القرآن بتأكيد هذا الواجب الأخلاقى  
الذى يقتضيه الذوق والعقل ، فما جزاء الإحسان إلا الإحسان ، ويستلهم بن باديس  
القرآن أيضاً فى إيجاب البر للوالدين ولو كانا كافرين ، وفى جعل جانب الأم أكد  
من جانب الأب ، وحظها فى البر أوفر من حظها .

ونظراته الأخلاقية الصادقة ، التى أجاد استنباطها من القرآن ، هى فى اعتقادى  
أفضل مما قرره أمثال سقراط أو أفلاطون أو أرسطو وغيرهم من القدماء والمحدثين .



فهو يبين لنا في كل يسر ، ودون جهاز معقد من المصطلحات الفلسفية ، أن الدين والأخلاق يوجبان على المرء أن يعنى بإصلاح نفسه أكثر من أن يعنى بجسمه ، ومن قبل قال سقراط<sup>(١)</sup> إن حقيقة الإنسان هي نفسه ، وإن من يعنى بجسمه إنما يعنى بشيء يخصه ، وأما من يعنى بماله فهو يعنى بشيء أبعد مما يخصه . أما بن باديس فيرى أن المكلف المخاطب من الإنسان هو نفسه ، وما البدن إلا آلة لها ومظهر تصرفاتها ، وأن صلاح الإنسان وفساده إنما يقاسان بصلاح نفسه وفسادها وما فلاحه إلا بزكائها ، وما نجته إلا بخبثها . قال تعالى : « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها »<sup>(٢)</sup> ، ومع ذلك ، فإنه يؤكد ضرورة العناية بالجسم ، حتى يحدث التكافؤ بينه وبين النفس ، وهذا أمر يتسق مع ما يقرره الإسلام من ضرورة الجمع بين الدين والدنيا .

ثم نجد بن باديس يربط صلاح الفرد بصلاح المجتمع لتحقيق ما جاء به الدين ، من أن إصلاح النفوس إنما يكون بالتزام شريعة الحق والخير والعدل ، والكف عن الباطل والشر والظلم والسوء . وخير علاج لإصلاح النفوس وتحقيق الخير للفرد والمجتمع يكون بالرجوع إلى الله دائماً لطلب التوبة والمغفرة . والإسلام دين تفاؤل ومستقبل . فليس للمرء أن يقنط من رحمة الله ، وليس له أن يستمع إلى هؤلاء الذين يحاولون بذر القنوط في نفسه باليأس من رحمة الله ، وإنما ينبغي له أن يعود إلى القرآن الذي يؤكد أن الله تواب رحيم ، وأنه كثير المغفرة لعباده الذين ليسوا بمعصومين من الخطأ . ذلك أن فطرة الإنسان وطبيعة الحياة الاجتماعية ومخالطة قرناء السوء ، عن قصد أو غير قصد ، تدفع المرء بلرجات متفاوتة نحو الزلل . ولما كان التعرض للخطأ متكرراً وجبت المداومة على إصلاح النفس من فسادها . والله لم يجعل دينه عسراً بل يسره للناس ، وجعل جهادهم لنفوسهم أعظم الجهاد . فالتوبة إلى الله طهارة للنفس من دن المعاصي ، والله تعالى يقول : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » ، وهنا نلمح كيف استطاع عبد الحميد بن باديس أن يشيع روح الأمل في مواطنه حتى يعودوا إلى الطريق السوي ، وحتى يحرروا أرواحهم من استبداد

(١) انظر كتابنا في النفس والعقل لفلسفة الإغريق والإسلام - الفصل الأول .

(٢) انظر كتاب التفسير ص ٩٦ .

مدعى التصوف ، وأجسامهم من الاستبداد الاستعماري ، أى من الباطل وأعوانه .  
ومسلك بن باديس فى الربط بين الدين والأخلاق هو المسلك العملى والواقعى .  
ومن قبل حاولت المدرسة الفرنسية فى علم الاجتماع فى أواخر القرن الماضى والنصف  
الأول من القرن الحالى أن تقيم الأخلاق على أساس من معرفة القوانين الاجتماعية ،  
وأن تفصلها عن الدين . غير أن هذه المحاولة التى حددتها لنا ليثى بريل فى كتابه  
« الأخلاق وعلم العادات الاجتماعية »<sup>(١)</sup> باءت بالفشل ، ويبقى من الثابت دائماً  
أن الدين والخلق أمران لا ينفصلان .

غير أن بن باديس لا يغض من شأن العلم ، لأنه يرى فيه سبيلاً إلى إحكام  
الربط بين الدين والأخلاق . فالعلم الصحيح والخلق المتين أصلان يبنى عليهما  
كمال الإنسان « وسلوك الإنسان فى الحياة مرتبط بتفكيره ارتباطاً وثيقاً يستقيم  
باستقامته ، ويعوج باعوجاجه ؛ لأن أفعاله ناشئة عن اعتقاداته . . واعتقاداته  
ثمرة إدراكه الحاصل عن تفكيره ونظره »<sup>(٢)</sup> . والعلم الصحيح هو الذى يبصر  
المرء بعيوبه وضروب نقصه . والعجب بالنفس عمى عن نقائص النفس للفضائل ،  
وكل ذلك مصدر لضروب الشر ، فى حين أن العلم الحقيقى هو الذى يدعو صاحبه  
إلى التواضع ، ويشعره بأنه مهما بلغ من البحث والنظر والتحليل والكشف عن  
الحقائق الكونية فإن ما يكشف عنه ليس إلا قليلاً بجانب ما لم يكشف عنه .  
ويسير الإمام بن باديس على نهج القرآن فى الربط بين العقل والدين ،  
فبين لنا<sup>(٣)</sup> أن الرذائل أو أمراض الأرواح على نوعين ، مرض العقول ، ومرض النفوس ،  
« فالأول يجمود النظر ، وفساد الإدراك وتقليد الآباء ، واعتقاد الباطل والشك فى الحق ،  
والثانى بفساد الأخلاق . . أما الأعمال فهى تابعة لهما ، فتصلح بصلاحيهما وتفسد  
بفسادهما . والقرآن قد جاء داعياً إلى النظر والتفكير والاعتبار . . ناعياً على  
المقلدين تقليدهم ، كاشفاً لأهل الباطل عن باطلهم وجاء أيضاً مبيناً  
للأخلاق الفاسدة . . . مبيناً كذلك الأخلاق الصحيحة وعظيم نفعها . . .  
فهذا شفاؤه للنفوس والعقول » ، فهو دين العقل والفطرة ، وهما المعيار الذى يجب

(١) لقد ترجمنا هذا الكتاب إلى اللغة العربية وعلقنا عليه - نشرته دار عيسى البابى الحلبي بالقاهرة .

(٢) التفسير ص ١٨٧ .

(٣) التفسير ص ١٣٢ .

أن يعرض عليه كل شيء حتى نتخلص من الأهواء والشبهات ، « وتجد القرآن العظيم يخاطب العقل والفطرة ليعلمنا الرجوع إليهما والاستفادة منهما » (١) .

وقد نبه بن باديس مواطنيه إلى أحد المبادئ الأخلاقية الكبرى في الإسلام ، وهو مبدأ الإيثار ، الذي بنى عليه أوجست كونت مذهب في الاجتماع والأخلاق . لكن بن باديس لم يستنبطه إلا من القرآن الكريم في قوله تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً » الآية . فالحقوق التي قررها الإسلام في هذه الآيات الكريمة كفيّة بقاء الحياة الاجتماعية واطراد نظامها « فقيام كل واحد من أفراد المجتمع بما عليه من حقوق نحو غيره هو الذي يسد تلك الحاجة المشتركة بين الناس ، وعندما يؤدي كل واحد حق غيره فليست خدمته له وحده ، بل هي خدمة للمجتمع كله ، وبالأحرى هي خدمة له في نفسه (٢) » ، أما إهمال هذه الحقوق فهو الذي قاد المجتمع الإسلامي إلى الانحلال والتقهقر . وطريق الإصلاح هو أن يعتمد الناس على عقولهم لكي يتجنبوا ما هم فيه من شر ، وقد وهبهم الله الدين والعقل (٣) .

### ٣ - ربطه العلم بالدين :

ولما كان الدين يدعو العقل إلى البحث ، فمن واجب العقل أن ينسق معلوماته ويصحح إدراكه لحقائقها ونسبها ، حتى تكثر اكتشافاته في عالمي المحسوس والمعقول . وقد سلك العرب هذه السبيل فازدهرت حضارتهم ، وأدوا لنوع الإنسان بالعلم والمدنية أعظم خدمة تؤديها له أمة . وقد ترجم الغرب كتب المسلمين واتخذها أساساً لنهضته العلمية الحديثة . ويعترف بن باديس أن مكتشفات الغرب أكثر من مكتشفات من تقدمه . ويفسر ذلك تفسيراً علمياً دقيقاً بتكاثر الحقائق المكتشفة جيلاً بعد جيل « فإن المكتشفات تضم إلى المعلومات فتكثر المعلومات ، فيكثر ما يعقبها من المكتشفات على كثرة نسبتها وهكذا يكون كل قرن — مادام التفكير

(١) التفسير ص ٣٨٥ . (٢) التفسير ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٣) مجلة الشباب ج ٤ م ١٤ يولية ويولية ١٩٣٨ .



عمالا - أكثر معلومات ومكتشفات من الذى قبله « (١) .

أما المسلمون فقد كثرت معاوماتهم في أيام حضاراتهم ، لكنهم أهملوا النظر فيها فبقى مجتمعهم جامداً ، ثم ما لبثت أن تجمدت هذه المعلومات وأخذت تقل وتضمحل « لأن المعلومات إذا لم تتعاهد بالنظر زالت من الحافظة شيئاً فشيئاً . . . وهذا هو طور انحطاط الأمم الانحطاط التام ، وذلك عندما يرتفع منها العلم ، ويفشو الجهل ، وتنتشر فيها الفوضى بأنواعها ، فتتخذ رؤساء جهالا لأمر دينها وأمور دنياها ، فيقودونها بغير علم ، فيضلون ويضلون . . . ويفسدون ولا يصلحون وما أكثر هذا ، على أخذه في الزوال بإذن الله ، في أمم الشرق والإسلام اليوم » (٢) .

لكن يجب الاعتراف دائماً بأن العلم هو وحده الإمام المتبع في الحياة ، في الأقوال والأفعال والاعتقادات . وهذا أصل إسلامي عظيم يجب التمسك به حتى تكون عقائدنا حقاً ، وأقوالنا صدقاً وأفعالنا سداداً ، « ولعمر الله إنه ما دخل الضلال في عقائد الناس ، ولا جرى الباطل والزور على ألسنتهم ، ولا كان الفساد والشر في أفعالهم إلا بإهمالهم أو تساهلهم في هذا الأصل العظيم » (٣) .

وترك هذا الأصل في الدين هو الذى أدى إلى التقليد في العقائد والفروع ، وأحياناً على غير بصيرة وفهم . وعلاج ذلك أمر يسير . ذلك أن أدلة العقائد توجد في القرآن واضحة سهلة . أما فيما يتعلق بالأحكام فأصولها مذكورة كلها في هذا الكتاب الكريم ، والسنة حوت تفاصيلها . ولذا يوجب عبد الحميد بن باديس أن يرجع الناس عامتهم وخاصتهم في أدلة العقائد إلى القرآن : « أما الإعراض عن أدلة القرآن والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية فإنه من الهجر لكتاب الله وتصعيب طريق العلم إلى عبادته ، وهم في أشد الحاجة إليه ، وقد كان من نتيجة هدمها ما نراه اليوم في عامة المسلمين من الجهل بعقائد الإسلام وحقائقه . . . » ، ومن قبل فطن الإمام الغزالي والإمام ابن رشد إلى ضرر طرق علماء التوحيد وعدم جلوسها ، بل إثارتها للشك في العقائد الواضحة . ولن يصل مرشد إلى

(١) التفسير ١٣١ ، ١٣٢ .

(٢) التفسير ١٣٢

(٣) التفسير ص ١٣٤ - ١٣٥ .

(٤) التفسير ١٣٦



تثبيت العقيدة إلا إذا استعان بأدلة القرآن ، ولن يفلح المسلمون عقيدة وعملا إلا إذا رجعوا إلى الكتاب والسنة ، وهما أصل دينهم .

ولا ريب في أن الإمام بن باديس أدرك ما جره علماء الكلام من فتن وشغب وفصم لعقلية المسلمين بسبب أسلوبهم في الجدل والمناظرة ، حتى انتهوا إلى تكفير بعضهم بعضاً ، مما يزيد الخلاف شدة ، ويورث البغض والشر . وهكذا ادعت كل طائفة من أهل الجدل أو الفرق أنها الفرقة الناجية ، واحتكرت لنفسها الإيمان ، وقطعت بفسق أو كفر ما عداها من الطوائف . ولم يتح لأهل الجدل السيطرة على مفاهيم العامة إلا بسبب هجر المسلمين لتلاوة القرآن وتلبره ، وفيه قضاء على الرّيب والفتن « فكان سبباً في خروجهم عن الحنيفة السمحاء إلى الغلو والتنطع ، وعن السنة البيضاء إلى البدع ، ثم زحف النسك الأعجمي والتخيل الفلسفي فابتعد الناس غاية البعد عن روح الإسلام . . . وآل الحال بهم إلى الخروج عن أثقال أغلالها والاقتصار على بقية رسوبها للانتفاع منها ، ومعارضة هداية القرآن بها » (١) .

ومن هجر القرآن ما نراه من أساتذة الجامعات الدينية عندما يتخذون تفسير القرآن وسيلة إلى المباحكات اللفظية واللغوية « كأن التفسير إنما يقرأ لتطبيق القواعد الآلية لفهم الشرائع والأحكام الإلهية » (٢) ، وقد ساعدت الطرق الصوفية في صرف الناس عن القرآن ، بما وضعت لهم من أوراد وأذكار نسبوا إليها من التأثير والبركة أضعاف ما نسبوا إلى آيات القرآن ، بل ذهبت إحدى الطرق الصوفية إلى ادعاء أن إحدى صلواتها ، وتسمى صلاة الفاتح ، من كلام الله القديم ، كأنما كان القرآن ناقصاً فجاءت هي لتكمله . وقد شغل بن باديس نفسه بمحاربة الطريقة في الجزائر حتى يعود بالمسلمين إلى الكتاب والسنة . والذي نعلمه نحن أن كثيراً من الطريقة في الجزائر انتهوا بأن انضموا إلى صفوف الشعب ، وأعدوا جيل الثورة مع بن باديس وزهلائه وتلاميذه .

#### ٤ - موقفه من الصوفية :

ولا كان بن باديس يربط دائماً بين الدين والأخلاق والعقل ، ويرى أن

(١) التفسير ٢٣٢ .

(٢) التفسير ص ٢٣٢ .

قدرة المسلمين إنما تكون بالجمع بين العقائد الواضحة والأخلاق الطيبة والعلم ، فإنه لم يتخرج من أن يقاوم الطرق الصوفية في الجزائر ، وما زاده حدة في مقاومتها ورغبة في القضاء عليها ما رآه من تحالفها مع المستعمر منذ حركة الأمير عبد القادر حتى مطلع فجر النهضة الجزائرية الحديثة . ويفسر لنا ذلك عنفه في إسقاطها ، حتى ينفرد آمناً بمنازلة الاستعمار الأوربي .

وهو يتهم المتصوفة الذين أخذوا أنفسهم وأتباعهم بنسك الأعاجم بأنهم اخترعوا أعمالاً وأوضاعاً وعقائد من عند أنفسهم ، وظنوا أنهم يتقربون بها إلى الله على غرار ما فعل المشركون من عبادة الأوثان والذبح عليها ، « وكما اخترع طوائف من المسلمين الرقص والزمير والطواف حول القبور والتذلل لها والذبح عندها ونداء أصحابها وتقبيل أحجارها ونصب التوايت عليها ، وحرق البخور عندها ، وصب العطور عليها » (١) . وهو يدمغ ذلك كله بأنه مخالف لسنة رسول الله وأصحابه . فإنهم ما سجدوا قط سجدى الآخرة على نحو ما يفعل أتباع الطرق الصوفية . وهو يظهر عجبه من حال المسلمين الجزائريين وغيرهم (٢) إذ « تجدد السواد الأعظم من عامتنا غارقاً في هذا الضلال . فتراهم يدعون من يعتقلون فيهم الصلاح من الأحياء والأموات ، يسألونهم حوائجهم من دفع الضر ، وجلب النفع وتيسير الرزق وإعطاء النسل ، وإنزال الغيث ويذهبون إلى الأضرحة ... ويدقون قبورهم ويندرون لهم ... وتراهم هنالك في ذل وخضوع وتوجه ، قد لا يكون في صلاة من يصلى منهم » ، وهذا هو الشرك الخفى وعبادة الأولياء وتفضيلهم على الكتاب والسنة ، إنهم يدعون غير الله ، ومن دعا غير الله ، فهو إلى الشرك أقرب .

ولإلى جانب هذا الشرك الخفى أو الصريح ، ساعد التصوف الفلسفى الأعجمى على هدم فكرة الخوف والرجاء التى ترتبط عند أهل الملل ، مسلمين وغير مسلمين ، بفكرة الثواب والعقاب فى الآخرة . فلقد زيف بعض المتصوفة باطالهم فقالوا : إن رجاء الثواب وخوف العقاب يناهيان الإخلاص فى عبادة الله ، فيجب أن يجب العبد ربه ، لا رجاء فى جنته ولا خوفاً من ناره . ويعرف أصحاب هذا الرأى من المتصوفة بأنهم متصوفة الزنادقة .

(١) التفسير ص ٧٣ .

(٢) التفسير ص ١٥٥ .

ويكشف بن باديس عن هذه الخلدعة التي تهدف ، في التحليل الأخير ، إلى إنكار الثواب والعقاب والجنة والنار فيقول : « إن قصد الثواب والخير على العمل لا ينافي الإخلاص فيه لله ، لأن الإخلاص هو أن تجعل عبادتك لله وحده ، ورجاؤك الثواب وطمعك فيه وحذرك العقاب وخوفك منه هما مقامان عظيمان لك في جملة عبادتك ، يجب عليك أن تكون فيهما أيضاً مخلصاً لا ترجو إلا ثوابه ولا تخاف إلا عقابه . . . والمقصود أن رجاء الثواب وخوف العقاب روحهما الإخلاص فكيف ينافيانه ؟ فالعامل الراجي للثواب الخائف من العقاب المخلص في الجميع آت بأربع عبادات : في عمله ورجائه وخوفه وإخلاصه وهو روح الجميع » (١) . وما عسى أن يقول المتصوفة عن الأنبياء وهم أكثر الخلق خوفاً من الله ونفورا من عذابه ؟ وهل يجهلون أن من دعاء القنوت الثابت المحفوظ « وإليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ونخاف عذابك الجدد » . . .

وليس من سبيل إلى الخلاص من الشرك ومن الاستهانة بثواب الله وبعقابه إلا بالعودة إلى إمام لا يضل ، وهو الكتاب والسنة وسير السلف « في ذلك كله ما عرفنا بالحق ، ونبصرنا في العلم ويفقهنا في الدين ، ويهتدنا إلى الأخذ بأسباب القوة والعز والسيادة العادلة في الدنيا » (٢) . .

هذا وقد صرف الطريقة في الجزائر الناس عن العمل ، وحبوا إليهم التواكل ، وأنكروا عليهم حرية الإرادة ، وكادوا يجردونهم من قيمهم الإنسانية ، وشاعت المنكرات في الموالد « والزردات » ، وساعد على ذلك عون الإدارة الفرنسية . لذلك حرص بن باديس في تفسيره وفي مقالاته وخطبه ، على أن يثبت في أذهان مواطنيه أن الله وهبهم العقل المميز المفكر والإرادة الحرة ، ومهد لهم الأسباب التي تؤدي دائماً إلى نتائجها ؛ وعلى أن يحذروهم من الطريقة الذين يهدمون جميع هذه القيم الإسلامية الإيجابية في نفوسهم ، حتى يمكنوا للمستعمرين منهم . وهو حريص على أن يبين لمواطنيه لماذا التزم الطريقة جانب المستعمر . فمن جانب ، تبادل الطريقة والاستعمار والعون ، ومن جانب آخر استغل أرباب الطرق الصوفية سذاجة



العامة فهناك « نوع موجود في غالب القطر الجزائري ، ويكثر في بعض الجبال ، وهو أن بعض المأمورين من بعض شيوخ الطوائف يأتون بثابة من أتباعهم ، فينزلون على المتمين إليهم من ضعفاء الناس ، فتذبح لهم الذبائح ، « ويكنس لهم ما في البيت . . . وشر ما في هذا الشر أنه يرتكب باسم الدين ويحسبه الجهال أنه قربة لرب العالمين » (١) .

ويعترف الإمام بن باديس (٢) أن الناس قبل نجاح حركة الإصلاح كانوا يظنون أن الاسلام ليس إلا ما تصوره الطرق الصوفية . وما زاد في ترويج هذه الفكرة الضلالة ما رآه من مسلك علماء الدين ضيق الأفق الذين ساندوا الطريقة ، وأيدوا شيخها . فلما شرع هو في محاربتها في كل من « المستقد » و « الشهاب » . ظن الناس أن هدم هذه الأباطيل ، التي رسخت في النفوس مع الزمن وأيدها المستعمر - محال . لكن الله وفق الجزائريين إلى معرفة حقيقة هذه الطرق وإلى الكشف عن أهدافها من إشاعة العقائد الباطلة وتحريف الإسلام وتشويهه ، وتحطيم القيم الأخلاقية الإسلامية ، ومن مسائلة دولة الباطل :

والحق أن الاستعمار قد أخذ على غرة عندما سقط أعوانه من أصحاب الطرق الصوفية ، فحاول حمايتهم ، وبدأت بعض صحفه (٣) تدافع عن هؤلاء العلماء ، وتصفهم بأنهم أصدقاء فرنسا المخلصون ، وتستشهد بما قاله بعض المرابطين « إذا كنا أصبحنا فرنسيين فقد أراد الله ذلك ، وهو على كل شيء قدير . فإذا أراد الله أن يكسح الفرنسيين من هذه البلاد فعل ، وكان ذلك عليه أمراً يسيراً .. ولكنه كما ترون يعلم بالقوة ، وهي مظهر قنوته الإلهية ، فلنحمد الله ولنخضع لإرادته » . وتأسف الصحيفة الفرنسية على مضي «لما الزمن الذي كان يستمع فيه الجزائريون ويخضعون فيه لكل ما يوحى به إليهم شيوخ الطرق . أما اليوم فقد أفسد العلماء المسلمون الجزائريون كل شيء منذ عشر سنوات . فهم يبذلون الجهد في هدم سلطان المرابطين وحق منعبهم بآيات القرآن ، ويهزمونهم في كل مجال

(١) التفسير ص ٢٧١ .

(٢) مجلة الشهاب مارس ١٩٣٨ .

(٣) جريدة الريبليكان ١٢/١/١٩٣٨ عن مجلة الشهاب ج ٧ مجلد ١٤ .



بما يقتبسونه من أحاديث الرسول بما يحمله خصوصهم كل الجمل ، ويتهمونهم بأنهم خونة للإسلام وأعداء للمسلمين . كذلك أخذ العلماء بحاريون تعليم البنات والبنين في المدارس الفرنسية . وتحرض الصحيفة الإدارة الفرنسية على التكيل بالعلماء فتقول : « وقد نجح هؤلاء في حمل الناس على البراعة من مواطنيهم الذين قبلوا أن يعدوا من الفرنسيين وامتنعوا عن دفنهم في مقابر المسلمين . وهؤلاء القادة يتفنون أوامر تأتيهم من القاهرة ودمشق ومكة وهي المدن التي تعمل فيها جماعات خفية لتنفيذ أغراض على جانب كبير من الخطورة . والتبعة في ذلك تقع على الحكومة الفرنسية . فهي التي تركت هؤلاء المتعصين أو الخيئين يثبون دعوتهم ، ويضيعون من سلطان أصدقائنا المرابطين » .

ويقول الإمام بن باديس ردًا على هذا الاستعلاء بالإدارة الفرنسية في الجزائر : إنه لا يهم جماعة العلماء المسلمين أن تجهز على هذا الجريح المتشن ، ويعترف بأنه حارب الطريقة لما عرف فيها من أنها بلاء على الأمة من الداخل والخارج ، فبذل هو وأصحابه كل الجهد في القضاء عليها بعد أن كشف أهدافها . وهو يؤكد لمواطنيه في عام ١٩٣٨ أن جماعة العلماء قد بلغت الغاية ، وأنها عازمت على أن تترك أمر فلول الطرق الصوفية الأمة حتى تتولى القضاء عليها بنفسها . ومع ذلك فإنه لا يرفض أن يمد يده لمن بقي من هذه الفلول ، حتى تشتري نفسها ، وتعمل مع بقية المسلمين بدأ واحدة ، على شريطة « ألا يكونوا آلة مسخرة في يد نواح اعتادت تسخيرهم . فكل طرق مستقل في نفسه عن التسخير فتحن تمد يدا له للعمل في الصالح العام . وله عقلية لا يسمع منا فيها كلمة — وكل طرق ، أو غير طرق ، يكون أذنًا سماعه وآلة مسخرة فلا هواة بيننا وبينه حتى يتوب إلى الله . قد نبذنا إليكم على سواء . . إن الله لا يحب الخائنين » .

وحقيقة نجح بن باديس وأعوانه في تصحيح المفاهيم الإسلامية ، وفي بعث الجزائر بعثاً روحياً مكنها من الخلاص نهائياً من المستعمر وعملاته .

## الفصل الخامس

### دراسة مقارنة للإمام بن باديس والماتريدى وابن رشد

#### ١ - فكرة السببية عند بن باديس وصلتها بالقضاء والقدر :

يعترف الشيخ عبد الحميد بن باديس بأن هناك أسباباً وضعها الله في الكون ، وأن هذه الأسباب إنما تؤدي إلى مسبباتها بمشيئة الله الخالق لكل شيء ، أسباب ومسيبات ، مما يفسر لنا لماذا يخفق الإنسان عندما يدعى لنفسه معرفة جميع المقدمات التي تفضي به إلى النتائج التي يريد الوصول إليها ، وعندما يظن أن قدرته الإنسانية يمكن أن تماثل القدرة الإلهية . ولا نظن نحن أن أحداً في عالمنا المعاصر يدعى ، رغم تقدم العلم ، أن الإنسان قد كشف عن كل قوانين الكون وأسراره .

وليست هذه السببية التي أودعها الله في الكون وفقاً على قوم دون قوم ، فكل إنسان ، سواء آمن بالله أم لم يؤمن به ، قادر على استخدام هذه القوانين الكونية للوصول إلى تحقيق غاياته العلمية ، ولكن بشرط أن يحصل الثقافة الكافية لمعرفة هذه القوانين ، وكيف يمكن تطبيقها . وتكشف لنا هذه الفكرة عن أن بن باديس من أنصار الفكرة العلمية الحديثة التي تقول بأن نظام الكون مطرد وعام ، وهذا هو ما يسميه المناطقة المحدثون باسم مبدأ « الحتمية في الطبيعة » ، وهو كما نعلم أساس التقدم العلمي في العصر الراهن . غير أنه يمتاز عن غيره بأنه لا ينسى أن هذا النظام الكوني هو من صنع الله الذي يخلق العالم ويحفظه . وهو يفسر لنا اطراد القوانين بالنسبة إلى جميع البشر تفسيراً خلقياً يرفع من قيمة الإنسان ، بدلاً من أن يهبط بها ، وذلك عندما يرى أن أسباب الحياة وال عمران والتقدم مبدولة لجميع الخلق بفضل من الله ، وأن كل من تمسك بها انتهى إلى نتائجها بإذنه .

فأى فارق بين هذه الروح العلمية المؤمنة المتواضعة ، وبين ما ذهب إليه برتراند رسل ؛ الذي دفع به علم إيمانه بوجود الله إلى حد إنكار وجود العلاقات

السببية بل القوانين في الكون ، وذلك لأنه كان يخشى أن يكون في الاعتراف بوجود السببية اعتراف بوجود الله . ونحن لا نعلق على رأى « برتراند رسل » إلا بقولنا إن فلسفته ما هى إلا نكسة في تاريخ الفلسفة والعلوم . هذا إلى أنه لا يفعل سوى أن يؤكد ما قرره فيلسوف سابق من فلاسفة القرن الثامن عشر وهو « هيوم » .  
ومما يدل على أن فكرة بن باديس شديدة الارتباط بالواقع ، فضلاً عن صحتها من الوجهة العلمية والدينية ، أنه عندما قرر فكرة السببية في الطبيعة من جهة العقل والدين دعا الناس إلى أن يعتمدوا على الأسباب فيما يرجونه من عمل ، بل نراه يؤكد لهم أن من يظن أن ترك الأسباب نوع من الإيمان العميق بالله والاعتماد عليه إنما هو رجل يسيء فهم دينه ، لأن من يترك الأسباب من المؤمنين سوف يكون شقياً في الدنيا ، ولئن كان هو من الناجين في الآخرة ، فسوف يؤخذ على تقصيره في استخدام العلاقات السببية التي وضعها الله في متناول يده في الدنيا ، فلم يشأ أن يستخدمها جهلاً أو كسلاً (١) .

وقد ضرب لنا الإمام بن باديس مثلاً (٢) لعقاب الله لهؤلاء الذين ظنوا أن الاسلام ينهائهم عن البحث عن القوانين السببية في الكون ، فاستشهد بتاريخ المسلمين في القديم والحديث ، وبين أنهم لم يتقدموا ولم يسودوا العالم ولم يبنوا حضارتهم ومدنيتهم إلا بالعلوم والصناعات ، عندما « أخذوا بأسبابها كما أمرهم دينهم » . وقد تأخروا حتى كادوا يكونون دون الأمم كلها بإهمال تلك الأسباب ، فخسروا دنياهم ، وخالفوا مرضاة ربهم ، وعوقبوا بما هم عليه من الذل والانحطاط ، ولن يعود إليهم ما كان لهم إلا إذا عادوا إلى امتثال ربهم في الأخذ بتلك الأسباب .

وهذا في رأيه ، رد على هؤلاء الذين يريدون في العصر الحاضر فتنة المسلمين عن دينهم بأن يوحوا إليهم أنهم ما تأخروا إلا بسبب إسلامهم ، وأن الآخرين لم يتقدموا إلا بسبب عام إسلامهم . وهنا يقرر لنا بن باديس في وضوح أن السبب في التقدم والتأخر يقوم ، أولاً وأخيراً ، على التمسك بفكرة القوانين الطبيعية أو تركها عن جهل وسوء فهم للدين ، إذ أن الدين يأمرهم بالبحث عن العلاقات

(١) تفسير ابن باديس ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٢) التفسير ص ٧٨ .

السببية والقوانين واستخدامها في كل أمر من أمورهم .

ثم يشير إلى تفاوت الأفراد والأمم في الاستفادة من القوانين والأسباب ، مع أن الله مكنهم منها جميعاً ، وهبهم العقل وحرية الإرادة . وهو يفسر لنا هذا التفاوت بأنه لحكمة إلهية اقتضت تفاوت الأفراد والأمم على نحو يعيننا على فهم الحياة والعمران والاجتماع .

غير أنه إذا قرر ضرورة الإيمان بالسببية ووجوب استخدامها في العلم والصناعة فإنه يذكر الإنسان بضعفه وحاجته إلى ربه<sup>(١)</sup> ، لأنه لا ينال عادة شيئاً من التوفيق إلا بإذن الله ، أى بإرادة الله وتيسيره . وليس في الاعتماد على الله ما يتعارض مع حثه على البحث والعمل ، بل إن ذلك ليحمله على الاجتهاد في العمل دون أن يركبه الغرور ؛ إذ الله هو الذى خلق الأسباب ويسرها . كذلك ليس معنى الإيمان بالله أن ننكر فكرة السببية ونرفض استخدامها : فليس هناك سوى الرجل الجاهل<sup>(٢)</sup> الذى قد يظن أن معالجة الأمراض أو مقاومة المصائب نوع من عدم الإيمان بقدر الله أو هو فرار من الله ، على حد تعبير بن باديس . ذلك أن الأمراض والمصائب التى تنزل بالأفراد والأمم ، وإن ادعوا لأنفسهم علماً وقدرة لا حد لهما ، إنما هى بقدر الله ، أى فى حدود ما خلق . فالإنسان مأمور أن يقاوم ويعالج . وإذا فرّ من المصائب والأمراض إلى المقاومة والعلاج فإنه يفر دائماً من قدر الله إلى قدر الله ، على نحو ما قال الخليفة عمر بن الخطاب :  
عندما سئل فى وقت الوباء : أفراراً من قدر الله ؟

وهنا نرى بن باديس يربط ربطاً محكماً بارعاً بين فكرة علمية حديثة وبين عقيدة إسلامية جمع فيها ديننا بين تكريم العقل وبين وجوب تواضعه ، حتى لا يضل الإنسان فى الإعجاب بنفسه وعقله . وكيف له أن يغرق فى العجب بنفسه إذا كان الخالق هو الذى وهب الحياة والعقل ، ثم أعطاه حرية الاختيار حتى يكون خليقاً بأن تنسب أعماله إليه ويكون مسئلاً عنها ، دون أن يذهب به العجب إلى تصور أنه خالق لنفسه وخالق أفعاله ؟ وكيف يدعى أحد أنه يستطيع

(١) التفسير ص ٤٢٤ .

(٢) نفس المصدر ص ٤٦٦ .



الخروج على مشيئة الله التي تتجلى في هذا النظام المحكم الذي تمثل في الكون ؟ هذا إلى أن علم الإنسان مهما بلغ فلن يحيط بأسرار الكون كلها ، إذ العلم في صيرورة مستمرة ، وليس في حالة مستقرة ، وهو يتطور دائماً نحو غاية لن يدرك منتهاها ، فعلم الغيب لله وحده .

## ٢ - فكرة السببية عند ابن رشد وارتباطها بالقضاء والقدر :

كان أبو الوليد بن رشد أول من حدد فكرة القانون العلمي تحديداً واضحاً ، بل يجب الاعتراف له بأنه حاول تحديد القوانين النفسية ، أي أراد أن يخضع الظواهر النفسية أيضاً لقوانين تشبه تلك التي أودعها الله في العالم الخارجي . وإذن ليس بصحيح ما قاله هنري بوانكاريه من أن فكرة القانون العلمي من أحدث المكتشفات العلمية . ذلك أن ابن رشد حددها منذ منتصف القرن الثاني عشر أو بعد ذلك بقليل ، وهو يربط فكرة السببية بفكرة العناية الإلهية ، كما رأينا من قبل عند بن باديس ، وهو صاحب نظرية الخلق من العدم ، ونظرية الحفظ الإلهي التي نسبت من بعد إلى توماس الأكويني ، ثم إلى ديكارت .

أما تحديده لفكرة السببية ، فجاء عند حديثه عن مشكلة القضاء والقدر ، التي فرقت بين كل من المعتزلة والأشاعرة ، في حين أن العودة إلى الكتاب والسنة كانت كافية في رفع الخلاف بين هاتين الطائفتين الكبيرتين . ذلك الخلاف الذي فرق الشمل ، وفتح مصراع الفتنة أمام أدعياء التصوف من الباطنية . ونريد هنا التصوف الفلسفي في القرن الرابع وما بعده ، لا التصوف الذي يقوم على أخلاق إسلامية ، وعلى الورع والتقوى

إنه يقول في تحديد فكرة السببية ، بعد حديثه عن الخلاف بين القائلين بالجبر والقائلين بالاختيار المحض ، وعن الآيات التي تشهد لكل وجهة نظر من هذين الفريقين : « الظاهر من مقصد الشارع ليس هو تفريق هذين الاعتقادين ، وإنما قصده الجمع بينهما على التوسط الذي هو الحق في هذه المسألة . وذلك أنه يظهر أن الله تبارك وتعالى قد خلق لنا قوى تقرر بها أن نكتسب أشياء هي أضداد ، لكن لما كان الاكتساب لتلك الأشياء ليس يتم لنا إلا بمواتاة الأسباب التي سخرها

الله لنا من خارج ، وزوال العوائق عنها ، كانت الأفعال المنسوبة إلينا تتم بالأميرين جميعاً . وإذا كان ذلك كذلك فالأفعال المنسوبة إلينا أيضاً يتم فعلها بإرادتنا وموافقة الأفعال التي من خارج لها ، وهي المعبر عنها بقدر الله . وهذه الأسباب التي سخرها الله من خارج ليست هي متممة للأفعال التي نروم فعلها أو عاقبة عنها فقط ، بل هي السبب في أن نريد أحد المتقابلين . . . ولما كانت الأسباب التي من خارج تجرى على نظام محدود ، وترتيب منضود ، لا تخل في ذلك بحسب ما قدرها بإرثها عليه ، وكانت إرادتنا لا تتم ، ولا توجد بالحملة ، إلا بموافقة الأسباب التي من خارج ، فواجب أن تكون أفعالنا تجري على نظام محدود ، أعني أنها توجد في أوقات محدودة ومقدار محدود . . . وليس يلغى هذا الارتباط بين أفعالنا والأسباب التي من خارج فقط ، بل بينها وبين الأسباب التي خلقها الله تعالى في داخل أبداننا . والنظام المحدود في الأسباب الداخلة والخارجة ، أعني التي لا تخل ، هو القضاء والقدر الذي كتبه الله تعالى على عباده ، وهو اللوح المحفوظ ، وعلم الله تعالى بهذه الأسباب وبما يلزم عنها هو العلة في وجود هذه الأسباب . ولذلك كانت هذه الأسباب لا يحيط بمعرفتها إلا الله وحده . ولذلك كان هو العالم بالغيب وحده على الحقيقة (١) .

كذلك اتخذ ابن رشد فكرة السببية دليلاً على وجود الله . وهو يسخر من هؤلاء الذين ينكرون أن يكون الإيمان بالله عن طريق العقل ، بل عن طريق النقل أو الوحي ، كأن التصديق بالوحي نفسه لا يحتاج في نظرهم إلى استخدام العقل . ولكن رغم هذه السخرية ، فابن رشد رفيق بهؤلاء الذين لا يريدون استخدام ما وهبهم الله من عقل ، وهو يرى أنه متى وجدت جماعة من الناس يعجزون عن استخدام عقولهم في معرفة وجود الله فما عليهم إلا أن يؤمنوا بالطريقة التي يرتضونها بها . « ولا يمتنع أن يوجد من الناس من تبلغ به فدامة العقل ، وبلادة القرية ، إلى ألا يفهموا شيئاً من الأدلة الشرعية . . . وهذا هو أقل الوجود . فإذا وجد ففرضه الإيمان بالله من جهة السماع » ، أي أن ابن رشد لا يحكم عليهم ببدعة أو زيغ ، لأنه ليس من أولئك الذين يريدون جعل اللجنة وقفاً على شريعة

(١) مناهج الأدلة في عقائد الملة، نشر مطبعة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

يسيرة من هؤلاء المتكلمين ، كما قال الإمام الغزالي من قبل .  
 أما بالنسبة إلى علماء الكلام الذين اعتمدوا على أدلة غير عقلية ولا شرعية  
 ككل من دليل الجوهر الفرد والممكن والواجب اللذين يتعارضان مع أدلة الشرع  
 والعقل معاً ، فإن الفيلسوف القرطبي لا يجاملهم ، بل يبين أنهم يهملون فكرة  
 السببية ، ومن ثم يكادون ينكرون العناية الإلهية . إنهم زعموا أن الأشياء يمكن  
 أن توجد على نحو مخالف لما هي عليه ، كأن يصعد الحجر إلى أعلى ، وتنقلب  
 الحركة الفلكية الشرقية غربية وبالعكس . لكن الواقع يكذبهم . فإننا نلمس  
 بحواسنا أن لكل نوع من الأنواع خلقته الخاصة به ، وقد نهتدى إلى معرفة بعض  
 الحكمة في وجود نوع ما على هيئة ما ، مما يوحى إلينا بأن هناك أسباباً ثابتة أودعها  
 الله في الكون . وغاية ما هنالك أنهم يريدون إنكار وجود الأسباب الطبيعية  
 التي خلقها الله . وقد نسي هؤلاء أمراً له خطره ، وهو أننا إذا كنا نجعل السبب  
 في ظاهرة ما كالحركات السماوية مثلاً ، فليس هذا دليلاً على عدم وجود هذا  
 السبب . ذلك أن جهلنا بحقائق الأشياء لا يصلح مطلقاً أن يكون مقياساً للدرجة  
 الإمكان فيها — في الجملة يرى ابن رشد أن أدلتهم تهلم فكرة علمية تبين أنها  
 صادقة في عصرنا الحديث .

وفضلاً عن ذلك فإن دليلهم لا يسير في الاتجاه السليم للعقيدة ، إذ يشبه  
 أن يكون إنكاراً لحكمة الله تعالى وعلمه ، إذ لو كان يمكن أن توجد الأشياء أو تصنع  
 على نحو آخر لما كان وجودها الخالي دالاً على حكمة أو لحكم ، أي لو لم تكن  
 هناك أسباب تحدد وجودها والغاية منها لما كانت هناك للمخالق سبحانه معرفة  
 تخصه دون المخلوقات ، ولكان في ذلك إنكاراً لحكمته تعالى<sup>(١)</sup> .

ثم إن ابن رشد استخدم فكرة السببية المرتبطة بالعناية الإلهية ليجد حلاً  
 لمشكلة القضاء والقدر التي فرقت بين مفكرى الإسلام ومزقت الأمة وقادتها إلى  
 عصور التدهور . غير أن ابن رشد لم يشأ أن يسلك مسلك الجدل ، كما فعل  
 سابقوه من أهل الجبر المحض أو الاختيار المحض ، أو الأشعرية التي تقول بالكسب ،  
 وتكاد تنكر القوانين السببية في الكون كما رأينا منذ قليل . لذلك أثار أن يتجه رأساً

(١) انظر مقدمتنا في نقد مدارس علم الكلام ، مناهج الأدلة نفس الطبعة ص ١٦ ، ١٧ .



إلى الكتاب والسنة ، ثم يسترشد بالعقل ، حتى يجد حلاً لهذه المشكلة التي فرقت بين المسلمين حتى تراشقوا فيما بينهم بالكفر . تقول إنه حاول أن يهتدى إلى حل يقبله الدين والعقل معاً . فإن هو وجده قنع به ، وإلا اعترف بعجزه . لكنه اهتدى إلى حل شبيه بالذي اهتدى إليه الإمام بن باديس ، وليس ذلك بعجيب . فكلاهما عاد إلى الكتاب والسنة تاركاً جواب الجدل والشغب . أما فيما يتعلق بابن رشد فإنه سلك مسلكاً استقرائياً ، فوجد أن في القرآن الكريم آيات تدل على الجبر ، وأخرى لا تقل عنها صراحة في تأكيد الاختيار . مثال الآيات الأولى قوله تعالى : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » ، وقوله : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير » . أما الآيات الثانية فمن مثل قوله تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ، وقوله « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ، وأكثر من ذلك يتفق أن تحتوى الآية الواحدة على تأكيد لـهذين الرأيين المتناقضين كقوله تعالى : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » ، وقوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، كذلك يوجد مثل هذا التضاد في الأحاديث النبوية كقوله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » .

ثم يبين ابن رشد تعارض الأدلة العقلية في نفس هذه المسألة ؛ إذ لو كان العبد هو الذى يخلق أفعاله لكانت إرادة الله سبحانه وقدرته محدودتين ؛ لأنهما لا تنطبقان على أفعال الإنسان ، وهذا مخالف لما أجمع عليه المسلمون من أن الله خالق كل شيء ، ومن جهة أخرى لو قلنا إن الإنسان يعجز عن القيام بأى عمل لانتهى بنا ذلك الإنكار إلى مأزق ، وهو كيف يكون هذا الإنسان العاجز أهلاً للتكليف بأوامر الشرع ونواهيه ؟ وكيف يجوز في العقل ، أن يجبر الإنسان على فعل ، ثم يثاب أو يعاقب عليه ؟

ويرى ابن رشد أن هذا التعارض الظاهري بين أدلة الشرع لم يأت عبثاً أو مصادفة ، بل كان مقصوداً من الله سبحانه ، لكي يرشد العلماء القادرين على فهم الكتاب والسنة فهماً صحيحاً إلى الحل الحاسم — وهذا الحل الحاسم في نظر



ابن رشد يتلخص في أن الله يخلق قدرة العبد التي تصلح للقيام بأفعال مختلفة، ومع ذلك فإن هذه القدرة المخلوقة محدودة بالقوانين الخارجية في الكون، والقوانين الداخلية في جسم الإنسان، بحيث يمكن القول بأن الأفعال الإنسانية ليست اختيارية تماماً ولا اضطرارية تماماً، وإنما تتوقف على عاملين: إرادة حرة، ترتبط في الوقت نفسه بأسباب خارجية، تجري دائماً على نمط واحد، أو سنن منضودة لا تخل بحسب ما قدرها بارتها عليه.

ويبدو لنا بوضوح وجود اتفاق تام بين بن باديس وابن رشد مع وجود فارق هام، وهو أن بن باديس يبرز الناحية الأخلاقية أكثر مما فعل ابن رشد، وهو أكثر إلحاحاً في ضرورة الفرار إلى الله، ويمكن تفسير ذلك بأمرين: أحدهما اختلاف طبيعة كل منهما، وثانيهما وهو هام جداً في نظرنا، ويتلخص في أن ابن رشد عاش في حضارة إسلامية مدبرة، وابن باديس عاش في حضارة مقبلة، وربما فسر لنا هذا طابع التفاؤل عند بن باديس، والطابع العقلي الصارم عند ابن رشد.

### ٣ - حرية الإرادة عند بن باديس :

لم يشأ الإمام بن باديس أن يدخل في مناقشة مختلف الآراء التي دارت بين أهل الجبر المحض والقائلين بحرية الإنسان واختياره من جانب، ثم بين الأشعرية والمعتزلة من جانب آخر، وحسناً فعل، لأن مثل هذه المناقشات انزلت بالتحصوم إلى المهاترة التي دعتهم إلى استخدام عبارات لا تليق بالله سبحانه، كالقول بأنه يريد السفه والظلم، أو أنه قد يشيب العصاة ويعاقب المؤمنين، مع أن معالجة المشكلة في جو من الهدوء تبين لنا أن القوم كانوا يهدفون إلى تنزيه الله، لكنهم كانوا يتكلمون كل<sup>١</sup> بلغة لا يفهمها الآخرون. وفضل الإمام أن يتجه رأساً إلى الكتاب والسنة، فجاء رأيه أقرب ما يكون إلى رأي السلف، وهو شديد الشبه بكل من رأى أبي منصور الماتريدي وابن رشد في هذه المسألة، لأنه يربط، هو الآخر، بين العناية الإلهية وفكرة السببية وبين حرية الإرادة. فهو يقرر لنا في تفسيره<sup>(١)</sup> أن جميع ما في الكون قد شملته نعم الله، وأول هذه النعم هو وجود

(١) انظر تفسيره لقوله تعالى : « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً » =

الموجودات ، « ثم تتنوع تلك النعم الرحمانية بتنوع الموجودات وأنواعها . . وتتفاوت تبعاً لذلك . . . » إذ أن كل موجود قد أعطى من التكوين ما يناسب وجوده .  
وقد أعطى الله الناس نعمة الوجود ، ومكنهم من أسبابها ، وخلقهم متساوين من حيث العقل المميز والإرادة الحرة . فكل إنسان يختار بعقله ، وهو يعتمد على إرادته الحرة ، التي لا يمكن أن يكابر أحد في وجودها ، لكي يختار ما يرضاه لنفسه ، وعلى حسب ما أداه إليه تفكيره . فالناس جميعاً سواء في النعم الدنيوية ، عصاة كانوا أم مؤمنين أم غير مؤمنين . والسبيل إلى تحقيق ما يختاره المرء لنفسه هي السعي في جلب الخير والرزق لها . ومعنى ذلك أنه يستعين بالأسباب . لكن أفضل من ذلك أن يستخدم هذه العلاقات السببية الموجودة في الكون ، وأن يكون على علم بأن الله خلق الأسباب ومسبباتها . وهذا الربط بين العمل والإيمان هو ما يحرص الشيخ بن باديس على تأكيده وإظهاره ، لكي يقرر لنا أن أفضل السعي ما اعتمد على القلب والعمل .

فليس لأحد أن يحتج ، بعد ذلك ، لسوء عمله وفساد قلبه ، بأن الله قضى عليه بالعذاب . فإن الله حجة بالغة على الناس .

وحجة الله على الناس هي العقل الذي وهبهم إياه ، وحرية الاختيار التي أنعم بها عليهم ، وتلك الآيات الكونية التي تفجأ الحواس والعقل ، ثم الرسائل السماوية التي جاء بها رساه ، لكي يبلغوا الناس الشرائع والأخلاق . وكل هذه أمور لا يمكن إنكارها ، كما لا يستطيع أحد أن ينكر ما لديه من عقل واختيار .

وليس لأحد أن يحتج بأن علم الله الأزلي بما سيفعله الإنسان هو السبب في إنكار حرية الإرادة لدى العبد . ذلك أن هذا العلم السابق لا يؤثر في حرية إرادته أو اختياره . ولئن احتج أحد بذلك فإنه يعلم بينه وبين نفسه أنه ينكر البداهات والتجربة اليومية . وهنا يضرب لنا الشيخ بن باديس مثالا تقليدياً يقرب ، لمن غلبت عليه روح التقليد والرغبة في الشغب التي توجد لدى علماء الكلام ، نقول إنه يضرب لأمثال هؤلاء كيف لا يؤثر العلم الإلهي السابق في اختيار الإنسان ، وهذا المثال

---

« انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً » الآية ٢١ ، ٢٢ من سورة الإسراء : التفسير ص ٧٥ ، ٧٦ .

هو مثال رجل له ولدان يعلم نفسية كل واحد منهما وأخلاقه وسيرته ، ثم يأمرهما بأمر فيه الخير لهما ، وهو يعلم أن أحدهما سيمتثل ، ويعلم أن الآخر سيخالف . ثم يقول لأهل بيته إن فلاناً سيمتثل ، وإن الآخر سيخالف ، فيتحقق علمه في كل واحد منهما . فيجازى المطيع ويعاقب العاصي . فالوالد يأمر ولديه بالخير ، ويبذل لهما النصيح ، ولا يقدح في ذلك علمه بما سيكون منهما ، كما أن هذين الولدين قد نال كل واحد منهما ما يستحق . دون أن يكون للمخالف منهما حجة على مخالفته ، بما كان يعلمه منه أبوه . . . . « الله المثل الأعلى فقد أحاط بكل شيء علماً ، فعلم من سيطيعه ومن سيعصى . ولكنه الحكم العدل . فلم يكن ليجازيهم على سابق علمه فيهم الذي لا دخل لهم فيه ، بل جعل جزاءهم بعد إقامة الحجة عليهم بما يكون من اختيارهم ، ليكون جزاؤهم على ما عملوا وما قدمت أيديهم . »<sup>(١)</sup> . ثم يبين لنا الشيخ بن باديس أن الحساب إنما يكون بسبب ما وهب الله للإنسان من قدرة تصلح للضدين أى للفعل والترك ، ومن اختيار ، وليس بسبب علمه السابق بأنهم سيفعلون هذا الضد أو ذاك . والحكمة في ذلك أنه يمتحنهم لتظهر حقايقهم ويقع جزاؤهم على ما كسبت أيديهم باختيارهم . ولا حجة لهم في تقدم علمه تعالى بما يكون منهم ، وأن تقدم العلم لم يكن ملجئاً لهم على أعمالهم . ففي هذا الامتحان قيام حجة الله على العاملين أمام أنفسهم وأمام الناس ، لما فيه إظهار لحقيقتهم لأنفسهم ولغيرهم<sup>(٢)</sup> ، كذلك قال الإمام بن باديس في كتابه العقائد الإسلامية : « لا يحتج بالقدر في الذنوب ، لأن حجة الله قائمة على الخلق بالتمكن والاختيار والدلالة القطرية والدلالة الشرعية لقوله تعالى : ( وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إنهم إلا يخرصون ) »<sup>(٣)</sup> . فليس لأحد إذن أن يحتج لسوء فعله بالقضاء والقدر . وقد عبر أبو العلاء المعري عن هذا المعنى فقال :

(١) التفسير ص ٣٨١ ، ٣٨٢ ، تفسير قوله تعالى : « لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون » سورة يس آية ٧ .

(٢) التفسير ص ٢٢٢ ، تفسير قوله تعالى : « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة وكان ربك بصيراً » سورة الفرقان آية ٢٠ .

(٣) انظر العقائد الإسلامية ، رقم ٥٩ ، ص ٦٤ طبعة دار الكتاب الجزائري .

إن كان من فعل الكبائر مجبراً      فعقابه ظلم على ما يفعل  
والله إذ خلق المعادن عالم      أن الحداد البيض منها تجعل

#### ٤ - وجهة نظر الماتريدي وابن رشد في حرية الإرادة :

يقال عادة إن الماتريدي أقرب إلى الأشعرية منه إلى المعتزلة ؛ لكن بدا لنا بعد الدراسة المقارنة أن العكس هو الصحيح ، وأنه أقرب إلى السلف منه إلى أية فرقة أخرى . والذي يعيننا هنا أنه لما عالج مشكلة القضاء والقدر ، اعترف بأن العبد مختار ومستول عن اختياره ، لأن علم الله لا يجبره ، أى أنه لا يؤثر في وقوع أفعاله (١) .

أما ابن رشد فهو يقول بأن العبد له إرادة حرة، وأن الله خلق له قدرة على الفعل والترك ، وتلك علامة من علامات العناية الإلهية ، وهذه القدرة ليست مطلقة بل هي مقيدة بالأسباب الخارجية ، كما سبق بيان ذلك عند كلامنا عن الصلة بين السببية والقضاء والقدر في نظر هذا الفيلسوف .

وما يدعو إلى العجب حقيقة أن « أرنست رينان » يخطئ خطأ واضحاً في فهم فكرة ابن رشد في مسألة القضاء والقدر ، لأنه قال بحرية الإنسان واختياره في حدود القوانين الطبيعية . ولا أدري لماذا يؤكد « رينان » ، دون اعتماد منه على أى نص كتلك النصوص التي أوردناها ، أنه ينبغي أن يحتفظ لابن رشد بمكان ملحوظ في مقدمة الفلاسفة الذين ينكرون العناية الإلهية ، ويرفضون إرجاع الأسباب في الكون إلى الله تعالى ؟ غير أننا نفهم السبب الذي تردى من أجله « رينان » في هذا الخطأ ، وذلك لأنه لا يفعل شيئاً سوى أن يكرر الأسطورة التي حاكها الصليبيون في القرن الثالث عشر ضد ابن رشد ، باعتباره ممثلاً لفلسفة الإسلامية ، فوصفوه بالإلحاد والكفر .

أما نحن فنقول ، بناء على النصوص ، لا على أساس من الهوى ، أن رأى ابن رشد ، الذي يرفع التناقض بين فكرة القضاء والقدر وبين حرية الإرادة الإنسانية ،

(١) انظر مقدمتنا لكتاب مناهج الأدلة في عقائد أهل الملّة الطبعة الثانية ص ١١٦ ، نشر مكتبة الأنجلو المصرية .



هو الرأي الذى أصبحنا نجده فى القرن العشرين لدى علماء الأخلاق المعاصرين . فهم يشبتون للإنسان إرادة مقيدة بالأمور الخارجية ، حقاً قد يحتاج أنصار الجبر فيقولون : إنها ليست إرادة مطلقة ، لكن يمكن الرد عليهم بأنها إرادة فى كل حال ؛ لأنها تستطيع الاختيار بين أحد فعلين متضادين كالفعل والترك ، ومنى فعلت أحدهما تحققت لما حريتها الكاملة فى لحظة معينة . وهذا هو السبب فى أن الإنسان يعد مسئولاً عن أفعاله ، إذ أن له الاختيار فى كل لحظة بين أمور متضادة قد يقل عددها شيئاً فشيئاً ، لأن هذا الاختيار يحدد للمرء اتجاهاً معيناً فى حياته . تلك هى فكرة الإرادة الحرة كما يفهمها الأخلاقيون المعاصرون ، لكن فكرة المسلمين الذين قالوا بالإرادة الحرة ، أكثر تفاؤلاً ؛ لأنهم يرون أن الرجوع إلى الله يغير الطريق ، ويكسر قيود العادات الراسخة .

ومن المؤكد أنه على الرغم مما يزعمه « رينان » من أن ابن رشد يقول بالاحتمية فى العالم الطبيعى وينكر العناية الإلهية ، فإن « توماس الأكويني » أخذ نظرية فيلسوفنا عن القضاء والقدر وصلتهما بحرية الإرادة الإنسانية ، وقال مثله وبألفاظ تكاد تكون هى ألفاظه ، إن الله أعطانا حرية الاختيار ، ولكن هذه الإرادة غير محددة ، وإنما يستطيع المرء بعد التفكير والتأمل أن يصمم على أمر دون آخر . وقد ظن « جلسون »<sup>(١)</sup> ، الذى عرض هذه النظرية فى كتابه عن توماس الأكويني ، أنها من صنع فيلسوفه ، وغاب عنه أن يرجع إلى ما كتبه ابن رشد حتى يعلم مصدرها ومنبعها ، وأنها فى الواقع أول محاولة جدية للتوفيق بين آراء إسلامية بحتة .

فهل يمكننا ، بعد ذلك ، القول بأن كلا من الماتريدى وابن رشد وابن باديس سلبى فى هذه المسألة ، وأعنى بها مسألة حرية الإرادة الإنسانية ، تلك الحرية التى لا تتعارض مع فكرة القضاء والقدر على النحو الذى فهمها عليه السلف ؟

\* \* \*

وهناك مسائل عديدة تتصل أيضاً بعقيدة القضاء والقدر ، كمسألة الخير والشر ، والحسن والقبيح ، ومن الممكن أن نعرض لهاتين المسألتين ، مبتدئين بمسألة الحسن والقبيح جرياً على النهج الذى يبدو لنا سليماً ، لأن الخير حسن والشر قبيح .

## ٥ - الحسن والقبح في نظر بن باديس :

يقرر لنا الشيخ عبد الحميد بن باديس أن حُسن الطاعات وقُبْح المعاصي مركوز في العقول ، وأن من رحمة الله أنه أعطى للعقل الإنساني قدرة يميز بها بين القبيح والحسن ، أي بين الرذيلة والفضيلة ، حتى يسهل عليه اتباع الشرائع التي أوصى بها الله إلى رسوله ، لدعوة الناس إلى فعل المحاسن وترك القبائح ، ففتبين لهم حكمة الله في الأمر بالأولى والنهي عن الثانية ، وحتى يترتب الثواب أو العقاب على اختيار الإنسان لما يعلم بعقله أنه حسن أو قبيح <sup>(١)</sup> ، فالفضيلة إنما كانت فضيلة لحسنها وكما لها ، والرذيلة إنما كانت رذيلة لقبحها ونقصها . والإنسان مجبول على محبة الكمال وكراهية النقص . ويتضح لنا أن الشيخ عبد الحميد بن باديس يقول بالحسن والقبح الذاتيين في الأشياء ، وهذا هو ما يعبر عنه بقوله <sup>(٢)</sup> : « والمحاسن محبوبة لله ، أمر بها ، ويثيب عليها ، ويرضى عن فاعلها ، والمقابح مبغوضة لله تعالى ، نهى عنها ، ويعاقب عليها ، ويسخط على مرتكبها » . فالله يأمر بالحسن المحبوب ، وينهى عن القبيح المبغوض .

ورأى الإمام بن باديس يخالف هنا رأى بعض المتكلمين من علماء المسلمين الذين جرهم الجدل مع خصومهم إلى الغلو فقالوا : إن الحسن لو ورد به نهى لانقلب قبيحاً ، والقبيح لو جاء به أمر لأصبح حسناً ؛ إذ لا وجود للحسن والقبح الذاتيين ، بل الشرع هو الذي يحسن ويقبح ، ولا مدخل للعقل في ذلك . ومعلوم أن هؤلاء احتجوا لرأيهم بأن الحسن أو القبيح لو كانا ذاتيين في الأشياء لما تغيرت حالهما ، مع أن المألوف هو أن نرى أن نظرة الناس تختلف باختلاف الظروف ، فما يروونه حسناً في بعض الأحيان ربما صار قبيحاً في أحيان أخرى كالقتل الذي يصبح حسناً عند ما يكون للقصاص من القاتل . كذلك يحتجون لرأيهم بأنه لا سبيل إلى إنكار نسبية الأخلاق لدى الأمم واختلاف التشريع باختلاف الديانات ،

(١) التفسير ص ١١٩ عند تفسير قوله تعالى : « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً » .

(٢) التفسير ص ١٤٢ عند تفسير قوله تعالى : « كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً » .

فالقيم الأخلاقية ليست ثابتة أو مطلقة ، بل هي في تطور مستمر .

وقد تبدو هذه الحجة قوية ، وربما ظن بعضهم أن الدراسات الأخلاقية الحديثة تؤكد صحتها . لكن ليس الأمر بمثل هذا اليسر ؛ لأن القول بنسبية الأخلاق ليس صحيحاً على إطلاقه . فإن هناك أصولاً كبرى تتفق عليها الشرائع السماوية والوضعية . وهذه الأصول ثابتة كوصف الظلم بأنه قبيح وشر ، ووصف الأمانة والصدق بأن كلامهما حسن وخير . أما الفروع ، أى تطبيق هذه الأصول في حالات خاصة قد تكون معقدة ، فإنها تتطور ، وعندئذ توصف بأنها نسبية ، فالواجب أن نفرق إذن بين نوعين من الحسن والقبح ، أحدهما ذاتي يدرك بالعقل ؛ والآخر يحتاج العقل في إدراكه إلى عون من الشرع .

أما الإمام بن باديس فرأيه واضح كل الوضوح في هذه المشكلة ؛ لأنه يقرر لنا « أن ما أمرهم ( الله ) به هو الحسن المحبوب ، وأن ما نهاهم عنه هو القبيح المبغوض ، فعلموا من ذلك أن أوامر الشرع ونواهيه هي على مقتضى العقل الصحيح والفطرة السليمة ، وأنه تعالى لا يأمر بقبيح ، ولا ينهى عن حسن ، وفي علمهم هذا ما يحملهم على الامتثال ويرغبهم فيه . . . فإن الحسن جد الحسن ما كان حسناً عند الله تعالى ، والقبيح جد القبيح ما كان قبيحاً عنده . . . »<sup>(١)</sup> ، ويتسق هذا الرأي مع ما رأيناه من أن العقل يميز بين الحسن والقبيح الذاتيين اللذين يفرقان بناء على أصول ثابتة مغروسة في نظر الإنسان ، وأن الشرع يساند العقل في هذه الناحية ، ثم يأتي إلى عونه في التطبيقات الفرعية على الأصول الثابتة . فيبين له الفروق الدقيقة التي يعجز العقل عن الاهتداء إليها . فالإحسان إلى الوالدين مثلاً شيء حسن ، لكن التفاصيل الدقيقة لهذا الإحسان لا يهتدى العقل إليها وحده ، فيرشده الشرع إليها<sup>(٢)</sup> .

( ١ ) تفسير بن باديس ص ١٤٢ - ١٤٤ عند تفسير قوله تعالى : « ولا تمش في الأرض مرحاً »

الآية إلى قوله تعالى : « كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً » الإسراء ٣٨ ، ٣٩ .

( ٢ ) التفسير : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » الآية انظر التفسير ص ٨٧

وما بعدها .

## ٦ - الحسن والقبح في نظر الماتريدي وابن رشد :

من الأمانة في البحث أن تقرر أن أبا منصور الماتريدي كثيراً ما ينتزع نفسه من جدل علماء الكلام انتزاعاً ، فيعود إلى رأى السلف ، ومن ثم تجده يسبق ابن رشد إلى حل بعض المشكلات . وهو ينجح دائماً في الإفلات من الجحوى الجليلي الكريه عندما يعود إلى الكتاب والسنة : فيرى أن ما جاء به الشرع مطابق للعقل . وفي مسألتنا هذه يعترف الماتريدي بأن القبح والحسن أمران ذاتيان في الأشياء ، وأن الشرع يؤيد في أوامره ونواهيه ما يصف به العقل الإنسانى الأشياء من حسن أو قبح . حقاً إن العقل لا يهتدى إلى التمييز بين هذين الأمرين في جميع الحالات . ولذلك جاء الشرع يدعمه وينير أمامه الطريق ، وإنما وجب القول بأن الله لا يريد القبح لأن قبحه مرتبطة بحكمته وعدله . فالله مالك مطلق ، وهذا أمر لا ينكره أحد . لكن ينبغي ألا يستنبط من ذلك أنه يفعل ما يقبح في نظر العقل ، كإثابة العاصي وعقاب المؤمن ، فإن في ذلك هدماً لكل المعايير الأخلاقية والعقلية<sup>(١)</sup> .

أما أبو الوليد بن رشد فهو يرفض رأى هؤلاء الذين قالوا إن العقل لا دخل له في تحديد طبيعة الحسن أو القبح ، وإن الله لو أمر بالكذب لأصبح حسناً ، ولو نوى عن الصدق لصار قبيحاً . وقد رفض هذا الرأى لسببين : وهما أنه مضاد للعقل من جانب ، ومخالف لروح الشرع من جانب آخر . أما مضادته للعقل فذلك ما تشهد به البدهة . فإننا ندرك بحواسنا وعقولنا أن هناك أشياء حسنة وأخرى قبيحة ، وأن الحسن والقبح فيهما لذاتهما ، فليس الحسن والقبح إذن أمرين اعتباريين ، بل هما حقيقتان . وهذا الرأى مضاد للعقل من جهة أخرى ، إذ لو كان الشرع هو الذى يحدد صفة القبح أو صفة الحسن في الأشياء لحاز القول بأن الشرك بالله ليس قبيحاً في ذاته ، وأنا لو فرضنا أن الشرع جاء ينادى به بدلاً من التوحيد لانقلبت طبيعته فأصبح خيراً وحسناً .

وأما أن هذا الرأى ، الذى ينكر الحسن والقبح الذاتيين ، يخالف روح الشرع

( ١ ) مقدمتنا في نقد مدارس علم الكلام لكتاب مناهج الأدلة .



فذلك لأنه يناقض كثيراً من الآيات القرآنية التي تصف الظلم بالقبح ، والتي تنفيه عن الله سبحانه ، وهي تلك الآيات التي يستخدمها أيضاً لبيان وجهة نظره في الخير والشر ، مما يدعونا إلى الإشارة إليها فيما بعد ، أي عند الكلام عن الخير والشر المقابلين عنده للحسن والقبح .

#### ٧ - الخير والشر في نظر الإمام بن باديس :

يفرق بن باديس بين نوعين من الشر ، أحدهما ذاتي ، والآخر نسبي ، فالشر الذاتي هو الذي لا ينفك عن طبيعة الشيء ، كالكفر والضلال وجميع الرذائل والكوارث الطبيعية الخ ، وأما النسبي فهو الشر العارض . وهو يضرب لذلك مثالا بالمال ، وهو أحد النعم الإلهية التي قد تنقلب شراً بسبب سوء تصرف الناس فيها . فالمال خير في ذاته عندما يكتسبه الإنسان بالوسائل المشروعة وينفقه في الوجهة المشروعة قاصداً بذلك وجه الله في جمعه وإنفاقه . أما إذا أساء المرء كسبه وإنفاقه فإن المال يصبح شراً بسوء الاستخدام ، دون أن تتغير طبيعته .

والفرقة بين الخير والشر الصق بحياة الإنسان ، لأنه الكائن العاقل المكلف ، ثم إن اتصال الخير والشر بحياته أكثر ظهوراً منه بالنسبة إلى أي كائن آخر . والإنسان هو الذي حدد له الدين قوانين ثابتة للخير والشر ، وأوضح له أن الخير ما نفع ، وأن الشر ما ضر ، ولكنه ، وإن أوتي قوة التمييز ، لم يؤت قوة الاعتصام ابتلاء من الله . أما المخدول فيأتي الشر عامداً ، وهو يعلم أنه شر . وأما الموفق فيواقع الشر في مواقف يشته عليه فيها الخير بالشر ويعسر التمييز . والخير والشر لا يوزنان بميزان حسي يستوى الناس كلهم في إدراكه . وقد تدق الفوارق بينهما حتى تخفى . وفي هذه المواقف يجب الالتجاء إلى الله ليرينا الخير خيراً ، ويكشف لبصائرنا عن حقائق الشر ، فلا يلتبس علينا شيء بشيء (١) .

إذن يمكن القول بأن الإنسان يوجد على مفترق طرق بين الخير والشر . فإذا ارتضى طريق الشر كان شراً محضاً ، بل هو أحط من الشيطان الذي خلق للشر وحده ،

(١) انظر التفسير ص ٤٨٢ ، ٤٨٣ عند تفسير قوله تعالى : « قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق » .

فى حين أن الإنسان مهياً لكل من الخير والشر . ولذا فتى اتجه نحو الخير ، م ترقى فى مدارجه « شارف أفق الملاء الأعلى ، وأوشك أن يكون خيراً محضاً ، لولا أن العصمة لم تكتب إلا لطائفة منه ، وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . . . ومن هذا الجنس كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم أكمل الخلق الذى ليس لمخلوق رتبة مثله فى الكمال » (١) .

ولما كان الإنسان مهياً لقابلية الخير والشر كان من رحمة الله أن زوده بالعقل حتى يميز بين هذين الأمرين ، وليوازن بين خير الخيرين وشر الشرين . « فإن الخير درجات وأنواع ، والشر كذلك دركات وأنواع » (٢) . غير أنه لا يستطيع أن يستقل بنفسه فى معرفة جميع الفروق بين صنوف الخير والشر فى هذه الحياة التى تتلاطم به أمواجها ، وتتشابك حوادثها ومفاجأتها . لذلك فهو « يحتاج إلى معونة إلهية فى تمييز الخير والشر . وقد أمدّه الله بهذه المعونة من دينه الحق ، ومحتاج إلى تأييد إلهى يعصمه من الشر ويقيه من الوقوع فيه عن جهالة أو عمد » (٣) .

وقد يتساءل المرء فيقول : ولماذا يوجد الشر ، وكان من الممكن ألا يوجد . وتلك هى حجة الملاحدين فى كل عصر . وهى الحجة التى أبرزها « فولتير » فى القرن الثامن عشر ، فكان بسببها باعث موجة الإلحاد فى أوروبا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وهى تلك الحجة التى اعتمد عليها بعض علماء الكلام عندنا مسوقين إليها ، فيما نعتقد ، بمهاترات الجدل ، والشغف بالعناد ، لكى يبرهنوا للناس أنه لا وجود للخير والشر فى ذاتهما ، بل يوجدان حسب المشيئة الإلهية المطلقة التى لا تعلل أفعالها ، إذ من الممكن أن ينقلب الخير شراً ، والعكس بالعكس . غير أن هذه الحجة ، التى كانت وليدة المهاترة ، أدت إلى تدهور العالم الإسلامى إلى جانب أسباب عديدة أخرى .

وقد عرض الإمام بن باديس شبهة أثارها بعض علماء الكلام الذين أنكروا الخير والشر الذاتيين ، وقالوا إذا كانت أفعال الله لا تعلل بغاية أو قصد ، فكيف أمكن أن يوجد الشر « فلما نجد من عباد الله المؤمنين من يصيبه البلاء والشدة ،

(١) نفس المصدر ص ٥٠٠ . (٢) نفس المصدر ص ٤٧٥ - ٤٧٦ .

(٣) نفس المصدر ص ٤٧٥ - ٤٧٦ .

فيغضب أو يقتل ، وكأين من نبي قتل ، وقد أصاب المؤمنين يوم أحد ويوم حنين ما أصابهم<sup>(١)</sup> ؟ وهذا الاعتراض شبيه باعتراض سبق أن أثاره جماعة من علماء الكلام فقالوا : إذا كان هناك شر وخير ذاتيان « فأى صلاح فى خلق إبليس والشياطين وإعطائهم القوة على إضلال الناس ؟ ثم وجدناه تعالى أمات سريعاً من ولى أمور المسلمين بالحق والخير ، وولى عليهم زياداً والحجاج وبغاة الخوارج » إذن فأفعاله لا تعلل بحكمة أو غرض . ولو أن هؤلاء تعمقوا قليلاً فى دراسة طبيعة الشر ودوره فى العالم لاهتدوا ، مثل خصومهم : إلى القول بأن خفاء الحكمة ليس دليلاً على عدم وجودها ؟

نقول إن بن باديس عرض شبهة هؤلاء ، التى تتلخص فى التساؤل عن السبب فى وجود الشر فى العالم ، ثم وجد لها حلاً : منجده عند الماتريدى وابن رشد وهما فى رأينا سلفيان مثله فى هذه المسألة . أما جوابه فهو : إن « دفع الله يكون بأسباب وأنواع ، وعلى وجوه تختلف بسبب الحكمة ، ولا تخلو كلها من دفاع ، فإن ما يصيب المؤمنين فى أفرادهم وجماعاتهم هو ابتلاء يكسبهم القوة والجلد ، ويقوى فيهم الصبر والثبات ، وينبههم إلى مواطن الضعف فيهم ، أو ناحية التقصير منهم ، فيتداركون أمرهم بالإصلاح والمتاب . فإذا هم بعد ذلك الابتلاء أصلب عوداً وأطهر قلوباً ، وأكثر خبرة وأمنع جانباً . وإن فى صبر الصابر منهم ، وقد نزل به البلاء الذى لا يقدر على دفعه ، والظلم الذى لا يقدر على إزالته : لبعثاً للقوة فى نفس غيره ممن يأنس به ، وضعفاً فى قلب ظالمه ، وفى كليهما دفع من الله للمؤمنين »<sup>(٢)</sup> .

وجميل لدينا أن تسيطر على هذا الجواب روح التفاؤل الإسلامية التى عرفناها دائماً عند المسلمين ، رغم الكوارث التى نزلت بهم فى مختلف عصورهم ، وعند عبد الحميد بن باديس الذى كأنه يريد أن يتأسى به مواطنوه فى صبره وتفاؤله لإعداداً ليوم عظيم . ذلك أن هذا النوع من التفاؤل يدفع إلى العمل ، فى حين أن التشاؤم يقود إلى القنوط من رحمة الله وحكمته ، ويدفع الأمة إلى الانحلال ،

(١) نفس المصدر ص ٤٥٣ .

(٢) التفسير ص ٤٥٣ فى تفسير قوله تعالى : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل

خوان كفور » سورة الحج آية ٣٨ .

وربما فسر لنا هذا ما رأيناه من تحلل الدولة العباسية في أوائل القرن الرابع الهجري، عندما تشكك الناس في معايير الحسن والقبيح، والخير والشر، وخفيت عليهم حكمة الله في وجود الشر في العالم.

حقاً إن «قولتير» يسخر مسخرية لاذعة عابثة من نظرية التفاؤل التي عرضها «ليبنتر» في رسالته عن العدل الإلهي، نقلاً عن فلسفة المسلمين التي سرت إلى فلسفة المدرسين من الأوربيين في العصور الوسطى. وإن قصة «كانديد» التي ألفها «قولتير» للسخرية من بعض القيم الدينية لتتضح بالتهكم البالغ من هؤلاء المتفائلين رغم نزول جميع أنواع الكوارث بهم. ومع هذا، فإن «قولتير» لم يستطع إلا أن يختم قصته بنوع من التفاؤل، لكنه تفاؤل الرجل الأناني الذي لا يضره أن يهلك الناس ويحيا هو، فهو تفاؤل الفردية الانعزالية الذي يتلقاه «كانديد» على لسان بعض شيوخ الأتراك الذين نصحوه ألا يحاول إصلاح حال البشر، بل عليه أن يكتفي بإصلاح نفسه، بأن يؤتم بأمره الخاصة وبأن يفلح حديقته، في حين أن التفاؤل الإسلامي الحقيقي هو السمة الغالية التي دفعت جميع المصلحين والأبطال عندنا إلى بث روح الأمل في نفوس مواطنيهم، والأخذ بيدهم جميعاً لتجديد شباب هذه الأمة.

ويتساءل الإمام بن باديس آخر الأمر، فيقول: إذا كان الشر يوجد لحكمة الابتلاء وما يتبعه من صبر، ثم عمل، فهل يكلف الله عباده بالشر؟ وجوابه هنا هو أن الشر إذا وجد فلحكمة، فالله لا يرضى بالشر ولا يكلف به، وقصارى إبليس أن يزين الشر ويلبسه بالخير. «فالشر بيد الله خلقة وحكمة، لا رضاً وتكليفاً، والخير بيد الله خلقة وحكمة ونعمة وأمر»، وهذا جواب من جوامع الكلم.

#### ٨- الشر والخير في نظر الماتريدي وابن رشد:

ومن الأمانة في البحث أيضاً أن نقرر أن أبا منصور الماتريدي استطاع أن يخرج من حومة الجدل التي فرقت بين علماء الكلام لكي يلحق برأى السلف الذي يطابق الكتاب والسنة ويطابق العقل في آن واحد. فالماتريدي يقول بوجود



الخير والشر الذاتيين ، ويرى أن صلاح العالم يقتضى بالضرورة وجود الشر فيه إلى جانب الخير . فإله يريد خلق الشر لا لذاته ، ولكن لما يترتب عليه من خير . فإله لا يأمر بالشر ولا يريد له لذاته كذلك يعترف من جانب آخر أن العبد له قدرة وتمييز ، فهو يعلم الشر ، وقد يقع فيه عامداً . ولذا يكون أهلاً للعقاب ، وقد يقع فيه عن جهل . والكفر أحد الشرور ، وإله لا يرضى لعباده الكفر ، كما أن إله لا يخلف وعده . فهؤلاء الذين سلكوا طريق الخير هم الذين عرفوه بعقولهم أووضحه لهم الدين ، عندما تدق الفروق بين الخير والشر . ولا يتخلف ما وعد إله به عباده الصالحين . أما القول بعقاب المؤمن بحجة المشيئة المطلقة فأمر لا يتصوره العقل والشرع ، لأن الظلم شر ، وهناك كثير من الآيات التي تنفي الظلم عنه سبحانه كقوله تعالى : « وما ربك بظلام للعبيد » ، أما العفو عن العصاة بمقتضى علمه الأزلي ، فلا يستقبح في العقل ولا في الشرع ، إذن من الجائز أن يشمل إله بعفوه من أراد . ويكون ذلك منه فضلاً ورحمة .

أما ابن رشد فإنه يصف هؤلاء الذين ينكرون وجود الخير والشر الذاتيين ويجوزون عقاب المؤمن وإثابة العاصي ، احتجاجاً بقدرة إله المطلقة ، وبأنه لا يخضع لشرعية ، بأنه رأى غريب في الشرع والعقل معاً ، بل هو غاية في الشناعة التي لا يقرها دين ولا منطق . فكيف هؤلاء أن يقولوا بأنه لا وجود لأشياء هي خير أو شر في ذاتها ؟ ولو كان قولهم صحيحاً ، وكان الشرع هو الذي يخلق على الأشياء صفات ليست فيها لحاز ألا يكون الشرك شراً وجوراً في ذاته ، وإنما يوصف بهذين الوصفين بسبب تحريم الشرع له ، بحيث لو فرضنا جلدلاً أن الشرع جاء ينادى بالشرك بالله لانقلبت طبيعته مباشرة ، وأصبح خيراً وعدلاً ، وماذا يقول هؤلاء في تأويل الآيات الصريحة التي جاء بها القرآن الكريم ، والتي يصف إله فيها نفسه بالعدل ؟ فمن هذه الآيات : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد » ، وقوله تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » ، وقوله عز وجل : « إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون » ، وقوله « ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد » ، وقوله : « إن الله لا يظلم مثقال

ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً .

حقاً إن هناك آيات أخرى تشهد في صالح الرأي المضاد الذي يقول بأن أفعال الله سبحانه لا توصف بأنها ظلم أو عدل ؛ لأن الله ليس مكلفاً بشرع يحدد له الخير والشر بل له الملك يتصرف فيه كما يشاء دون أن يوصف بالظلم . غير أن هذا الاعتراض مردود عليه لدى ابن رشد سلفاً بأن الله لا يجب الظلم ، ولا يرضى لعباده الكفر ، وإذا كان لا يرضى لهم الكفر وجب الاعتراف بضرورة تأويل مثل هذه الآيات التي توهم نسبة الظلم والإضلال إليه . بأن يقال : إن الله علم ميلهم إلى الضلال فأضلهم ، أو علم ميلهم إلى الهدى فهداهم . ومن قبل رأينا أن بن باديس أشار إلى حل شبيه بذلك عند ما ذكر لنا مثال الأب مع ولديه اللذين علم أن أحدهما سيمتثل ، والآخر سيعتصم . فآله أخذ الميثاق على خلقه . فمنهم من وفى بعهده ومنهم من أخلف . ثم نجد ابن رشد يهاجم من يقولون بجواز أن يفعل الله ما لا يرضاه ، أو يأمر بما لا يريده ويقول : فنعوذ بالله من هذا الاعتقاد في الله سبحانه . . . وقد يدل على أن الناس لم يضلوا ولا خلقوا للضلال ، قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها » ، وقوله : « وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم » الآية . وقول النبي صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة . . » الحديث .

وتأويل الآيات التي توهم أن الله يأمر بالشر أو يريده لعباده ليس مخالفاً للشرع والعقل ، فهذه الآيات لا تدل على أن الله يريد الشر لبعض عباده بل معناه أنه تعالى خلق الناس وفيهم استعداد لكل من الخير والشر . فقد اقتضت حكمته أن بعض هؤلاء سوف يتجه إلى الشر . « فإن قيل فما الحاجة إلى خلق صنف من المخلوقات يكونون بطباعهم مهينين للضلال وهذا هو غاية الجور ، قيل إن الحكمة الإلهية اقتضت ذلك ، وإن الجور كان يكون في غير ذلك ، وذلك أن الطبيعة التي منها خلق الإنسان والتركيب الذي ركب عليه ، اقتضى أن يكون بعض الناس ، وهو الأقل ، أشراً بطباعهم ، وكذلك الأسباب المترتبة من خارج لهداية الناس لحقها أن تكون لبعض الناس مضلة ، وأن تكون لأكثر الناس مرشدة ، فلم يكن بد بحسب ما تقتضيه الحكمة من أجد أمرين : إما ألا يخلق الأنواع التي

وجد فيها الشر في الأقل ، والخير في الأكثر ، فيعدم الخير الأكثر بسبب الشر الأقل ، وإما أن يخلق هذه الأنواع فيوجد فيها الخير الأكثر مع الشر الأقل ، ومعلوم بنفسه أن وجود الخير الأكثر مع الشر الأقل أفضل من إعدام الخير الأكثر . . . وهذا السر من الحكمة هو الذي خفي على الملائكة حين قال الله سبحانه ، حكاية عنهم حين أخبرهم أنه جاعل في الأرض خليفة يعني آدم : « قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك . . إلى قوله » إني أعلم ما لا تعلمون « ، يريد أن العلم الذي خفي عليهم هو أنه إذا كان وجود شيء من الموجودات خيراً وشرّاً ، وكان الخير أغلب عليه ، أن الحكمة تقتضي إيجادها لا إعدامها .

وقد حرصنا على إيراد هذا النص الطويل حتى يستطيع من يشاء أن يقارن هنا بين رأي كل من بن باديس وابن رشد — ومن قبل سبقهما الماتريدي إلى ذلك ، وهم جميعاً في رأي على مذهب السلف في هذه المسألة أيضاً .

وقد أجاب ابن رشد على اعتراض يمكن توجيهه وهو : ما الحكمة في ورود هذه الآيات المتعارضة في القرآن ، حتى يجب التأويل ، مع أنك تمنع التأويل ؟ فقال إن التأويل في هذه المسألة واجب ، لأن الناس في حاجة إلى معرفة أن الله هو الذي يخلق كلا من الخير والشر ، حتى لا ينزلق العامة إلى اعتقاد أن هناك إلهاً للخير وآخر للشر . ولما كان الإضلال شرّاً ، وكان لا خالق له سواه وجب أن ينسب إليه ، كما ينسب إليه خلق الشر ، لكن ليس ينبغي أن يفهم على هذا الإطلاق ، بل على أنه خالق للخير لذات الخير ، وخالق للشر من أجل الخير أعني من أجل ما يقترن به من الخير ، فيكون على هذا خلقه للشر عدلاً منه ، ثم ضرب لنا مثلاً بالنار التي خلقت لضرورتها في نظام الكون ، والتي قد تؤدي إلى الإضرار ببعض الموجودات ، لكن ما ينجم عنها من شر لا يعادل ما يترتب عليها من خير . ومن قبل ضرب لنا بن باديس مثال المال<sup>(١)</sup> .

وإذا كان الله يخلق الشر القليل إلى جانب الخير الكثير لصلاح العالم ، فالله لا يرضى لعباده الشر كالكفر مثلاً ، بل خلق لهم قدرة تصلح للضدين . ولذا فهم مسئولون عما يختارون . وهذا هو ما يؤكد العقل ، ويتفق مع الدين ، وإلا لما كان للشواب والعقاب معنى ، ولما كان الإنسان مجبوراً على أفعاله من إيمان أو كفر ، ثم يثاب



أو يعاقب على شيء لم يردده لنفسه .

وهكذا نلاحظ أن رأى كل من الماتريدى وابن رشد وابن باديس يتفق مع عدل الله وحكمته ، ومع ما يوجبه العقل والحس معاً من إثبات حرية الإنسان واختياره . وهكذا نستطيع أن نفهم لماذا قلنا إن عبارة ابن باديس تعد من جوامع الكلم ، عندما قال يلخص هذا الموقف السلفي أو الإسلامي الصحيح الذى يثبت فى آن واحد قدرة الله وحكمته وعدله من جانب ، ويؤكد من جانب آخر كرامة الإنسان عندما وهبه الله العقل وحرية الاختيار والقدرة على اختيار أحد الضدين ، وجعل فى ضلال بعضهم صلاحاً لنظام العالم . وهذه العبارة هى قوله :

« فالشر بيد الله خلة وحكمة ، لارضاً وتكليفاً ، والخير بيد الله خلة وحكمة ونعمة وأمرأ » .

وبقى أن نقرر أن هذا الحل الذى اهتدى إليه هؤلاء الأئمة الثلاثة يعد أفضل حل للتزاع الذى فرق بين علماء الكلام فى مشكلة القضاء والقدر . فقد انقسم هؤلاء المتكلمون إلى فريقين رئيسيين : رأى أحدهما أن أفعال الله لا توصف بأنها عدل أو جور ظناً منهم أنهم يتجنبون بذلك السؤال الشائك وهو : هل يخلق الله الخير كما يخلق الشر ، فيوجد كل منهما وجوداً ذاتياً ؟ أى أن هذا الفريق لم يجرؤ على مجابهة مشكلة خلق الشر الذاتى فى العالم . أما الفريق الآخر الذى نسب العدل إلى الله سبحانه ، على نحو ما تنسب هذه الصفة إلى الإنسان فقد مائل بين الخالق والمخلوق . ولو كان حقاً ما قاله الفريق الأول لكان معنى ذلك أنه ليس ثمة شيء فى العالم يمكن أن يوصف بأنه خير أو شر فى ذاته ، ولو صح ما قاله الفريق الثانى لوجب أن ننكر البداهة نفسها ، وهى أن هذا العالم لا يخلو من شرور . وقد استطاع كل من الماتريدى وابن رشد وابن باديس أن يجابهوا مشكلة خلق الشر ، فقالوا : لا خالق له إلا الله ، ولكن يخلقه لحكمة ، وهو أن وجود الشر الأقل إلى جانب الخير الأكثر هو لصلاح العالم ، وهو سر الحكمة التى خفيت على الملائكة عندما سألوا الله سبحانه وتعالى : كيف يخلق من يفسد فى الأرض ويسفك الدماء . . ؟



ونلاحظ أن هذا الحل الإسلامى الذى يتفق مع القيم الإسلامية قد انتقل إلى فلسفة توماس الأكوينى الذى يزعم المسيحيون أنه قهر الفكر الإسلامى، ممثلاً فى فلسفة ابن رشد الدينية . وتلك هى إحدى الأساطير التى يحكيها الغرب حول تفكيرنا الإسلامى . ذلك أن توماس الأكوينى انتهى أخيراً إلى قبول هذا الحل الذى اهتدى إليه ابن رشد ، والذى يتفق مع تقليد الله وتنزيهه عن كل نقص ، فارتضاه لنفسه بعد أن عجز عن العثور على رأى اسلامى آخر يفضل له لدى الفلاسفة أو المتكلمين . لذلك نراه يحتج ، مثل ابن رشد ، احتجاجاً عنيفاً ضد هؤلاء الذين يقولون إن الله لا يخلق الشر ، ويتهمهم على غرار ما فعل فيلسوفنا ، بأنهم يتجهون إلى التسليم بوجود إلهين أحدهما يعد مبدءاً للخير ، فى حين يعتبر الآخر مبدءاً للشر . كذلك نلمح لديه نوعاً من التفاؤل الذى نراه لدى أبى الوليد بن رشد ، فهو يتبعه خطوة بخطوة ، ويشرح مثله، تماماً وينفك الأمثلة ، كيف أن نظام العالم واتساقه يتطلبان وجود شر قليل إلى جانب خير كثير، فهو يقول مثلاً : لكن نظام العالم يقتضى . . . أن تكون بعض الأشياء ناقصة، وإذن فالله سبحانه سبب (يخلق) الفساد والنقص فى جميع الأشياء ، ولكن ذلك كنتيجة ؛ لأنه يريد به الخير والنظام للكون ، وكما لو كان ذلك بصفة عارضة<sup>(١)</sup> .

## الفصل السادس

نصوص من تفسير الإمام عبد الحميد بن باديس  
ومن كتاباته وخطبه

### ١ - النص الأول (١)

لقد وصف الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أثر تفسير الإمام عبد الحميد بن باديس في بعث الجزائر المعاصرة فقال :

« وكما أتى القرآن لأول نزوله بالعجائب والمعجزات في إصلاح البشر فإنه حقيق بأن يأتي بتلك المعجزات في كل زمان ، إذا وجد ذلك الطراز العالى من العقول التى فهمته ، وذلك النمط السامى من الهمم التى نشرته وعممته ، فإن القرآن لا يأتي بمعجزاته ، ولا يؤتى آثاره في إصلاح النفوس إلا إذا تولته بالفهم عقول كعقول السلف ، وتولته بالتطبيق العمل نفوس سامية وهمم بعيدة ، كنفوسهم وهممهم . أما انتشاره بين المسلمين بهذه الصورة الجافة من الحفظ المجرد ، وبهذا النمط السخيف من الفهم السطحى ، وبهذا الأسلوب التقليدى من التفسير اللفظى - فإنه لا يفيدهم شيئاً ، ولا يفيد بهم شيئاً . بل يزيدهم بعلأ عن هدايته ، ويزيد أعداءهم استخفافاً بهم ، وإمعاناً في التكالب عليهم : والتحكم في رقابهم وأوطانهم .

\* \* \*

هكذا فعل القدماء والمحدثون بالقرآن ، حكموا فيه نحلهم ومذاهبهم وصناعاتهم الغالبة عليهم ، فأضاعوا هديه وبلاغه ، وأبعدوا الأمة عنه ، وصرفوها عن حكمه وأسراره . ولو ذهبنا مذهب التحديد في معان الألفاظ الاصطلاحية لوجدنا المفسر من هؤلاء قليلاً .

\* \* \*

ثم كانت المعجزة بعد ذلك الإرهاص بظهور إمام المفسرين بلا منازع « محمد عبده » أبلغ من تكلم في التفسير بياناً لهديه ، وفهماً لأسراره ، وتوفيقاً بين آيات

---

( ١ ) تفسير بن باديس - نشرته دار الكتاب الجزائرى سنة ١٩٦٤ ص ٢٨ - ٣٢ .

الله في القرآن ، وبين آياته في الأكوان . فيوجد هذا الإمام وجد علم التفسير وتم ، ولم ينقصه إلا أنه لم يكتبه بقلمه كما بينه بلسانه ، ولو فعل لأبقى للمسلمين تفسيراً ، لا للقرآن ، بل لمعجزات القرآن .

ولكنه مات دون ذلك فخلفه ترجمان أفكاره ومستودع أسرارهِ « محمد رشيد رضا » فكتب في التفسير ما كتب ، ودون آراء الإمام فيه . وشرع للعلماء منهاجه . ومات قبل أن يتمه .

فانتهت إمامة التفسير بعده في العالم الإسلامي كله إلى أخينا وصديقنا ومنشئ النهضة الإصلاحية العلمية بالجزائر ، بل بالشمال الإفريقي : عبد الحميد بن باديس . وفيما يلي بعض نصوص من تفسير الإمام عبد الحميد بن باديس :

\* \* \*

## ٢ - النص الثاني

### تلاوة القرآن<sup>(١)</sup>

قد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يخلى ليله ونهاره من تلاوة القرآن وكان - كما قال القرطبي - : يختمه في سبع . وهكذا قال لعبد الله بن عمر رضي الله عنه : « واقرأ في كل سبع ليال مرة » . وقد كان قال له أولاً : « واقرأ القرآن في كل شهر » . فلما قال له : إنه يطيق أكثر من ذلك نقله إلى العشرين وإلى الخمسة عشر ، وإلى العشرة ، وانتهى به إلى السبع في قول الأكثر . وكان هذا فعل الأكثرين من السلف .

\* \* \*

ولا شك أن أحوال حملة القرآن تختلف في التفرغ للتلاوة والاشتغال بغيرها ، وأحوال الشخص الواحد في نفسه تختلف كذلك ، فيرتب حامل القرآن حظه من الشهر إلى السبع على حسب حاله . فإذا لم يكن من حملة القرآن فلا يخلى ليله ونهاره من تلاوة شيء مما معه حسب استطاعته ، ولا يكون من الغافلين .

\* \* \*

زعم قوم : أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم خير لعامة الناس من تلاوة القرآن ، قالوا : لأن الصلاة ثوابها محقق ، ولا يلحق فاعلها إثم ، والقرآن إذا تلاه العاصي كانت تلاوته عليه إثمًا لمخالفته لما يتلوه . واستدلوا على هذا بقول أنس رضي الله عنه الذي تحسبه العامة حديثاً : « رب تال للقرآن والقرآن يلعته » فأدى هذا بمعتقديه إلى ترك قراءة القرآن أو التقليل منها . فليحذر من هذا الرأي ، وما أدى إليه .

للصلاة منزلتها وفضلها ، وللقرآن فضله ومنزلته ، فليات الذاكر من الصلاة ومن غيرها من أبواب الذكر بما لا يؤدي إلى ترك أو تقليل تلاوة القرآن الذي هو أفضل الأذكار . وهذا الرأي المتقدم في تفضيل الصلاة على التلاوة مخالف تمام المخالفة لما نقلناه في : « نتيجة الاستدلال » ، عن أئمة السلف والخلف : من أن قراءة القرآن أفضل من جميع الأذكار ، ولم يفرقوا في ذلك بين عامة وخاصة . ومخالف كذلك لمقاصد الشرع من تلاوة القرآن ، وذلك من وجوه :

### وجوه المخالفة :

#### الوجه الأول :

أن المذنبين مرضى القلوب : فإن القلب هو المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، فكل معصية يأتي بها الجسد هي من فساد في القلب ، ومرض به ، وإن الله تعالى قد جعل دواء أمراض القلب تلاوة القرآن فقال : « يأيتها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » . « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » . فقصد الشرع من المذنبين أن يتلوه ويتدبروه ويستشفوا به ، بالفاظه ومعانيه . وذلك الرأي يصرف المذنبين عن تلاوته .

#### الوجه الثاني :

أن القلوب تعثر بها الغفلة والقسوة ، والشكوك والأوهام والجهالات ، وقد تراكم عليها هذه الأدران كما تراكم الأوساخ على المرآة فتطمسها وتبطل منفعتها...



فهي محتاجة دائماً وأبداً إلى صقل وتنظيف بتلاوة القرآن . وقد أرشد النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذا — فيما رواه البيهقي في الشعب والقرطبي في التذكار : « إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد . قالوا : يا رسول الله فما جلاؤها ؟ قال : تلاوة القرآن » . فقصد الشارع من المذنبين أن يتلوا القرآن لجلاء قلوبهم ، وذلك الرأي يصرفهم عنه .

### الوجه الثالث :

أن الوعيد والترهيب قد ثبتا في نسيان القرآن بعد تعلمه ، وذهابه من الصدور بعد حفظه فيها : فروى أبو داود عن سعد : « ما من امرئ يقرأ القرآن ثم ينساه إلا لقي الله أجلماً » . وروى الشيخان عن عبد الله : « استذكروا القرآن فإنه أشد تفصيلاً من صدور الرجال من النعم » ، فقصد الشرع دوام التلاوة للوام الحفظ ، ودفع النسيان . وذلك الرأي أدى إلى تقليلها أو تركها الموقع في النسيان .

\* \* \*

وأما قولهم : « إن تالي القرآن يأثم بقراءته مع مخالفته » . فهي دعوى لم يقيموا عليها من نص صحيح صريح من سنة أو كتاب . بل الدليل قائم على خلافها . فإن المذنب يكتب عليه ذنبه مرة واحدة ، ولا يكتب عليه مرة ثانية إذا ارتكب ذنباً آخر ، وإنما يكتب عليه ذلك الذنب الآخر ، فكيف إذا باشر عبادة التلاوة ١٢٢ والأصل القطعي — كتاباً وسنة — أن من جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ، وهو يبطل أن تجدد له سيئاته إذا جاء بحسنة تلاوة القرآن .

وأما عن قول أنس رضي الله عنه : « رب تال للقرآن والقرآن يلعنه » ، فليس معناه أن القرآن يلعنه لأجل تلاوته . وكيف وتلاوته عبادة ؟ وإنما معناه : أنه ربما تكون له مخالفة لبعض أوامر القرآن أو نواهيه من كذب أو ظلم مثلاً ، فيكون داخلاً في عموم لعنه للظالمين والكاذبين ، فخرج هذا الكلام مخرج التقييد لمخالفة القرآن مع تلاوته . بحثاً للتألي على سرعة الاتعاظ بآيات القرآن . وتعجيل المتاب . لا مخرج الأمر بترك التلاوة والانصراف عنها . هذا هو الذي يتعين حمل كلام هذا الصحابي الجليل عليه بحكم الأدلة المتقدمة .

\* \* \*

فرتل القرآن ، وتدبر معانيه ، والتزم حلوده ، واضرع إلى الله تعالى أن يرزقك التوبة فيما عندك له من مخالفة ، تكن من الفائزين بإذن رب العالمين .

• • •

### ٣ - النص الثالث

#### عموم النوال من الكبير المتعال<sup>(١)</sup>

« كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً »  
( الآية ٢١ ، ٢٢ من سورة الإسراء )

#### تمهيد :

إن هذه الموجودات كلها ، علويها وسفليها مشمولة برحمة الله مغمورة بنعمته . وأول تلك النعم هو وجودها ، وذلك الوجود من مقتضى الرحمة . ثم تنوع تلك النعم الرحمانية بتنوع أجناس الموجودات وأنواعها وأصنافها وأفرادها ، وتفاوت أيضاً حسب ذلك . وينال كل حظه منها بتقدير الحكيم العليم . ومن مظاهر هذه الرحمة العامة أن كل موجود قد أعطى من التكوين ما يناسب وجوده ، وما يتوقف عليه بقاءه ، أو ارتقاؤه ، سواء أكان من عالم الجماد ، أو عالم النبات ، أو عالم الحيوان .

وقد مضى قبل هذه الآية ذكر مريدى العاجلة الذين لا يعملون إلا لها ، وما أعد لهم من عذاب النار ، وذكر مريدى الآخرة بأعمالهم في الدنيا ، وما أعد لهم من حسن الجزاء . فحالتهم في الآخرة متباينة ، هؤلاء في النعيم المقيم ، وأولئك في العذاب الأليم ، هذا في الآخرة .

وأما في الدنيا فإنهم قد أعطوا من نعم الحياة ، ومكنوا من أسبابها ، فقد تساوا في الحلقة البشرية ، وفي العقل المميز المفكر ، وفي الإرادة الحرة ، وقد

أظلتهم السماء وأصابتهم نعمة الشمس والقمر والكواكب وما ينزل من السماء .  
وقد أقلتهم الأرض وشملتهم نعمة الهواء والماء ، والغذاء والدواء ، من النبات  
والحيوان والجماد ، وكل ما يخرج من الأرض . وشاهدوا كلهم آيات الله الكونية  
الدالة عليه ، وجاءتهم كلهم رسل الله بآياته السمعية داعية إليه . فاختار كل  
بعقله — وهو حر في إرادته ، حرية لا يمكن لأحد أن يكابر فيها — ما اختار لنفسه .  
وحجة الله بما تقدم قائمة عليه . وبقوا بعد ذلك الاختيار الذي اختلفت به  
منازلهم عند الله فيما أعد لهم يوم لقاءه — سواء في تلك النعم الدنيوية ، والتمكن  
من أسباب بقائها والتقدم فيها ، لافرق في ذلك بين بر وفاجر ، ومؤمن وكافر ،  
وهذا معنى قوله تعالى : « كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك » .  
وليس تعالى مانعاً كافراً لكفره ، أو عاصياً لعصيانه من هذه الحياة وأسبابها ،  
وليس أحد على منع ما لم يمنعه الله بقادر . وهذا معنى قوله تعالى : « وما كان عطاء  
ربك محظوراً » . . . .

\* \* \*

وقد أفادت الآية — حسبما تقدم — أن أسباب الحياة والعمران والتقدم فيهما  
مبدولة للخلق على السواء ، وأن من تمسك بسبب بلغ — بإذن الله — إلى مسببه ،  
سواء أكان برّاً أم فاجراً ، مؤمناً أم كافراً .  
وهذا الذي أفادته الآية الكريمة مشاهد في تاريخ المسلمين قديماً وحديثاً ،  
فقد تقدموا حتى سادوا العالم ورفعوا علم المدنية الحقبة بالعلوم والصنائع ، لما أدخلوا  
بأسبابها كما يأمرهم دينهم . وقد تأخروا حتى كادوا يكونون دون الأمم كلها  
بإهمال تلك الأسباب ، فخسروا دنياهم ، وخالفوا مرضاة ربهم ، وعوقبوا بما هم  
عليه اليوم من الذل والانحطاط ، ولن يعود إليهم ما كان لهم إلا إذا عادوا إلى  
امتنال أمر ربهم في الأخذ بتلك الأسباب .

فهذه الآية من أنجح الدواء لفتنة المسلم المتأخر بغيره المتقدم ، لما فيها من بيان  
أن ذلك المسلم ما تأخر بسبب إسلامه ، وأن غيره ما تقدم بعدم إسلامه ، وأن  
السبب في التقدم والتأخر هو التمسك والترك للأسباب ، ولو أن المسلم تمسك بها كما  
يأمره الإسلام ، لكان — مثل سالف أيامه — سيد الأنام .

\* \* \*

#### ٤ - النص الرابع

##### دعاء غير الله <sup>(١)</sup>

من دعا غير الله ، فقد عبد ما دُعا وهو في عبادته من الخاسرين .  
 « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً .  
 أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ،  
 ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محذوراً . »  
 ( الآيتان ٥٧ ، ٥٨ من سورة الإسراء )

#### الأحكام :

تدل الآية على أن دعاء غير الله تعالى لدفع الضر - ومثله جلب النفع - عبادة للمدعو ، فإن المشركين كانوا يتعبدون لألهتهم بهذا الدعاء ، الذي نهى الله تعالى عنه ببيان خيبتهم فيه ، ووقوعه في غير محله . وتسمية الدعاء عبادة ثابتة لغة وشرعاً بغير ما دليل : منها حديث النعمان بن بشير عند أحمد وأصحاب السنن مرفوعاً : « الدعاء هو العبادة » . وحديث أنس عند الترمذي مرفوعاً : « الدعاء مخ العبادة » ، وهذا لأن العبادة هي الخضوع والتذلل ، لمن بيده الخلق والتصرف والعطاء والمنع ، ومظهر هذا الخضوع والتذلل هو الدعاء لدفع الضر ، أو جلب النفع . فلذلك عبر عنه في الحديث الأول بأنه هو العبادة ، أي معظمها ، وفي الثاني بأنه مخ العبادة أي خالصها .

ودلت الآية أيضاً على أنه لا يجوز دعاء غير الله من المخلوقين ، أي مخلوق كان ، لدفع ضر - ومثله جلب نفع - لأن الآية نعتت على المشركين دعاءهم من لا يملك كشف الضر ولا تحويله ، وهذا أمر يشترك فيه جميع المخلوقين ، فلا مخلوق يستطيع كشف الضر أو تحويله عن نفسه ولا عن غيره . فلا مخلوق يجوز دعاؤه .

ودلت على أن كشف الضر أو تحويله - ومثله جلب النفع - إنما هو للمعبود الحق ، لأن الآية استدلت عليهم في مقام الأمر بتوحيد الله بالعبادة بانتفاء



ملك كشف الضر أو تحويله عن غير الله ، فأفاد ذلك قصرَ هذا التصرف عليه تعالى وحده .

### استنتاج :

لما ثبت شرعاً أن الدعاء عبادة — فمن دعا شيئاً فقد عبده ، ولو كان هو لا يسمى دعاءه عبادة جهلاً منه ، أو عناداً ، لأن العبرة بتسمية الشرع واعتباره ، لا بتسمية المكلف واعتباره . ألا ترى لو أن شخصاً قام للصلاة بدون وضوء مستحلاً لذلك ، فلما أنكرنا عليه قال : اننى لا أعتبر هذه الأفعال والأقوال عبادة ، ولا أسميها صلاة . أترى ذلك يميز فعله ، ويدفع عنه تبعته ؟ كلا ! ولا خلاف في ذلك بين المسلمين . بل قد حكموا بردته إن كان يفعل ذلك ويراه حلالاً ، لأنه يكون قد أنكر معلوماً من الدين بالضرورة . فالداعي لغير الله تعالى يطلب منه قضاء حوائجه ، قد عبد من دعه ، وإن لم يعتبر دعاءه عبادة ، لأن الله قد سماه عبادة . وإذا استمر على فعله ذلك مستحلاً له بعد تعليمه وإرشاده ، يكون قد أنكر معلوماً من الدين بالضرورة ، وهو أن العبادة — والدعاء منها — لا تكون إلا لله ، فيحكم بردته ، نظير مستحل الصلاة بلا وضوء ، بلا فارق .

### تطبيق :

إذا علمت هذه الأحكام فانظر إلى حالتنا — معشر المسلمين الجزائريين ، وغير الجزائريين — تجدد السواد الأعظم من عامتنا غارقاً في هذا الضلال . فتراهم يدعون من يعتقدون فيهم الصلاح من الأحياء والأموات ، يسألونهم حوائجهم من دفع الضر ، وجلب النفع ، وتيسير الرزق ، وإعطاء النسل ، وإنزال الغيث ، وغير ذلك مما يسألون ، ويذهبون إلى الأضرحة التي شيدت عليها القباب أو ظلمت بها المساجد فيدعون من فيها ، ويدقون قبورهم وينذرون لهم ويستشيرون حميتهم ، بأنهم خدامهم وأتباعهم ، فكيف يتركونهم؟ .. وقد يهددونهم بقطع الزيارة ، وجبس النذور ، وتراهم هنالك في ذل وخشوع ، وتوجه قد لا يكون في صلاة من يصلى منهم . فأعمالهم هذه من دعائهم وتوجههم كلها عبادة لأولئك المدعويين : وإن لم

يعتقلوها عبادة . إذ العبرة باعتبار الشرع ، لا باعتبارهم .  
 فباحسرتنا على أنفسنا كيف لبسنا الدين لباساً مقلوباً ، حتى أصبحنا في  
 في هذه الحالة السيئة من الضلال .

### تحذير وإرشاد :

فليحذر قراؤنا من أن يتوجهوا بشيء من دعائهم لغير الله ، وليحذروا غيرهم  
 منه . وينشروا هذه الحقائق بين إخوانهم المسلمين ما استطاعوا ، عسى أن يتنبه  
 الغافل ، ويتعلم الجاهل ، ويقلع الضالون عن ضلالهم ، ولو بطريق التدريج . وبذلك  
 يكون قراؤنا قد أدوا أمانة العلم ، وقاموا بفريضة النصيح ، وخدموا الإسلام والمسلمين .

• • •

### التطبيق :

نعرف كثيراً من الصالحين — رحمهم الله تعالى — قد شيدت عليهم القباب  
 وزادت لهم النذور ، وقصدوا لقضاء الحاجات ، ودعوا في المهمات ، وكان ذلك  
 كله مما أحدثه المحدثون بعدهم ، وبالغ فيه المستغلون له ، ممن يتمنون إليهم . فهم  
 — إن شاء الله تعالى — براء من إثم ذلك كله ، وإنما إثمهم على فاعليه . . . .

• • •

فحذار يا إخواننا من هذه العاقبة السيئة ، وهذا الموقف المخزى ، فبادروا  
 إلى توحيد الله بالدعاء الذي هو مخ العبادة ، واقتصروا في جانب الصالحين على  
 محبتهم والرضية عليهم وسؤال الرحمة لهم ، والاقتداء بهم فيما كان منهم من طاعة  
 وخير ، ولا تعظموهم بما لا يكون إلا لله رب العالمين .

• • •

## ٥ - النص الخامس<sup>(١)</sup>

### أ - الخوف والرجاء

#### ب - الاعتدال في الإنفاق

١ - وزعم قوم أن أكمل أحوال العابد أن يعبد الله تعالى لا طمعاً في جنته ولا خوفاً من ناره، وهذه الآية<sup>(٢)</sup> وغيرها رد قاطع عليهم، ومثلها قول إبراهيم عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين»، في نصوص لا تحصى كثرة. وزعموا أن كمال التعظيم لله ينافية أن تكون العبادة معها خوف من عقابه أو طمع في ثوابه، وأخطأوا فيما زعموا؛ فإن العبادة مبناها الخضوع والذل والافتقار، والشعور بالحاجة والاضطرار؛ وإظهار العبد هذه العبودية بآتمها. ومن أتم مظهر لها أن يخاف ويطمع كما يذل ويخضع، ففي إظهار كمال نقص العبودية القيام بحق الإجلال والتعظيم للربوبية، ولهذا كان الأنبياء عليهم وآلهم الصلاة والسلام، وهم أشد الخلق تعظيماً لله أكثرهم خوفاً من الله، وتعوذاً من عذاب الله وسؤالاً لما عند الله، وكفى بهم حجة وقدة، وأن هذه المقالة تكاد تفضي إلى طرح الرجاء والخوف، وعليهما مبنى الأعمال لما فيهما من ظهور العبودية بالذل والاحتياج، ومن دعاء القنوت الثابت المحفوظ: «وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخاف عذابك الجدد»، وهذا ضروري في الدين.

ولكن مثل هذه المقالة إنما يجر إليها الغلو، وقلة الفقه في الدين، في الكتاب والسنة، وما كان عليه هدى السابقين الأولين...

\* \* \*

(١) نفس المصدر ص ٢٦٧ - ٢٧١.

(٢) وهي قوله تعالى: «والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً إنها

سأت مستقراً مقاماً». (سورة الفرقان آية ٦٥ - ٦٦)

ب - « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواماً » .  
آية ٦٧ من سورة الفرقان

### تطبيق :

حالة وطننا في الأعم الأغلب في الولاثم والمآثم لا تخاو من السرف فيها ، الذي يؤدي إلى التقتير من بعدها فيكون الإثم قد أصاب صاحبها بنوعيه ، وأحاط به من ناحيته ، والشر يجر الشر ، والإثم يهتدي إلى مثله ، وعلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين علق كثير - ممن سمعناهم يشكون هذه الحالة - آمالهم في معالجتها ، خصوصاً في المآثم . حقق الله الآمال .

و ثم نوع آخر موجود في غالب القطر ، ويكثر في بعض الجبال ، وهو أن بعض المأمورين من بعض شيوخ الطوائف يأتون بثلة من أتباعهم ، فينزلون على المنتمين إليهم من ضعفاء الناس فيذبح لهم العناق إن كانت ، ويستدين لشرائها إن لم تكن ، ويفرغ المزود ، ويكنس لهم ما في البيت ، ويصبح معدماً فقيراً مديناً . ويصبح من يومه صبيته يتضاغون ، ويمسى أهل ذلك البيت المسكين يطحنهم البؤس ، ويميتهم الشقاء ميتات متعددة في اليوم .

وشر ما في هذا الشر أنه يرتكب باسم الدين ، ويحسبه الجهال أنه قربة لرب العالمين ، فأما إذا جاء وقت شد الرحال إلى الأحياء والأموات ، وتقديم النذور والزيارات ، فحدث هنالك عن أنواع السرف والتكلفات ، والتضييع للحقوق والواجبات .

فياليت الذين تأتيهم تلك الوفود يسألونهم فرداً فرداً عن حالهم . ومن أين بما جاءوهم به من أموالهم ، فعساهم أن يطلعوا على بؤس أولئك المساكين ، فترق لهم قلوبهم . ويرجعوا إليهم ما لهم أو يزيدوهم من عندهم . وليقتصروا على من يجلونهم أهل قدرة على ما دفعوه لهم من أموالهم .

فهذه نصيحة إذا عملوا بها تخففت من الشر والبؤس عن الزائرين ، ومن الإثم واللوم عن المزورين . فهل بها من عاملين ؟ وفقنا الله والمسلمين .



٦ - النص السادس<sup>(١)</sup>

## الفرار إلى الله

جاء في تفسير الإمام بن باديس لقوله تعالى :

« والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون ، والأرض فرشناها فنعم الماهدون ، ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله إنني لكم منه نذير مبين ، ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إني لكم منه نذير مبين » :

هذا العالم بسماؤه وأرضه وأزواجه هو فتنة للإنسان بما فيه من لذائذ ومن جمال ، وما فيه من سلطان . وقد ركبت في الإنسان شهواته وأهوائه ، وسلط عليه الشيطان يغريه ويزين له . فكل هذا العالم ، إذا ذهب فيه الإنسان مع أهوائه وشهواته تحت إغراء الشيطان وتزيينه ، فإنه ينحط إلى أسفل سافلين ، ويصير عبداً لأهوائه وشهواته وشيطانه ، ولكل ما فتنه من العالم وذهب بلبه . وقد ينتهي به ذلك إلى عبادته من دون خالقه . فالعالم بهذا الاعتبار شر وبلاء وهلاك يجب الفرار والهرب منه ، ولا يكون هذا الفرار منه إلا إلى خالقه بالإيمان به ، والتصديق لرسله ، والدخول تحت شرعه . فبذلك يعرف الإنسان كيف يجعل حداً لأهوائه وشهواته ، وكيف يضبطها بنطاق الشرع وزمامه ، وكيف يدفع عنه كيد شيطانه ، وكيف يتناول سماء العالم وأرضه وأزواجه بيد الشرع ، فيعرف ما فيها من نعمة وحكمة ، فيستغلها بهداية الشرع ، مفرقاً - علمياً وعملياً - بين منافعها ومضارها ، فيعظم بها انتفاعه ، ويزداد فيها اطلاعاً واكتشافه ، فتضاعف عليه منها الخيرات والبركات ، ويزداد علمه وعرفانه ، ويقوى يقينه وإيمانه ، ويعظم لله بره وشكرانه . فيكون له ذلك العالم جنة الدنيا وقنطرة لجنّة الأخرى ، ويفوز من الدارين بالمبتغى . كل هذا بفراره من المخاوف إلى خالقها ، فسلم من شرها ، وفاز بخيرها ، فن هرب من المخاوف إلى خالقها نجاة . ومن فر من الخالق إلى شيء من مخلوقاته كان من الهالكين .

إرشاد وتعميم : كل ما يصيب الإنسان من محن الدنيا ومصائبها وأمراضها ونحوصاتها ومن جمع بلائها لا ينجيه من شيء منه إلا فراره إلى الله ، ففي العدالة

( ١ ) مجلة الشهاب الجزء الأول من المجلد الخامس عشر فبراير ١٩٣٩ ص : ٧ ، ٨ ، ٩ .

الشرعية ما يقطع كل نزاع ، وفي المواعظ الدينية ما يهون كل مصاب ، وفي الهداية القرآنية والسيرة النبوية ما ينير كل سبيل من سبل النجاة والسعادة في الحياة . يعرف ذلك الفقهاء القرآنيون السنيون . واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون .

**تنبيه على وهم :** ليس الفرار من الأمراض بمعالجتها ، ومن المصائب بمقاومتها فراراً من الله ، لأن الأمراض هو قدرها ، والأدوية هو وضعها ، ودعا إلى استعمالها والتعالج بها ، وكذلك المصائب وما شرع من أسباب مقاومتها . فكلها منه بقدره ، والإنسان مأمور منه بأن يعالج ويقاوم ، فما فر من قدره إلا إلى قدره . ولهذا لما قال أبو عبيدة لعمر رضي الله عنهما في قصة الوباء: أفراراً من قدر الله يا عمر؟ فقال عمر: « نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله » وفي الحقيقة كان الفرار من شرف مخلوق إلى الله يرجو منه الخير في غيره .

**تحذير من جهالة :** ليس المقصود بالفرار من الدنيا ترك السعي والعمل ، وتعاطي الأسباب المشروعة ، لتحصيل القوت ورغد العيش ، وتوسيع العمران وتشيد المدنية ، بل المقصود الفرار من شرورها وفتنتها . وتناول ذلك كله على الوجه المشروع هو من الفرار إليه ، والدخول تحت شرعه ، كما قدمناه . وقد ضل قوم ، فزعموا ذلك طاعة وعبادة ، فعطلوا الأسباب وخالفوا الشريعة ، وحادوا عما ثبت من السنة . وفيهم مثل إمام الحديث والسنة أحمد بن حنبل رحمه الله ، مثل عن القائل : أجلس لا أعمل شيئاً حتى يأتي رزقي فقال : « هذا رجل جهل العلم ، أما سمع قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي ، وقوله تغدو خماصاً وتروح بطاناً ؟ وكان الصحابة يتجرون في البر والبحر ، ويعملون في نخيلهم وبهم القدوة » .

**تطبيق :** إذا رأينا طائفتين من المؤمنين تنازعتا ، فأما إحدهما فالتجأت إلى السلطان تستغيثه وتستعين به وتحطب في حبله ، فأغاثها وانتقم لها وأمدّها وقربها وأدناها . وأما الأخرى فلم تستغث إلا بالله ، ولم تستنصر إلا به ، ولم تعتمد إلا عليه ولم تعمل إلا فيما يرضيه من نشر هداية الإسلام وما فيها من خير عام لجميع الأنام ، وتحملت في سبيل ذلك كل ما تسببت لها فيه الطائفة الأخرى ومن تولته وهربت إليه . — إذا رأينا طائفتين عرفنا منهما — يقيناً — الفارة من الله والفارة إليه ، فكنا — إن كنا مؤمنين — مع من فر إلى الله .

## ٧ - النص السابع

## الوطن والوطنية

الحق فوق كل أحد ، والوطن قبل كل شيء<sup>(١)</sup>

بهاتين الحملتين منذ نيف وعشر سنين توجّنا جريدة «المنتقد» الشهيدة ، وجعلناها شعاراً لها تحمله في رأس كل عدد منها .

هذا أيام كانت كلمة الوطن والوطنية كلمة إجرامية ، لا يستطيع أحد أن ينطق بها ، وقليل جداً من يشعر بمعناها ، وإن كان ذلك المعنى دفيناً في كوامن النفوس ككل غريزة من غرائزها ، لا سيما في أمة تنسب في العروبة ، وتدين بالإسلام مثل الأمة الجزائرية ذات التاريخ المجيد .

أما اليوم ، وقد صارت كلمة الوطن والوطنية سؤلة على كل لسان ، وقد يقولها قوم ولا يفقهون معناها ، وقد يقولها آخرون بألسنتهم ولا يستطيعون أن يتسموا بها في المكتوب من رسمياتهم ، ويفزع منها من يتخيلون فيها ما يعرفون من وطنياتهم ، وينكرها آخرون زعماً منهم أنها ضد إنسانيتهم وعموميّاتهم . فكان حقاً لقراء «الشهاب» علينا أن نقول لهم كلمة مختصرة نبين بها حقيقة هذه الكلمة وأقسامها وأقسام الناس إزاءها ، ومن أي قسم نحن من تلك الأقسام . من نواميس الحلقة حب الذات للمحافظة على البقاء ، وفي البقاء عمارة الكون . فكل ما تشعر النفس بالحاجة إليه في بقائها فهو حبيب إليها . فالإنسان من طفولته يحب بيته ، وأهل بيته ، لما يرى من حاجته إليهم ، واستمداد بقائه منهم ، وما البيت إلا الوطن الصغير .

فإذا تقدم شيئاً في سنه اتسع أفق حبه ، وأخذت تتسع بقدر ذلك دائرة وطنه . فإذا دخل ميدان الحياة . وعرف الذين يماثلونه في ماضيه وحاضره وما ينظر إليه من مستقبله ، ووجد فيهم صورته بلسانه ووجدانه وأخلاقه ونواذعه ومنازعه —

(١) مجلة الشهاب الجزء السابع ، المجلد الثالث عشر ، رجب ١٣٥٦ هـ ، سبتمبر سنة ١٩٣٧

شعرنحوهم من الحب بمثل ما كان يشعر به لأهل بيته في طفولته ، ولما فيه — كما تقدم — من غريزة حب الذات وطلب البقاء وهؤلاء هم أهل وطنه الكبير . ومحبه لهم — في العرف العام — هي الوطنية .

فإذا غُدِّيَ بالعلم الصحيح شعر بالحب لكل من يجد فيهم صورته الإنسانية، وكانت الأرض كلها وطناً له ، وهذا هو وطنه الأكبر .

هذا ترتيب طبيعي لا طفرة فيه ولا معدل عنه . فلا يعرف ولا يحب الوطن الأكبر إلا من عرف واجب الوطن الكبير ، ولا يعرف ولا يحب الوطن الكبير إلا من عرف واجب الوطن الصغير .

والناس إزاء هذه الحقيقة أربعة أقسام :

قسم لا يعرفون إلا أوطانهم الصغيرة وهؤلاء هم الأثانيون الذين يعيشون على أمهم كما تعيش الطفيليات على دم غيرها من الحيوان ، وهم في الغالب لا يكون منهم خير حتى لأقاربهم وأهل بيتهم .

وقسم يعرفون وطنهم الكبير ، فيعملون في سبيله كل ما يرون فيه خيره ونفعه ، ولو بإدخال الضرر والشر على الأوطان الأخرى ، بل يعملون دائماً على امتصاص دماء الأمم والتوسع في الملاك لا تردهم إلا القوة . وهؤلاء شر وبلاء على غير أمهم ، فهم مصيبة البشرية جمعاء .

وقسم زعموا أنهم لا يعرفون إلا الوطن الأكبر، وأنكروا وطنيات الأمم — كما أنكروا أديانها — وعدوها مفرقة بين البشر . وعاكسوا الطبيعة جملة ، وما عرفت البشرية منذ آلاف السنين . ودلائل الفشل على تجربتهم حيث أجروا تجربتهم لا تكاد تخفى .

وقسم اعترف بهذه الوطنيات كلها وأنزلها منازلها ، غير عادية ولا معدو عليها ، ورتبها ترتيبها الطبيعي في تدرجها كل واحدة منها مبنية على ما قبلها ودعامة لما بعدها . وآمن — هذا القسم — بأن الإنسان يجد صورته وخيره وسعادته في بيته ، وطنه الصغير ، وكذلك يجدها في أمته ، وطنه الكبير ويجدها في الإنسانية كلها ، وطنه الأكبر .



وهذا الرابع هو الوطنية الإسلامية العادلة : إذ هي التي تحافظ على الأسرة بجميع مكوناتها ، وعلى الأمة بجميع مقوماتها ، وتحترم الإنسانية في جميع أجناسها وأديانها .

فهى تخاطب البشرية كلها في جميع أجناسها بقوله تعالى : « ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

وتخاطبها في جميع أديانها بقوله تعالى : « لكم دينكم ولي دين » .

وتخاطب جميع الأمم والأوطان بقوله تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » ، وبقوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » .

وهذه هى وطنيتنا معشر المسلمين الجزائريين الأفارقة ، ووطنية كل مسلم صادق في إسلامه ووطنيته .

وقد أعلنّاها يوم قلنا على رأس جريدة « المنتقد » :

( الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء ) : وصرنا على مقتضاها إلى اليوم في كل ما قلنا وكتبنا ، وسنبقى عليها - ككل مسلم جزائري - حتى نلقى الله ، إن شاء الله .

أشعب الجزائر روحى الفدا	لما فيك من عزة عريبه
بنيت على الدين أركانها	فكانت سلاما على البشرية

\* \* \*

## ٨ - النص الثامن

## الخلافة أم جماعة المسلمين

إن الخلافة هي المنصب الإسلامى الأعلى الذى يقوم على تنفيذ الشرع وحياطته بواسطة الشورى من أهل الحل والعقد من ذوى العلم والخبرة والنظر ، وبالقوة من الجنود والقواد وسائر وسائل الدفاع .

ولقد أمكن أن يتولى هذا المنصب شخص واحد صدر الإسلام وزمناً بعده - على فرقة واضطراب - ثم قضت الضرورة بتعددته فى الشرق والغرب . ثم انسلخ عن معناه الأصلى وبقي رمزاً ظاهرياً تقديسياً ليس من أوضاع الإسلام فى شىء . فيوم ألغى الأتراك الخلافة - ولسنا نبرر كل أعمالهم - لم يلغوا الخلافة الإسلامية بمعناها الإسلامى ، وإنما ألغوا نظاماً حكومياً خاصاً بهم ، وأزالوا رمزاً خيالياً فتن به المسلمون لغير جدوى ، وحاربته من أجله الدول الغربية المتعصبة للنصرانية والمتخوفة من شبح الإسلام .

علمت الدول الغربية المستعمرة فتنة المسلمين باسم ( خليفة ) فأرادت أن تستغل ذلك مرات عديدة أصيبت فيها كلها بالفشل . . . . كفى غروراً وانخداعاً . إن الأمم الإسلامية اليوم - حتى المستعبدة منها - أصبحت لا تخذعها هذه التهاويل ولوجاءتها من تحت الجيب والعمائم !

\* \* \*

للمسلمين - مثلما لغيرهم من الأمم - ناحيتان : ناحية سياسية دولية ، وناحية أدبية اجتماعية . فأما الناحية السياسية الدولية فهذه من شأن أمهم المستقلة ولا حديث لنا عليها اليوم . وأما الناحية الأدبية الاجتماعية فهى التى يجب أن تهتم بها كل الأمم الإسلامية المستقلة وغيرها ، لأنها ناحية تتعلق بالمسلم من جهة عقيدته وأخلاقه وسلوكه فى الحياة فى أى بقعة من الأرض كان ، ومع أى أمة عاش ، وتحت أى سلطة وجد . وليست هذه الناحية الإنسانية المحضة دون الناحية الأولى

في نظر الإسلام ، ولا دونها في الحاجة إلى الحفظ والنظام ، لأجل خير المسلمين على الخصوص ، وخير البشرية العام .

إن الأمم الكاثوليكية — مثلاً — على اختلاف أوضاعها السياسية وتباين مشاربها وأنظارتها فيها ، ترجع في ناهيتها الأدبية الدينية إلى مركز أعلى هو بابا روما المقدس الشخص والقول في نظر جميعهم .

نعم ليس لنا — والحمد لله — في الإسلام بعد محمد صلى الله عليه وآله وسلم شخص مقدس الذات والقول تدعى له العصمة ، ويعتبر قوله تنزيلاً من حكيم حميد . ولكن لنا جماعة المسلمين ، وهم أهل العلم والخبرة الذين ينظرون في مصالح المسلمين من الناحية الدينية والأدبية ويصدرون عن مشاور ما فيه خير أنفسهم بعيدة كل البعد عن السياسة وتدخل الحكومات ، لا الحكومات الإسلامية ولا غيرها .

لقد كنت كاتب صاحب الفضيلة شيخ الأزهر الشريف بهذا المعنى ، ولكنني لم أتلق منه جواباً ، وعرفت السبب يوم بلغنا أن إخواننا الأزهريين هتفوا — يوماً — بالخلافة لملك مصر « السابق » .

وسيرى صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر ، أن خيال الخلافة لن يتحقق ، وأن المسلمين سينتهون يوماً ما — إن شاء الله — إلى هذا الرأي <sup>(١)</sup> .

(١) ش : ج ٢ ، م ١٤ ، ص ٦١ — ٦٣ غرة ربيع الأول ١٣٥٧ هـ — مايو ١٩٣٨ .

## ٩ - النص التاسع

خطاب عبد الحميد بن باديس  
في الاجتماع العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين  
في ٢٩ رجب ١٣٥٧ (١)

الحمد لله الذي قضى بابتلاء عباده ليظهر حقائقهم ، فيجازيهم على أعمالهم ،  
والصلاة والسلام على أشرف من قاد الخلق وساقهم ، إلى سعادتهم وكمالهم ، وعلى  
آله الذين كرم الله أصولهم وجعل أخلاقهم ، وبرهنوا على النسب الشريف  
بجميل حالهم .

وعلى أصحابه الذين لم يخلق الله من فاقهم ، ولا من ماثلهم في حالهم ومثالهم ،  
وعلى كل من تبع طريقهم وتحلى من بعدهم بخلالهم .  
أما بعد ، فسلام عليكم يا أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أجمعين ،  
وسلام على مساجينكم في المساجين ، وسلام على منهيكم في المتهمين ، وسلام  
على منكوبيكم في المنكوبين ، سجون واتهامات ونكبات . ثلاث لا تبنى الحياة إلا  
عليها ، ولا تشاد الصروح السامقة للعلم والفضيلة والمدنية الحقبة إلا على اسمها ، فاليوم  
- وقد قضى الله للجمعية بهذه الثلاث - أثبتت الجمعية في تاريخ الإسلام وجودها ،  
وسجلت في صحيفة الخلود رسمها ، ونقشت في قلوب أبناء المستقبل اسمها ،  
وبرزت في ذلك كله أسماء أولئك المسجونين والمتهمين والمنكوبين نجوماً متألة  
تأخذ بالأبصار .

• • •

أيها الإخوان : إن جمعيتكم أمينة على حفظ الإسلام ولغة الإسلام في هذه الديار ،  
فإن قانونها الأساسي ينص على أنها جمعية تهديبية إرشادية ، تحارب الآفات الاجتماعية

(١) مجلة الشهاب الجزء الثامن ، المجلد الرابع عشر شعبان ١٣٥٧ أكتوبر ١٩٣٨ ص ١٠٠  
ربما بعدها .



وكل ما يحرمه صريح الشرع . وتتدرع لغايتها بكل ما تراه صالحاً نافعاً غير مخالف للقوانين المعمول بها . وأى وسيلة أقرب إلى تهذيب المسلمين ، وأى دواء أنجع في علاجهم ، من دينهم الإسلام الكريم ؟ وبأى شيء يفهمون هذا الدين ويصلون منه إلى ما فيه من تربية وتهذيب إلا بالعربية لغة القرآن العظيم ؟ وتعلم الإسلام ولغة الإسلام مباح في أصل القوانين . ولقد صدمت هذه القوانين الأصلية بمعاملات استثنائية رامية ، في فهم جميع المسلمين ، إلى مقاومة الإسلام ولغة الإسلام ، وذلك هو المشاهد من آثارها في التخليق والتعطيل .

لقد قامت الجمعية بالدفاع إزاء هذا كله ، وقامت معها جميع الهيئات أو جلها ، حتى تبين أن المسألة مسألة أمة ، لا مسألة جمعية ، وأن المسلمين لا يسكنون عن تعلم دينهم ولغة دينهم بحال .

وقد جيش على الإسلام من ناحية أخرى ، فوضعت الدائبة الإسلامية في المساومة ، فرفعت الجمعية صوتها بالتحذير والتبيين ، ووجدت من ممثلي الأمة آذاناً صاغية ، ففشلت تلك المساومة وقبرت المسألة من ذلك اليوم . والمجد والخلود للإسلام .

وهكذا لا تفتأ جمعيتكم إن شاء الله دائبة في سبيل الإسلام والعربية لغة الإسلام في دائرة القانون العام ، ولولحقتها في ذلك كل ظلم وعدوان . أيها الإخوان : قد تعاهدنا في مثل هذا العيد من السنة الماضية ، تعاهدنا على خدمة مبادئ الجمعية وتوسيع نطاق أعمالها ، ونشر هدايتها ، ونصر كل عامل من رجالها ، بصبر وتضحية وثبات . وقد وفينا - والفضل لله - بهذا العهد ، أو بما استطعنا ، في السنة الماضية ، فهل أنتم على هذا العهد فيما نستقبل من سنتنا ( أصوات بإجماع : معاهدون ) .

« والله يعلم أعمالكم ، ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » .

أيها الإخوان : قد اعتدنا في كل اجتماع عام من اجتماعاتنا أن نرفع شكوانا واحتجاجنا إلى الولاية العامة وإلى الحكومة العليا ، ولم يرد لنا جواب مرة واحدة ، بل يكون الجواب بزيادة الإرهاق وتضييق الخناق .

فصدر قانون النوادي الذي يرمي إلى إخلائها ، وحرمان الكبار من التهذيب في نواديهم ، بعد ما حرموا منه في مساجدهم ، وصدر قانون ٨ مارس الذي يرمي إلى إغلاق المدارس وحرمان المسلمين من تهذيبهم ، وتلقين دينهم وآداب دينهم ولغة دينهم . وصار من شروط إعطاء الرخصة للقليل الذي أعطيت له أن يعلم على الكيفية القديمة الخالية من كل تهذيب ، ذات العصا والقلقة والحصير ، وفي العصر الذي تتقدم فيه الأمم كل عام في أساليب التعليم نُردّ نحن إلى الوراء ، فاسمع وتعجب يا عصر المدنية والنور . وصدر أمر الولاية العامة بتحجير القسم الجنوبي من الوطن على كل منتسب للعلماء بينما تعطى الإعانات وتمنح التسهيلات للبعثات غير الإسلامية ، لتنصير أبناء وبنات المسلمين ، وصدرت الإعازات — وخصوصاً في الدوائر الممتزجة — إلى القياد<sup>(١)</sup> ومن إليهم بالابتعاد عن رجال العلم ، مما أحدث تباعداً في كثير من النواحي بين أبناء العرش الواحد ، بينما نحن نسعى للتقريب والتأليف بين جميع المتساكنين . هذا هو الجواب العملي على شكوانا واحتجاجنا .

وكذلك في أكثر اجتماعات المجلس الإداري كنا نصدر البيان إثر البيان عن خطتنا وغرضنا وأن غايتنا من أول أمرنا هي تهذيب المسلمين بدينهم ولغة دينهم في دائرة القانون ، وإننا نريد من ذلك رفع مستوى المسلمين الجزائريين العقلي والأخلاقي ، ليتعاونوا مع من يساكنونهم بكفاءة وتآخ واحترام ، وإننا نعمل لذلك بواجب ديننا ووحى ضمائرنا ، وإن كل ما أصابنا هو في سبيل تعليم الدين ولغة الدين ، فلم يرد علينا بجواب واحد ؛ بل يرد علينا بقلب الحقائق ، واختلاق التهم ، وترويج الأباطيل وبعث الأراجيف . فيكون ذلك هو الجواب العملي .

وأيتها الاخوان : فنحن مع بقائنا على جميع ما قلنا وبيننا ، واستمرارنا في موقفنا كما كنا ، لا نريد اليوم أن نرفع شكوانا ولا أن نقدم احتجاجنا . وحسبنا في هذه السنة السكوت . وكفى بالسكوت احتجاجاً عند من عرف وأنصف . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

( ١ ) يطلق هذا الاسم على الرؤساء المحليين (Caids)

## ١٠ - النص العاشر

العرب في القرآن<sup>(١)</sup>

من خطاب الأستاذ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في اجتماعها بنادى الترقى في ١٩٣٩ .

من الطبيعة العربية الخالصة أنها لا تخضع للأجنبي في شيء ، لا في لغتها ولا في شيء من مقوماتها، ولذلك نرى القرآن يذكرها بالشرف . . والأبياء لم يبعثوا إلا في مناسب الشرف ، ومنابع القوة ، ومنابت العز . . لأن الأمة التي لا تؤدي ثمن المجد لا تحافظ عليه . ثم هي أمة لا يعتمد عليها في النهوض بنفسها ولا غيرها . وإنما ذكرهم الله بذلك لينهضوا بالأمم على ذلك الأساس وهو إحياء الشرف الإنسانى في نفوسها ، وليعاملوها على ذلك الأساس بالعدل والرحمة والتكريم . . وإن أعداء البشرية اليوم وقبل اليوم يعملون إلى قتل الشرف من النفوس ليدلوا من هذا النوع ما أعز الله ، ويهينوا ما كرم الله .

والخلاصة أن عناية القرآن بإحياء الشرف في نفوس العرب ضرورية لإعدادهم لما هيئوا له من سياسة البشر . وبهذا نستعين على فهم السر والحكمة في اختيار الله للعرب ، للنهوض بهذه الرسالة الإسلامية العالمية ، واصطفائه إياهم لإنقاذ العالم مما كان فيه من شر وباطل . وهذا السر هو أن ما كانوا عليه من شرف النفس وعزتها والاعتداد بها هو الذى هياهم لذلك . ولو كانوا أذلاء لما تهيأوا لهذا العمل العظيم .

إن الأمة العربية استطاعت أن تنهض بالعالم كله وأن تظهر دين الله على الدين كله .

( ١ ) من خطاب ارتجله الأستاذ عبد الحميد بن باديس في اجتماع الجمعية العام بنادى الترقى . الشهاب الجزء الأول ، المجلد الخامس عشر من ١٩٣٩ .

## ١١ - النص الحادى عشر

## النص التقريبي لكامل التقرير الأدبي

الذى ألقاه سماحة الأستاذ عبد الحميد بن باديس

بدار جمعية التربية والتعليم ١٣٥٨ هـ

يوم اجتماعها العام صبيحة الأحد ٢٨ مايو ١٩٣٩ م

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، وعلى آله وصحبه والتابعين أجمعين إلى يوم الدين .

أما بعد : فباسم جمعية التربية والتعليم الإسلامية ، أرحب بكم أيها المستمعون الكرام ، وأشكركم على تلييتكم لنداء جمعيتكم الإسلامية الناهضة ، وأهتكم وأذكركم بأنكم كنتم منذ أربع سنوات خلّت تجتمعون في محلات غيركم .

واليوم - والحمد لله - أصبحتم تجتمعون في داركم - ولقد كنتم ضعافاً فقواكم الله ، وعززكم ورفع شأنكم .

أولا تثقون بالله ؟ إنكم بلا شك تثقون به ، ومن وثق بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم . وإذا كنتم تثقون بالله فثقوا بأنفسكم . فإن من لم تكن له ثقة بنفسه لا تكون له ثقة بالله .

وإذا كنتم تثقون بأنفسكم فثقوا بنفوس مؤمنة صادقة . ولم لا نثق بأنفسنا ؟ وقد أعطانا الله عقولا ندرك بها ، ومواهب نستسخرها لما يرضى الله ورسوله ؟

لنا مواهب مثل ما لغيرنا . ولنا من هذه القومية العربية الخالدة مثل ما لغيرنا ، ولنا من هذا التاريخ الممتد البعيد مجد وملك مثل ما لغيرنا وفوق ما لغيرنا .

ولقد أعطانا الله من هذا الدين الإنساني ، من هذا الدين العقلى الروحى ، ما يكمل عقولنا ويهذب أرواحنا ، أعطانا منه ما لم يعطه لغيرنا . لنكون قادة وسادة .

وأعطانا وطناً شاسعاً واسعاً ، مثل ما لغيرنا ، فنحن إذن شعب ماجد عظيم ، يعتز بدينه ، يعتز بلغته . يعتز بوطنه ، يعتز بقوميته ، يستطيع أن يكون فى

الرقى واحداً من هذه الشعوب وأن يفوق كثيراً من هذه الشعوب . ولنا من تاريخه الحافل ما يجعلنا نؤمن بصدق معتقدنا فيه .



إننا نعتصم بالحق ، ونعتصم بالتواضع عندما نقول : إننا شعب خالد ككثير من الشعوب . لكتنا نصف التاريخ إذا قلنا : إننا سبقناها في ميادين الحياة ، سبقناها بهدايتنا ، ونشرنا بينها الشريعة الحققة قبل أن تتكون هذه الأمم ، وسبقنا هذه الأمم في نشر الحق ، أيام كانت في ظلمات من الجهل حالكة ، أيام كانت تسبح في لجج من الأوهام والخيالات .

ذلك ما كنا فيه ، وما سنعود — إن شاء الله — إليه ، وإنما علينا أن نعرف تاريخنا ، ومن عرف تاريخه جدير بأن يتخذ لنفسه منزلة لا ثقة في هذا الوجود ولا رابطة تربط ماضينا المجيد ، بحاضرنا الأغر ، والمستقبل السعيد . إلا هذا الحبل المتين : اللغة العربية ، لغة الدين ، لغة الجنس ، لغة القومية ، لغة الوطنية الممثلة .

إنها وحدة الرابطة بيننا وبين ماضينا ، وهي وحدها المقياس الذي نقيس به أرواحنا بأرواح أسلافنا ، وبها يقيس من يأتي بعدنا من أبنائنا وأحفادنا الغر الميامين ، أرواحهم بأرواحنا . وهي وحدها اللسان الذي نعتز به ، وهي الترجمان عما في القلب من عقائد ، وما في العقل من أفكار ، وما في النفس من آلام وآمال . إن هذا اللسان العربي العزيز الذي خلم الدين وخلم العلم . وخلم الإنسان هو الذي نتحدث عن محاسنه منذ زمان ونعمل لإحيائه من منذ سنين ، فليحقق الله آمانينا .

وإن الذي يعلم تاريخ الجزائر الحديث يجزم بأن هذا الشعب شعب حي لن يموت . لقد كان هذا العيد (السنوي) يشاهد قبل عقد من السنين هذا القطر قريباً من الفناء . ليست له مدارس تعلمه . وليس له رجال يدافعون عنه ، ويموتون عليه ، بل كان في اضطراب دائم مستمر . وباليته كان في حالة هناء ، وكان أبنائنا يومئذ لا يذهبون إلا للمدارس الأجنبية ، التي لا تعطيهم غالباً من العلم إلا ذلك الفتات الذي يملأ أدمغتهم بالسفاسف ، حتى إذا خرجوا منها خرجوا جاهلين دينهم ولغتهم وقوميتهم ، وقد ينكرونها .

هذه هي الحالة التي كنا عليها في تاريخنا الحديث . وما كنا لرضى بها أو نبقى عليها ، وقد ولدتنا أمهات مسلمات جزائريات يآيين إلا أن نبقى كما ولدنا ، وتآبي ثقافتنا إلا أن نرجع إلى ما عليه كنا .

أخذنا نعمل . وهناك من سبقنا في التفكير بالعمل وهم رجال نادى ( صالح باى ) رحمه الله - ولا أقول كلهم - لم يكونوا يعملون بوحى من أنفسهم ، بل كانوا يعملون بإيعازات من غيرهم .

فلما بلغ الموعزون وبعض الموعز إليهم إلى غايتهم انتبى كل شيء ، وماتت الجمعية وهى فى المهد ، ولم تؤسس أقل تأسيس ، وأصبحت نسباً منسياً ، ومضى على ذلك حين من الدهر ، حتى جاء هؤلاء الذين يعملون العمل الخالص لوجه الله فنهضوا نهضة أوجدت ما أنتم ترون ، من اشتراء محل عظيم للتربية والتعليم ، يضم الآن من التلاميذ والتلميذات نحو الثمانمائة ، ويضم من الكبار المتعلمين ما يناهز الستين أو السبعين حسب أوقات عملهم الحيوى اللازم .

وإن فيها اليوم لمصنعاً للنسيج . وقانون هذه الجمعية ينص عليه . وينص على تعليم العربية والفرنسية لأننا قوم نريد الحياة لأنفسنا كما نحبها لغيرنا . ونكره أن ندخل الضرر على أى كان غيرنا . كما لا نرضى أن يدخل علينا الضرر أى كان غيرنا . ونحترم لغتنا ومجدنا كما نحترم لغة ومجد غيرنا .

ولأننا قوم نحب الخير فلا نحرم منه أحداً ، وما فتحنا هذه المدرسة إلا لخدمة العلم وأهله . وتربية النشء وثقيفه . وللجمعية نيات أخرى تنوى أن تقوم بها فى المستقبل إن شاء الله . تنوى أن تبعث البعثات العلمية إلى الخارج ، وتسعى جهدها فى تحقيق ما ينص عليه قانونها الأساسى من تأسيس المصناعات والملاجئ والمحلات العامة .

هذه لمحة مختصرة خاطفة ذكرتكم لكم عن تاريخكم وتاريخ نهضتكم الجليلة ، أيها الإخوان ؛ وأخيراً أشكركم ، وأشكر الله الذى هداكم ، وأشكر كل من سعى فى تحقيق نيتنا من رجال ونساء .

إننى ابتدأت حديثى بالثقة بالله والاعتماد على النفس واختتمته بهما ، فثقوا بأنفسكم وثقوا بالله . واعتمدوا عليه وعلى أنفسكم واعملوا وكونوا خير خلف لخير سلف (١) .

( ١ ) نقله من إلقاء الرئيس محمد الفيرى ومحمد الصالح رمضان : البصائر : السنة الرابعة عدد ١٧١

قسنطينة يوم الجمعة ٥ جمادى الأولى ١٣٥٨ هـ الموافق ليوم ٢٢ يونيو ١٩٣٩ م . ص : ٥٠ ، ١ ، ٢ ، ٣ و صفحة ٦ ع ١ .

## ١٢ - النص الثاني عشر

بسم الله الرحمن الرحيم  
وصلى الله على محمد وآله وسلم  
جواب صريح

## تمهيد (١)

ورد سؤال على الأستاذ الجليل محمد بن الحسن الحجوي وزير معارف  
الحكومة المغربية من الشيخ حافظ إبراهيم ريشطى من أهل العلم ببلدة شقودة .

## تلخيص السؤال

يدعى المنتسبون للطريقة التجانية :

- ١ - أن قراءة ( صلاة الفاتح ) أفضل من تلاوة القرآن ستة آلاف مرة،  
متأولين بأن ذلك بالنسبة لمن لم يتأدب بأداب القرآن (٢) .
- ٢ - أن ( صلاة الفاتح ) من كلام الله القديم ولا يترتب عليها ثوابها إلا لمن  
اعتقد ذلك (٣) .
- ٣ - وأن ( صلاة الفاتح ) علمها النبي صلى الله عليه وآله وسلم لصاحب  
الطريقة ولم يعلمها لغيره .
- ٤ - وأن مؤسس الطريقة التجانية أفضل الأولياء
- ٥ - وأن من انتسب إلى تلك الطريقة يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب،  
وتغفر ذنوبه الصغار والكبار ، حتى التبعات .

(١) رجب ١٣٥٧ هـ - سبتمبر ١٩٣٨ هـ مجلة الشهاب .

(٢) راجع ج ٢ م ٥ من الشهاب .

(٣) راجع ج ٤ م ٥ من الشهاب .

فهل الاندماج فيها غير مناف للشرعية الغراء ؟

### الجواب

١ - القرآن كلام الله و ( صلاة الفاتح ) من كلام المخلوق ، ومن اعتقد أن كلام المخلوق أفضل من كلام الخالق فقد كفر . ومن جعل ما للمخلوق مثل ما لله فقد كفر يجعله لله ندأ ، فكيف بمن جعل ما للمخلوق أفضل مما للخالق . هذا إذا كانت الأفضلية في الذات ، فأما إذا كانت الأفضلية في النفع فإن الأدلة النظرية والأثرية قاضية بأفضلية القرآن على جميع الأذكار ، وهو مذهب الأئمة من السلف والخلف . قال سفيان الثوري ( رح ) : « سمعنا أن قراءة القرآن أفضل من الذكر » نقله القرطبي في الباب السابع من كتاب « التذكار » وقال النووي ( رح ) : « واعلم أن المذهب الصحيح المختار الذي عليه من يعتمد من العلماء أن قراءة القرآن أفضل من التسبيح والتهليل وغيرهما من الأذكار . وقد تظاهرت الأدلة على ذلك » قاله في الباب الثاني من كتاب التبيان ، ومخالفته مثل هذا موجب للتبديع والتضليل .

( ١ ) وأما زعم من زعم - متأولا لتلك الأفضلية الباطلة - بأن ( صلاة الفاتح ) خير لعامة الناس من تلاوة القرآن لأن ثوابها محقق ، ولا يلحق فاعلها إثم ، والقرآن إذا تلاه العاصي كانت تلاوته عليه إثمًا لمخالفته لما يتلوه . واستدلوا على هذا بقول أنس ( رض ) الذي تحسبه العامة حديثاً : « رب تال للقرآن والقرآن يلعنه » - فهو زعم باطل لأنه مخالف لما قاله أئمة السلف والخلف من أن القرآن أفضل الأذكار ، ولم يفرقوا في ذلك بين عامة وخاصة ، ولا بين مطيع وعاص ، ومخالف لمقاصد الشرع من تلاوة القرآن ، وذلك من وجوه :

الأول - أن المذنبين مرضى القلوب ، فإن القلب هو المضخة التي إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، فكل معصية يأتي بها الإنسان هي من فساد في القلب ومرض به . والله تعالى قد جعل دواء أمراض القلب تلاوة القرآن : « يأبى الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور



وهدى ورحمة للمؤمنين » ، « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » ،  
فمقصود الشرع من المسلمين أن يتلوه ويتدبروه ويستشفوا بألفاظه ومعانيه من  
أمراضهم ، من عيوبهم وذنوبهم . وذلك الزعم الباطل يصرف المذنبين — وأينا غير  
مذنب — عن تلاوته .

الثاني — أن القلوب تعثر بها الغفلة والقسوة والشكوك والأوهام والجهالات ،  
وقد تراكم عليها هذه الأدران كما تراكم الأوساخ على المرآة فتطمسها ، وتبطل  
منفعتيها وقد يصيبها القليل منها ، أو من بعضها ، فلا تسلم القلوب على كل حال  
من إصابتها ، فهي محتاجة دائماً وأبداً إلى صقل وتنظيف بتلاوة القرآن ، وقد أرشد  
النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذا — فيما رواه البيهقي في « الشعب » والقرطبي  
في « التذكار » — : « إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد . قالوا : يا رسول  
الله ، فما جلاؤها ؟ » قال : تلاوة القرآن » فمقصود الشرع من المذنبين أن يتلوا القرآن  
لجلاء قلوبهم . وذلك الزعم الباطل يصرفهم عنه .

الثالث — أن الوعيد والترهيب قد ثبتا في نسيان القرآن بعد تعلمه ، وذهابه  
من الصلور بعد حفظه فيها . فروى أبو داود عن سعد — مرفوعاً — : « ما من  
امرئ يقرأ القرآن ، ثم ينساه إلا لقي الله أجذم » ، وروى الشيخان عن عبد الله  
— مرفوعاً — : « واستذكروا القرآن فإنه أشد تفصيلاً من صدور الرجال من النعم » ،  
فمقصود الشرع دوام التلاوة لدوام الحفظ ودفع النسيان . وذلك الزعم الباطل يؤدي إلى  
تقليلها أو تركها .

ومثل هذا الزعم في البطلان والفضلال زعم أن تالي القرآن يأثم بقراءته مع  
مخالفته . فإن المذنب يكتب عليه ذنبه مرة واحدة ، ولا يكتب عليه مرة ثانية  
إذا ارتكب ذنباً آخر . وإنما يكتب عليه ذلك الذنب الآخر . فكيف يكتب  
عليه ذنب ، إذا باشر عبادة التلاوة ؟ والأصل القطعي كتاباً وسنة — أن من جاء  
بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ، وهو يبطل أن تجدد له سيئاته إذا جاء بتلاوة القرآن .

وأما قول أنس ( رض ) : « رب تال للقرآن والقرآن يلعنه » ، فليس معناه أن  
القرآن يلعنه لأجل تلاوته ، وكيف وتلاوته عبادة ؟ وإنما معناه أنه ربما تكون له

مخالفة لبعض أوامر القرآن أو نواهيه من كذب أو ظلم مثلاً، فيكون داء خلا في عموم لعنه للظالمين والكاذبين . وهذا الكلام خرج مخرج التقييح للإصرار على مخالفة القرآن مع تلاوته بحثاً للتألي على سرعة الاتعاظ بآيات القرآن وتعجيل المتاب ، ولم يخرج مخرج الأمر بترك التلاوة والانصراف عنها . هذا هو الذي يتعين حمل كلام هذا الصحابي الجليل بحكم الأدلة المتقدمة . ونظيره ما ثبت في الصحيح : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه » ، قال الشراح - واللفظ للقسطلاني - : « وليس المراد الأمر بترك صيامه إذا لم يترك الزور ، وإنما معناه التحذير من قول الزور . فهو كقوليه عليه الصلاة والسلام : "باع الخمر فليشقص الخنازير" أي يذبحها ، ولم يأمره بشقصها . ولكنه التحذير والتعظيم لإثم شارب الخمر . وكذلك حذر الصائم من قول الزور والعمل به ليتم له أجر صيامه » ، هذا فيمن يرتكب الزور ، وهو صائم ، فيكون متلبساً بالعبادة والمخالفة في وقت واحد ، فكيف بمن كان ذنبه في غير وقت عبادة التلاوة ، فالمقصود من كلام أنس تحذيره من الإصرار على المخالفة وترغيبه في المبادرة بالتوبة ، ليكمل له أجر تلاوته بكمال حالته .

٢ - وليس عندنا من الله إلا القرآن العظيم . هذا إجماع المسلمين حتى أن ما يلقيه جبريل عليه السلام في روع النبي صلى الله عليه وآله وسلم سماه الأئمة بالحديث القدسي ، وفرقوا بينه وبين القرآن العظيم ولم يقولوا فيه كلام الله . ومن الضروري عند المسلمين أن كلام الله هو القرآن وآيات القرآن ، فمن اعتقد أن ( صلاة الفاتح ) من كلام الله فقد خالف الإجماع في أمر ضروري من الدين ، وذلك موجب للتكفير .

٣ - قد بُعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم معلماً كما صح عنه ، وعاش معلماً إلى آخر لحظة من حياته ، فتوفاه الله تعالى نبياً رسولاً . ونقله للرفيق الأعلى ، وقد أدى الرسالة ، وبلغ الأمانة ، وانقطع الوحي وانتهى التبليغ والتعليم . وترك فينا ما إن تمسكتنا به لن نضل أبداً ، وهو كتاب الله وسنته ، كما صح عنه ، هذا كله مجمع عليه عند المسلمين وقطعي في الدين . فمن زعم أن محمداً مات ، وقد بقي شيء لم يعلمه للناس في حياته ، فقد أعظم على الله الفرية ، وقدح في تبليغ الرسالة وذلك كفر . فمن اعتقد أن ( صلاة الفاتح ) علمها النبي صلى الله

عليه وآله وسلم لصاحب الطريقة التجانية دون غيره كان مقتضى اعتقاده هذا أنه مات ولم يبلغ وذلك كفر . فإن زعم أنه علمه إياها في المنام فالإجماع على أنه لا يؤخذ شيء من الدين في المنام ، مع ما فيه من الكتم وعدم التبليغ المتقدم .

هذا وقد ثبت في الصحيح أن الصحابة رضى الله عنهم سألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم كيف يصلون عليه ، فانتظر الوحي وعلمهم الصلاة الإبراهيمية ، وقد تواترت في الأمة تواتراً معنوياً ، ونقلها الخلف عن السلف ، طبقة عن طبقة ، وأجمع الناس على مشروعيتها في التشهد . ومن مقتضى الاعتقاد الباطل المتقدم أنه (ص) كتم عن أفضل أمته ما هو الأفضل ، وحرم منه قروناً من أمته وهو الأمين على الوحي وتبليغه ، الحريص على هداية الخلق وتمكينهم من كل كمال وخير ، فمن قال عليه ما يقتضى خلاف هذا فقد كذب عليه وكذب ما جاء به . ومن رجع صلاة على ما علمه هو (ص) لأصحابه (رض) بوحي من الله ورسوله ، واختيار منه تعالى فقد دخل في وعيد : « ما كان المؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن تكون لهم الخيرة من أمرهم » ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً .

٤ - لا تثبت الأفضلية الشرعية إلا بدليل شرعى ، ومن ادعاها لشيء بدون دليل فقد تجرأ على الله ، وقفا ما ليس له به علم . وقد أجمعت الأمة على تفضيل القرون المشهود لها بالخيرية من الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام . فاعتقاد أفضلية صاحب الطريقة التجانية تزكية على الله بغير علم ، وخرق للإجماع المذكور ، موجب للتبديع والتضليل .

٥ - عقيدة الحساب والجزاء على الأعمال قطعية الثبوت ضرورية العلم . فمن اعتقد أنه يدخل الجنة بغير حساب فقد كفر .

فالمندمج في الطريقة التجانية على هذه العقائد ضال كافر . والمندمج فيها دون هذه العقائد عليه إثم من كثر سواد البدعة والضلال .

ثم هاكم من جواب الأستاذ عن فصول السؤال ، ما يؤيد جوابنا مع تعليقنا عليه : « ومن المكر الخفى والكيد للإسلام المنظوى تحت هذه المقالة تزهيد الناس



في القرآن العظيم وفي تلاوته ثم الإعراض عنه إلى ما هو أخف عملاً ، وفي الميزان أثقل في زعمهم الباطل . وإنى لأعجب لمسلم استنار قلبه بنور القرآن يقبل هذه المقالة في الإسلام ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

لهذا وغيره نقول إن الطريقة التجانية ليست كسائر الطرق في بدعها ، والمشاهد اليوم من أضرارها ، ودعنا من حديث ماضيها بما فيه ، بل هي طريقة موضوعة لهدم الإسلام تحت اسم الاسلام ، فإن كتبها وأقوال أصحاب صاحبها مطبقة على هذه الطوام وأكثر منها ، فلا تجد في كتبهم ما هو خالص منها ، حتى يمكن أن يكون هو الأصل ، وأن غيره ملسوس . وإنك لتجد هذه الكتب محل الرضى والقبول والتقليد عند جميع أتباع الطريقة ، عالمهم وجاهلهم ، ولو كان عالمهم عاملاً بالكلمة المنسوبة إلى صاحب الطريقة ، والله أعلم بصحة نسبتها : ( زنوا كلامي بميزان الكتاب والسنة ) — لأعلموا تلك الكتب أو حرموا على جماعتهم قراءتها ، أو حذفوا منها هذه الكفريات والأضاليل ، أعلنوا البراءة منها للناس . لكن شيئاً من ذلك لم يقع . وإنما يطنطنون بتلك الكلمة قولياً ، ويقرون تلك الكتب وما فيها عملياً . وماذا يفيد القول مع التقرير العمل ؟ ولهذا ، رغم من كان في هذه الطريقة من أناس مشهورين بالعلم كالشيخ الرياحي ، فإن الحالة هي الحالة ، وتلك الكفريات والأضاليل فاشية منتشرة في أتباع الطريقة إلى اليوم .

قال الأستاذ الحجوى — بعد ما نقل أقوالهم في ضمان شيخهم ومضاعفة الأجور لهم ودخولهم اللجنة بغير حساب : « فكأنها ( الطريقة التجانية ) ورقة حماية من دولة لها سلطة عالية ، تعالى من يجير ولا يجار عليه ، فكأنهم نسوا القرآن » .

فبهذا صارت الطريقة التجانية في نظر أهل العلم بالسنة والكتاب كأنها مسجد الضرار ضد الإسلام . فالله يقول في نبيه خاتم النبيين ، وهم يقولون في الشيخ التجاني هو الختم وهو لبنة التمام للأولياء . فحجروا على الله ملكه ، وقطعوا المدد المحمدى ، وهم لا يبالون أو لا يشعرون ، وحتى إن شعروا فالمقصود يبرر الوسطة ، وإذا سمعوا أن النبي أفضل النبيين قالوا إن التجاني رجله على رقبة كل ولي لله ، بهذه العبارة الجحافة من كل أدب ، الجارحة لعواطف كل مسلم ، لأن الولي في عرفهم يشمل النبي ، إذ يقولون إن ولاية النبي أفضل من نبوته ، ولا يبالون أن يكون أصحابهم أفضل



من أبى بكر وعمر والعشرة المبشرين بالجنة الذين كانوا يخافون الحساب ، ولا يأمنون العقاب ، ولم يكن عندهم بشارة بالنجاة منهما ، إذ لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

دعا الإسلام إلى الجِدِّ ومحاسبة النفس والعمل على الخوف والرجاء في جميع نواحي الحياة الدنيا، على أن يكون ذلك على السداد والإخلاص ليكون ذخراً لسعادة الأخرى، فجاءت عقيدة ضمان الشيخ ودخول الجنة بلا حساب هادمة لذلك كله. وقد ظهرت آثارها بالفعل كما حكاه الأستاذ الحجوى فيما يلي :

« حكى لى بعض القضاة قال : كان فى محكمتى تسعون عدلاً فى البادية . وقد تقصيت أخبار الصالح والطالح منهم لأعلم مقدار ثقتى بهم فى حقوق المسلمين ، فوجدت عشرين منهم متساهلين لا يؤمنون على الحقوق ، وحين دققت النظر فى السبب تبين لى أنهم جميعاً تجانيون ، فبقيت متحيراً حتى انكشف لى أن السبب هو اتكالمهم على أنه لا حساب ولا عقاب يترصد لهم فانتزع الخوف من صدورهم . »

هذا فى العلول ، وهم من أهل العلم ، فكيف بالعامّة ؟ فهذه الطريقة ما وضعت إلا لهدم الإسلام ، ولا أجزم بأن صاحبها هو الذى وضعها هذا الوضع ، فقد يكون فىمن اتصل به من كاد هذا الكيد ، ودس هذا الدس ، وليس مثل هذا الكيد جديداً على الإسلام . قال الإمام ابن حزم فى كتاب « الأحكام » ج ٣ ص ٢١ : « فإن هذه الملة الزهراء الحنيفة السمحة كيدت من وجوه جمّة ، وبغيت لها الغوائل من طرق شتى ، ونصبت لها الحبائل من سبل خفية ، وسعى عليها بالحيل الغامضة ، وأشد هذه الوجوه سعى من تزيا بزيهم ، وتسمى باسمهم ، ودس لهم سم الأسود فى الشهد والماء البارد ، فلفظ لهم من مخالفة الكتاب والسنة ، فبلغ ما أراد ممن شاء الله تعالى نخللانه . وبه تعالى نستعيد من البلاء ، ونسأله العصمة بمنه ، لا إله إلا هو . »

### ١٣ - النص الثالث عشر

#### الطرقية<sup>(١)</sup>

كان الناس كأنهم لا يرون الإسلام إلا الطرقية . وقد زاد ضلالهم ما كانوا يرون من الجاحدين والمغرورين من المتسبين للعلم من التمسك بها ، والتأييد لشيونها ، فلما ارتفعت دعوة الإصلاح في « المنتقد » و « الشهاب » حسب الناس أن هدم تلك الأضاليل التي طال عليها الزمان ، ورسخها الجهل ، وأيدها السلطان - محال . ولقد صمد « الشهاب » للطرقية يحارب ما أدخلته على القلوب من فساد عقائد ، وعلى العقول من باطل أوهام ، وعلى الإسلام من زور وتحويل وتشويه ، إلى ما صرفت من الأمة عن خالقها بما نصبت من أنصاب ، وشتت من كلماتها ، بما اختلقت من ألقاب ، وقتلت من عزتها ، بما اصطنعت من إرهاب ، حتى حققت للحق على باطلها الغلبة . فهي اليوم معروفة عند أكثر الأمة حقيقتها ، معلومة غايتها ، مفضوحة دوافعها . . . إذا دعاها داعي السلطان لبت خاضعة مندفعة ، وإذا دعاها داعي الأمة ولت على أعقابها مدبرة . ومن نكاية الله بها أن جعل أكبر فضيحتها على يد من يريد - ممن تولتهم من دون الأمة - مدحها بما لها من مزايا عليه .

لا يهمنا اليوم أن نجهز على الجريح المشخن الذي لم يبق منه إلا فناء ، وإنما يهمنا أن نبين موقفنا مع البقية من شيوننا ونسمعهم صريح كلمتنا .

حاربنا الطرقية لما عرفنا فيها - علم الله - من بلاء على الأمة من الداخل ومن الخارج ، فعملنا على كشفها وهدمها مهما تحملنا في ذلك من صعاب . وقد بلغنا غايتنا والحمد لله ، وقد عزمنا على أن نترك أمرها للأمة ، هي التي تتولى القضاء عليها ، ثم نمد يدنا لمن كان على بقية من نسبته إليها لنعمل معاً في ميادين الحياة على شريطة واحدة : وهي أن لا يكون آلة مسخرة في يد نواح اعتادت تسخيرهم ، فكل طرق مستقل في نفسه عن التسخير فنحن نمد يدنا له للعمل في الصالح العام ،

(١) مجلة الشهاب محرم ١٣٥٧ هـ - مارس ١٩٣٨ .

وله عقلية لا يسمع منا فيها كلمة ، وكل طرق - أو غير طرق - يكون أذناً سماعة وآلة مسخرة ، فلا هوادة بيننا وبينه حتى يتوب إلى الله .

قد نبذنا إليكم على سواء . . « إن الله لا يحب الخائنين » .

هذا عرض سريع لصور من الماضي والحاضر ، لنواح عديدة من الأمة والوطن وما يتصل بهما ، يبين ما كان من تأثير تلك الأصول الإسلامية، التي تمسك بها « الشهاب » - فيها . فالله نرجو أن يثبتنا على الحق وبعيتنا على الصديق به ، وصدق تنفيذه . وحسن تبليغه . حتى يبلغ المسلمون كل خير وسعادة وكمال .

## ١٤ - النص الرابع عشر

## الجزائر المسلمة

## تبرهن في أخرج مواقفها

على تمسكها بشخصيتها : بإسلامها وعروبيتها<sup>(١)</sup>

كبر على الرجعيين وأشباه الرجعيين بفرنسا أن يعطوا الحقوق الانتخابية البرلمانية لعدد لا يتجاوز خمسة وعشرين ألفاً من الأمة الجزائرية ، ما داموا محافظين على شخصيتهم وقوميتهم . كما يقتضيه « بروجي فيوليت »<sup>(٢)</sup> ورأوا أنهم لا يمكن أن ينعموا على الأمة الجزائرية بهذه النعمة إلا إذا رضيت بمحو شخصيتها والانسلاخ من دينها . ثم منهم من صدر في رأيه هذا عن كيد للأمة الجزائرية لصدها عن نيل ذلك الحق الطفيف ، لأنه يعلم أنها لا تتنازل عن شخصيتها فيجد المبرر لحرمانها ، وهذا هو الأكثر . ومنهم من صدر عن حسن قصد مغترأ بكلمات طائشة من أفراد قالوها عن غضب أو قلة تبصر ، فحسب أن الأمة الجزائرية تخضع للأمر الواقع إذا ألزمت بمحو شخصيتها والانسلاخ عن دينها ، فأراد أن يحسن إليها ، ويرغم عتاة الاستعمار خصومها . فأصبحت الجزائر من هذين القسمين بين حرمانها من كل حق لها . وسلبها من أعز كل عزيز عليها ، موقف - والله - من أخرج مواقفها .

لقد كانت عبارة « بروجي فيوليت » قبل « المؤتمر الإسلامي الجزائري » غير صريحة في المحافظة على الشخصية الإسلامية ، وكان قسم عظيم من الأمة ذاهبا مع تياره ، رغم ذلك الإبهام . فلما انعقد المؤتمر في ٧ جوان ١٩٣٦ كان عمل العلماء فيه المحافظة على تلك الشخصية حتى أعلن المؤتمر بالإجماع لزوم المحافظة عليها . فلما عرض فيوليت بروجيه [مشروعه] على وزارة الجبهة الشعبية الأولى التي كان وزيراً فيها

(١) الشهاب في الحجة ١٣٥٦ هـ - فبراير ١٩٣٨ .

(٢) أي مشروع فيوليت .



حور بروجيه [ مشروعه ] نزولاً - عند كلمة الأمة ، فصرح فيه بلزوم المحافظة على الشخصية الإسلامية .

فلما قامت سوق الكلام على هذا « البروجي » في هذه المدة الأخيرة صرح بعض النواب الفرنسيين من الجزائر بأن المحافظة على الشخصية الإسلامية إنما هي وضع العلماء ، وتطرفت صحيفة استعمارية كبيرة فجعلته من تعصب بن باديس . لكنه ما كادت الأمة تسمع بالمساومة على شخصيتها حتى قامت من جميع نواحي الوطن بالاعتراض والاستنكار . فنشر العلماء بيانا وتحذيراً للأمة والحكومة في جريدة « البصائر » ، وأوفدت جمعية النواب لعمالة قسنطينة وفداً وجمعية النواب لعمالة الجزائر وفداً ، وجمعية النواب لعمالة وهران وفداً ، والنواب الماليون والعماليون غير الداخلين في الجمعيات وفداً . وذهبت تلك الوفود كلها إلى باريس . ومعها وفد من رجال الواجهة الشعبية للمطالبة « بروجي » فيوليت ، مع المحافظة التامة على الشخصية الإسلامية ، ولو أدى ذلك إلى الحرمان من كل حق .

فكانت هذه كلمة الأمة الحازمة الحاسمة ، وكانت هي الدليل القاطع على أن العلماء في كل ما يقومون به من خدمة الإسلام والعربية لبقاء الداتية الإسلامية والشخصية القومية هم باسم الأمة يعملون ، وبلسانها ينطقون ، وإن كل من خلطم في خدمتهم فقد خذل الأمة ، وكل من أيدهم في خدمتهم فقد أيد الأمة .

فنحن نهيب بفرنسا التي لا نرى من مصلحة الجزائر في الوقت الحاضر قطعاً أن تراخي علاقاتها بها - أن تحترم الأمة الجزائرية في إسلامها وعرييتها ، وتنبيلها حقوقها . ونلفت نظر كل نائب إلى ما عليه من واجب في حماية الإسلام والعربية اللذين هما أعز كل عزيز على الأمة التي هو نائب عنها . وكفى بكلامتها الإجماعية التي قالتها في مؤتمرها ، وفي هذا الموقف الحرج من مواقفها - دليلاً على منزلتهما عندها .

## ١٥ - النص الخامس عشر

## كلمة مرة

لأنها صريح الحق ولباب الواقع<sup>(١)</sup>

إن تربيتنا العلمية الدراسية المبنية على بيان الحقيقة وإجلالها على ما هي عليه صيرتنا لا نستطيع شيئاً من المواربة والتلبيس .

نعرف كثيراً من أبنائنا الذين تعلموا في غير أحضائنا ينكرون - وربما عن غير سوء قصد - تاريخنا ومقوماتنا، ويودون لو خاعنا ذلك كله واندسجنا في غيرنا. وكنا نرد عليهم بالقول في كل مناسبة تبدو منهم فيها مثل هذه البوادر السامة الخاطئة. ووقع مرة أن كتب بعضهم - وهو ممن له قيمة معتبرة عندنا - ما هو صريح أو كالصريح في ذلك الضلال المهلك فرأينا من الواجب علينا أن نرد عليه بـ ( كلمة صريحة ) نعرب بها في يقيننا عن الحقيقة التي يعتقدها الشعب الجزائري - إلا الشاذ - في صميم نفسه فقلنا في كلمتنا تلك : « الأمة الجزائرية أمة متكونة موجودة كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا . ولها الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال ، ولها وحدتها الدينية واللغوية ، ولها ثقافتها الخاصة وعوائلها وأخلاقيها بما فيها من حسن وقبيح ، شأن كل أمم الدنيا .

ثم إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا . ولا يمكن أن تكون فرنسا . ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت ؛ بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها ، لا تريد أن تندمج . ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري بمحدوده الحالية المعروفة والذي يشرف على إدارته العليا السيد الوالي العام المعين من قبل الدولة الفرنسية » .

فجلينا بكلمتنا هذه الحقيقة مكشوفة في وضع النهار وقطعنا الطريق على كل

متقول بالباطل ، وأرحنا كل باحث ومتردد من بحثه وتردده .

والى ذلك فإننا لم نكن خياليين ننكر الواقع ونكابر فى المحسوس فقد ختمنا كلمتنا بإشراف الوالى العام وتعيينه من الدولة الفرنسية .

حقاً لقد أثرت كلمتنا الصريحة أثرها ، وبلغت حيث أردنا أن تبلغ . فن يوم قلناها إلى اليوم ما زال يتردد صداها فى الصحافة وفى المجالس وفى المؤتمرات ، ومن أظهر مظاهر ذلك قيام م . فرسينانق بها فى مجلس الشيوخ فى الستة الماضية ، وإعادتها فى المؤتمر الراديكالى المنعقد أخيراً . كل ذلك يحاولون به الاحتجاج بها — وهم يعلمون أنها عبرت حقاً عن حقيقة الأمة الجزائرية وعقليتها — على منع الأمة الجزائرية من نيل حقوقها .

لقد أخطأتم خطأ بعيداً أيها السادة !

إن الأمة الجزائرية تطالب فرنسا بحقوقها لما دفعته من ثمن من دماء أبنائها ، ولواقفها الصادقة مع فرنسا فى أيام شدتها ، ولما هى قائمة به لفرنسا من كل ما حمل عليها . وهذا حق لا يستطيع أن ينكره أحد يحترم نفسه ويقدر عواقب التاريخ قلرها .

فأما أن تبذل الأمة الجزائرية فى نيل تلك الحقوق شيئاً من كيانها فهذا ما لا يخطر ببالها ولا يستطيع أحد ممن يتولى شيئاً من أمورها من أبنائها أن يعرضه عليها ، ولو حاول أحد ذلك لنبلته نبله النواة والحذاء المرقع ، كما نبلت من نبلت . . .

ونحن بهذا نتحدى كل من يكون على خلاف رأينا

فهل من أحد يستطيع أن يكذبنا ؟

• • •

# الفهرس

صفحة

مقدمة . . . . . ٧ — ١٤

## الفصل الأول

### الإمام عبد الحميد بن باديس

- ( أ ) مولده . . . . . ١٥ — ١٦  
( ب ) دراسته . . . . . ١٦ — ١٧  
( ج ) عودته إلى الجزائر . . . . . ١٧ — ١٩  
( د ) اشتغاله بالصحافة . . . . . ١٩ — ٢١  
( هـ ) تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين . . . . . ٢٢ — ٢٧  
( و ) مسلكه العملي في بناء الأمة . . . . . ٢٧ — ٣٤

## الفصل الثاني

### الإمام عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الإصلاح

١ — السمات الأساسية في شخصية الإمام بن باديس :

- ( أ ) تسامحه ورفقه بالخلق وتفاؤله . . . . . ٣٥ — ٣٦  
( ب ) رجاء في الله وفرار إليه . . . . . ٣٧ — ٣٨  
( ج ) خلق العفو . . . . . ٣٩ — ٤١  
( هـ ) الشجاعة العقلية النادرة . . . . . ٤١ — ٤٤  
٢ — مظاهر التدهور في المجتمع الإسلامي الجزائري . . . . . ٤٤ — ٤٥  
٣ — أسباب التدهور . . . . . ٤٥ — ٤٨  
٤ — معوقات الإصلاح . . . . . ٤٨ — ٤٩  
٥ — أسس الإصلاح وأسلوب تنفيذه :

- ( أ ) دين وخلق . . . . . ٥٠ — ٥١  
( ب ) الإصلاح الديني . . . . . ٥١ — ٥٢  
( ج ) دعوة إلى العمل . . . . . ٥٢ — ٥٥  
٦ — ظهور فكرة الإصلاح . . . . . ٥٥ — ٥٦  
٧ — مقاومة الرجعية التي تدافع عن الباطل :  
( أ ) أول الغيث . . . . . ٥٦ — ٥٧



## صفحة

( ب ) الوالى يستعين بالرجعية	٥٧ — ٥٨
( ح ) معركة غير متكافئة	٥٨ — ٦١
٨- نجاح الخطوة	٦١ — ٦٤

## الفصل الثالث

## الفكر السياسى للإمام بن باديس

١- أصول الحكم	٦٥ — ٦٧
٢- الوطن الجزائرى	٦٧ — ٧٠
٣- بن باديس والعمل السياسى	٧٠ — ٧٦
٤- مظاهر النهضة الجزائرية فى رأى عبد الحميد بن باديس وتلاميذه	٧٦ — ٨٢

## الفصل الرابع

## فلسفة الإمام بن باديس

١- النظرية والتطبيق	٨٣ — ٨٦
٢- بعض نظرات له فى الأخلاق	٨٦ — ٨٩
٣- ربطه العلم بالدين	٨٩ — ٩١
٤- موقفه من الصوفية	٩١ — ٩٥

## الفصل الخامس

## دراسة مقارنة للإمام بن باديس والماتريدى وابن رشد

١- فكرة السببية عند بن باديس وصلتها بالقضاء والقدر	٩٦ — ٩٩
٢- فكرة السببية عند ابن رشد وارتباطها بالقضاء والقدر	٩٩ — ١٠٢
٣- حرية الإرادة عند بن باديس	١٠٣ — ١٠٦
٤- وجهة نظر الماتريدى وابن رشد فى حرية الإرادة	١٠٦ — ١٠٧
٥- الحسن والقيبح فى نظر بن باديس	١٠٨ — ١٠٩
٦- الحسن والقيبح فى نظر الماتريدى وابن رشد	١١٠ — ١١١
٧- الخير والشر فى نظر الإمام بن باديس	١١١ — ١١٤
٨- الخير والشر فى نظر الماتريدى وابن رشد	١١٤ — ١١٩

## الفصل السادس

## نصوص من تفسير الإمام بن باديس ومن كتاباته وخطبه

- ١ - النص الأول للأستاذ محمد بشير الإبراهيمي في منهج التفسير عند بن باديس ١٢٠ - ١٢١
- ٢ - تلاوة القرآن . . . . . ١٢١ - ١٢٤
- ٣ - عموم النوال من الكير المتعال . . . . . ١٢٤ - ١٢٥
- ٤ - دعاء غير الله . . . . . ١٢٦ - ١٢٨
- ٥ - الحرف والرجاء ، والاعتدال في الإنفاق . . . . . ١٢٩ - ١٣٠
- ٦ - الفرار إلى الله . . . . . ١٣١ - ١٣٢
- ٧ - الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء . . . . . ١٣٣ - ١٣٥
- ٨ - الخلافة أم جماعة للمسلمين ؟ . . . . . ١٣٦ - ١٣٧
- ٩ - خطاب بن باديس في الاجتماع العام لجمعية العلماء . . . . . ١٣٨ - ١٤٠
- ١٠ - العرب في القرآن . . . . . ١٤١
- ١١ - خطاب بن باديس بدار جمعية التربية والتعايم في سنة ١٩٣٩ . . . . . ١٤٢ - ١٤٤
- ١٢ - جواب صريح في مسألة صلاة الفاتح عند التجانية . . . . . ١٤٥ - ١٥١
- ١٣ - الطريقة ( الطرق الصوفية ) . . . . . ١٥٢ - ١٥٣
- ١٤ - الجزائر المسلمة تيرمن في أخرج مواقفها على تمسكها بشخصيتها  
بإسلامها وعروبيتها . . . . . ١٥٤ - ١٥٥
- ١٥ - كلمة مرة لأنها صريح الحق ولياب الواقع . . . . . ١٥٦ - ١٥٧

رقم الإيداع	١٩٧٩/٢٨٤٩
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٢٤٧-٦٥٩-٢

١/٧٩/٩٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)





ABDEL-HAMID BEN BADIS

LE CHEF, SPIRITUEL

de

LA GUERRE DE LA LIBERATION ALGERIENNE

*Par*

**Dr. Mahmoud Kassem**

Doyen de la Faculté de Dar el Oloum

Université du Caire



DAR AL-MAAREF,

Bibliotheca Alexandrina



0352112